ميا كوتو

مكتبة ياسمين

مدوزن الصمت

رواية

ترجمة: راغدة خوري

دال للنشر والتوزيع

في محمية معزولة في موزانبيق التي دمرتها الحرب، كان عالم موانيتو، مدوزن الصمت، المولود كي يصمت، قد تحطم مع وصول امرأة مجهولة.

في المرة الأولى التي رأيت فيها امرأة كنت في الحادية عشرة من عمري. وجدت نفسي فجأة منزوع السلاح كمن لا حول له ولا قوة، لدرجة جعلتني أجهش في البكاء. كنت أعيش في صحراء لا يسكنها فعلياً سوى خمسة رجال: أعطى والدي اسماً لهذه الزاوية المنسية: أورشليم. كانت هذه هي الأرض التي من المفترض أن يكون المسيح قد صُلب فيها. نقطة وانتهى.

بيّن لنا العجوز سيلفستر فيتاليسيو بأن العالم قد انتهى، وأننا آخر الناجين. فيما وراء الأفق لم يكن يظهر أكثر من أراضٍ لا حياة فيها سُميت بشكل غامض: " الجانب الآخر".

❖❖❖❖❖❖❖

" ميا كوتو، ولد وتثقف في موزانبيق(المستعمرة البرتغالية سابقاً) وهو ابن أحد البرتغاليين الذين هاجروا إلى موزانبيق في منتصف القرن العشرين. له العديد من المؤلفات، وهو يُصنف من كتّاب الواقعية السحرية. حصلت كتاباته على جوائز عديدة، وهو يُعد من أحد أشهر كتّاب موزانبيق. كما تُرجمت أعماله إلى لغات عديدة. اعتبرت أول رواياته" أرض مسرنمة" والتي ظهرت عام ١٩٩٢ من أشهر اثني عشر عملاً أفريقياً، وحازت على جائزة الرواية الوطنية من رابطة اتحاد كتّاب موزانبيق. حاز على جائزة نويتشاد للآداب عام ٢٠١٤. وهو الحائز عام ٢٠٠٧ على جائزة الكتابة اللاتينية. وهي جائزة تُشبه جوائز الكومنولث بسعيها لإيجاد ترابط ثقافي بين شعوب أوروبا ومستعمرات سابقة تتكلم نفس اللغة.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

دال للنشر والتوزيع
9 789933 566043

مِيا كوتـو

مكتبة يا سمين

t.me/yasmeenbook

مدوزن الصمت

ترجمة: راغدة خـوري

روايـة

▪ ميا كوتو
▪ ملوزن الصمت
▪ ترجمة: راغدة خوري
▪ جميع الحقوق محفوظة للناشر©
▪ الطبعة الأولى 2017
▪ الإخراج الضوئي: هالا خليل
▪ الناشر: دال للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: 29170
هاتف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

العنوان الأصلي للكتاب

L'accordeur du silence

Mia Couto

« كل تاريخ العالم لا يبدو لي في
أحيان كثيرة
أكثر من كتاب صور تعكس
الرغبات الأشد وحشية
والأكثر عمى للإنسان، ألا وهي:
الرغبة في النسيان»

«الرحلة إلى الشرق»
هرمان هسّه

اصغي، لكن لا أعرف

إن كنت ما أسمعه هو الصمت، أم
صوت الله

« صوفيا دو ميللو براينر أندرسون »

في المرة الأولى التي رأيت فيها امرأة كنت في الحادية عشرة من عمري. وجدت نفسي فجأة منزوع السلاح كمن لا حول له ولا قوة، لدرجة جعلتني أجهش في البكاء. كنت أعيش في صحراء لا يسكنها فعلياً سوى خمسة رجال: أعطى والدي اسماً لهذه الزاوية المنسية: أورشليم. كانت هذه هي الأرض التي من المفترض أن يكون المسيح قد صُلب فيها. نقطة وانتهى.

بيّن لنا العجوز سيلفستر فيتاليسيو أن العالم قد انتهى، وأننا آخر الناجين. فيما وراء الأفق لم يكن يظهر أكثر من أراضٍ لا حياة فيها سُميت بشكل غامض: «الجانب الآخر». وهكذا، وبالقليل من الكلمات، اختُزل العالم قاطبة إلى نموذج مجردٍ من الإنسانية، من الطرقات ومن أي أثر للحيوانات. حتى الأرواح التائهة كانت قد انقرضت هي الأخرى في هذه المناطق النائية.

في المقابل، لا يوجد أحياء إلا في أورشليم. كنا متجاهلين الحنين أو الأمل، بيد أننا كنا أناساً أحياء. هنا، كنا نعيش بوحدة تامة لدرجة لم نعانِ فيها حتى من المرض، وأنا بالتحديد، كنت أعتقد نفسي خالداً.

وحدها النباتات والحيوانات كانت تموت من حولنا، وفي الوهاد، مات نهرنا الذي لا اسم له، وهو مجرى ماء يسيل وراء المخيم. مات من الكذب.

كانت الإنسانية جمعاء تعني بالنسبة لنا: أنا وأبي وأخي «**نتونزي**» و«**زكريا كالاش**»، خادمنا، الذي كما سوف ترون، لم يكن له حتى من وجود. ليس هناك من شخص آخر غيرنا، أو لنقل تقريباً، غيرنا. في الواقع لقد سقط سهواً اسم شبه فردين وهما: أنثى الحمار جيزابيلا، التي كانت تُشبع الشهوات الجنسية لأبي المسن. كما لم أذكر أيضاً خالي «**أبروكزيمادو**». كان هذا القريب يستحق التنويه لأنه لم يكن يشاركنا العيش في المخيم. كان يقطن عند مدخل منطقة امتياز عمليات الصيد، فيما وراء المنطقة المسموح بها، ويقوم بزيارتنا من وقت لآخر. كانت الساعات، والحيوانات الضارية تستلقي بيننا وبين كوخه.

بالنسبة لنا، نحن الأولاد، كان وصول الخال «أبروكزيمادو» يشكل حافزاً لاحتفال كبير. كان بمثابة زعزعة لنمط حياتنا الرتيبة. كان يجلب معه الطعام والثياب والحاجيات من الضرورات الأولية. كان أبي يخرج وهو حانق لملاقاة الشاحنة التي كانت الطلبات تتكدس فيها. يعترض الزائر حتى قبل أن تتخطى عربته الجدار الذي يحيط بالمبنى، ويُجبر الخال على الاغتسال قبل الدخول كي لا ينقل أوساخ المدينة إلى هذا المكان. حتى لو كان الطقس بارداً أو الوقت ليلاً، كان يجب عليه أن يغتسل بالماء والتراب. بعد أن يأخذ حمّامه، كان باستطاعته إفراغ شاحنته، مسرعاً في التسليم، ومختصراً في كلمات الوداع. كل ذلك

يجري في لحظة خاطفة، أقصر من خفق جناح طائر، وأمام أعيننا القلقة. ثم لا يلبث أن يتلاشى أبروكزيمادو من جديد في الأفق.

– إنه ليس أخي المباشر، كان يقول سيلفستر كي يدافع عن نفسه. لا أريد الكثير من اللغو، هذا الرجل بعيد عن عاداتنا.

هذه المجموعة الإنسانية الضامرة والمجتمعة كالأصابع الخمس كانت منقسمة في نهاية المطاف: أبي وخالي وزكريا سود البشرة، وكذلك الحال بالنسبة لبشرتي وبشرة نتونزي لكن بشكل أفتح قليلاً.

– سألت في أحد الأيام: هل نحن من أصول أخرى؟

– أجاب والدي: لا أحد يملك جذوراً. الجذور هي مجرد صفات نحملها معنا.

ربما كان سيلفستر على حق. لكنني عرفت في وقت متأخر جداً بأن هذا الزي يلتصق أحياناً بروح البشر.

– لون بشرتكما آتٍ من لون بشرة والدتكما دوردالما[1] صفاء البشرة هذا. Alminha[2] كانت هجينة نوعاً ما، أوضح خالي قائلاً.

---

[1]: يلعب الكاتب على الاسم. دوردالما يمكن أن يُكتب: douleurdâme أي الروح المعذبة.

[2]: Alminha : تأتي هنا بمعني: أيتها الروح: هي مذابح صغيرة (مصلى) حيث يمكنك التوقف لحظة لإقامة الصلاة. وهي معايير الخدمة للتراث الديني للميت. غالباً ما تُقام مثل هذه الأضرحة على مفترق الطرق الريفية، ويمكن أن تكون أمام المنازل. (المترجم)

كانت العائلة، والمدرسة كما الآخرين، تمثلان لنا وضوح رؤية واعدة في منطقة لا يمكننا التألق فيها. خُلق البعض ليغني، وخُلق آخرون كي يرقصوا، والباقي خُلق فقط ببساطة كي يكون شيئاً آخر. أنا، خلقت كي أصمت، كان الصمت هو رسالتي الوحيدة. والدي هو من شرح ليبأن لدي عطيّة كي لا أتكلم، ناهيك عن موهبة لتنقية الصمت. أكتب بشكل جيد، كلمة الصمت، بصيغة الجمع. نعم، لأن ليس هناك من صمت فريد من نوعه، وكل صمت هو نوع من الموسيقى، لحالة من حالات عمليةحمل.

عندما كانوا يشاهدونني منعزلاً وساكناً في زاويتي غير المرئية، لم أكن في حالة من الإعياء والوهن، بل مفعم، ومسكون بالروح والجسد. كنت أعقدُ الخيط الحسّاس الذي يخيطون به الهدوء، كنت مدوزن الصمت.

تعال يا ولدي، تعال، ساعدني في التزام الصمت.

في نهاية اليوم، كان العجوز يتكئ على كرسي المصطبة. ويبقى هكذا طوال الليل. كنت أجلس عند قدميه ناظراً إلى السماء المظلمة، إلى النجوم في الأعلى. يغمض والدي عينيه ورأسه يتمايل من جانب لآخر، كما لو أن بوصلة تضبط إيقاع هذا الهدوء. ومن ثم يأخذ نفساً عميقاً وهو يقول:

– هذا الصمت، هو أجمل صمت سمعته في حياتي، شكراً موانيتو.

البقاء هادئاً بشكل مناسب، يتطلب من المرء سنوات من الممارسة. أما بالنسبة إليّ، فكان ذلك موهبة طبيعية، وصية من بعض الأسَلاف. ربما أكون قد ورثتها عن أمي دونا دوردالما. من يمكن له أن يؤكد ذلك؟ كانت صامتة لدرجة أنها لم يعد لها وجود، قبل حتى أن نلحظ أنها لم تعش فعلياً بيننا، الأحياء بالقوة.

– أتعلم يا بني؟ هنا كاستراحة المقابر، لكن هدوء هذه الشرفة شيء آخر.

كان صوت أبي هادئاً جداً، ولذا يمكننا أن نقول فقط إن صوته كان نوعاً آخر من أنواع الصمت. سعل، وكان سعاله أجشّاً، جاء غامضاً، من دون كلمات أو قواعد نحوية.

من البعيد، من نافذة البيت المجاور، كان يمكننا رؤية أضواء مصباح ترتعش. كان أخي بالتأكيد يراقبنا. فَطَر الشعور بالذنب قلبي: كنت المصطفى، الوحيد الذي يتشار كمباشرة مع أبينا السرمدي.

– ألا ندعو نتونزي؟

– اترك أخاك. أريد أن أبقى معك وحدك.

– ولكني أكاد أشعر بالنعاس يا أبي.

– فلتبق لفترة أخرى. إنها نوبة غضب. غضب كثير متراكم. لدي رغبة في إغراق هذا الغضب، ولا أملك الشجاعة الكافية لذلك.

– أي غضب يا والدي؟

– قمت لسنوات عديدة بتربية حيوانات برية معتقداً بأنها حيوانات أليفة.

شكوت من النعاس، لكنه هو الذي سقط نائماً. تركته شبه نائمٍ على كرسيه وعدت إلى الغرفة حيث كان نتونزيلا زال مستيقظاً ينتظرني. كان أخي ينظر إليّ بمزيج من الحسد والرثاء:

– مرة أخرى هذه الخَلطة من الصمت؟

– لا تقل ذلك يا نتونزي.

– أصبح هذا العجوز مجنوناً. والأسوأ من ذلك أن هذا الكائن لا يحبني.

– إنه يحبك.

– لماذا لا يناديني قط؟

– يقول إني مدوزن الصمت.

– وهل تصدقه؟ ألا يمكنك أن ترى أن هذه كذبة كبيرة؟

– أنا لا أعرف يا أخي، ماذا عليّ أن أفعل إن كان يحب هو أن أبقى قربه ملتزماً الصمت؟

– ألا تفهم بأن كل ذلك نوعٌ من الثرثرة؟ الحقيقة هي أنك تذكره بوالدتنا المتوفاة.

أعاد عليّ أخي ألف مرة السبب الذي من أجله كان والدي قد اختارني المفضل لديه. وقع سبب هذا التفضيل عليّ دفعة واحدة: عند دفن والدتي، لم يعرف سيلفستر كيف يدشّن ترمله، فانتحى في زاوية

وأجهش بالبكاء. تقدمت حينئذ من والدي، الذي جثا على ركبتيه كي يواجه صغر سني الذي لم يكن يتجاوز الثلاث سنوات. مددت ذراعيّ، وبدل أن أمسح وجهه وضعت يديّ الصغيرتين على أذنيه، كما لو كنت أرغب في تحويله إلى جزيرة وأبعده عن أي صوت كان. أغمض سيلفستر عينيه في هذا المكان دون أي رجع للصدى ورأى بأن دوردالما لم تمت. امتدت ذراعه، عمياء، في الظلام: وهمس: آلمينها!

ولم يعد أبداً لنطق اسمها من جديد. ولا لذكر الحقبة التي كان فيها زوجها. لا بد وأن كل ذلك قد قُتل ودُفن في غياهب النسيان.

– وأنت، يمكنك مساعدتي يا بني.

بالنسبة لسيلفستر كان قد تمّ تعريف مهنتي: السهر على هذا الغياب غير القابل للشفاء، الحفاظ على الشياطين التي التهمت نومه. في إحدى المرات، وبينما كنا نتشارك السكون، غامرت وقلت:

– يقول نتونزي إني أذكرك بأمي، هل هذا صحيح يا أبي؟

– بل على العكس، أنت تبعدني عن الذكريات. هذا الـ نتونزي هو من يسبب لي آلام الماضي.

– هل تعلم يا والدي؟ بالأمس حلمت بأمي.

– كيف يمكنك أن تحلم بشخص لم تعرفه قط؟

– عرفتها، فقط أنا لا أتذكر.

– إنه الشيء نفسه.

– لكن أتذكر صوتها.

– أي صوت؟ دوردالما لم تكن تتحدث تقريباً.

– أتذكر بهدوء يشبه، لا أعرف. يشبه الماء. أحياناً أشعر أني أتذكر المنزل، الهدوء الكبير في المنزل...

– ونتونزي؟

مكتبة ياسمين

– ما به يا بابا؟

– ألا يقول بأنه يتذكر أمه؟

t.me/yasmeenbook

– لا يمر يوم واحد إلا ويتذكرها.

لم يحر أبي جواباً. ابتلع حنقه وقال بصوت أجش، صوت شخص كان قد ذهب بعيداً إلى أعماق روحه: سأقول شيئاً واحداً وسوف لن أكرره بعد الآن أبداً، أنتما لا يمكنكما أن تتذكرا أو تحلما بأي شيء يا ولديّ.

– لكني أحلم يا أبي، وأخي يتذكر الكثير من الأشياء.

– كل ما حلمتما به كان خاطئاً، أنا من زرع هذه الأحلام في رأسيكما، هل تفهم؟

– نعم يا أبي.

– وذاك الذي تذكرانه، هذا أنا من يشعله في رأسيكما.

الحلم هو حوار مع الموتى، رحلة إلى أرض الأرواح. لكن لم يعد هناك لا موتى ولا أراضٍ للأرواح. وصل العالم إلى نهايته، وكانت نهايته نتيجة مطلقة: الموت دون وفاة. تمّ إلغاء بلد المتوفين، أُلغيت مملكة الآلهة. كانت تلك هي الطريقة التي تحدث بها والدي ولم يزل

حتى الآن. هذا التفسير من سيلفستر بدا لي قاتماً ومبهماً. ومع ذلك، كان حاسماً في ذاك الوقت: لهذا السبب ليس في وسعكما لا أن تحلما ولا أن تتذكرا، لأني أنا نفسي لم أعد أحلم ولا أتذكر أيضاً.

– لكن يا أبي، أليس لديك ذكريات عن أمنا؟

– لا عنها ولا عنا لمنزل ولا عن شيء على الإطلاق. أنا لم أعد أذكر شيئاَ.

ونهض وهو يصدر صوتاً حاداً كي يسخّن القهوة. كانت خطواته كشجرة الباوباب وقد انتُزعت منها جذورها. كان يتطلع إلى النار كمن يحدق في المرآة. أغمض عينيه واستنشق الأبخرة العطرة للقهوة، وبعينين مغلقتين غمغم قائلاً:

– سأعترف بخطيئة. لقد توقفت عن الصلاة عند ولادتك.

– لا تقل هذا يا أبي.

– ها أنا قد قلته.

البعض لديهم أطفال كي يصبحوا أكثر اقتراباً من الله. لكن منذ أن أصبح أبي والداً أصبح هو الإله. هكذا تحدث سيلفستر. وتابع قائلاً: الحزانى الكذابون، الوحيدون الأشرار، يعتقدون بأن رثاءهم يرتفع نحو الأعلى، لكن الله أصم.

توقف عن الكلام ليأخذ فنجان قهوته ويستمتع به واختتم قائلاً:

– حتى لو لم يكن أصمّاً، ما هي الكلمات التي يمكن استخدامها لإجراء محادثة مع الله؟

في أورشليم، لم يكن هناك كنيسة من حجر، ولا صليب. في صمتي نصب أبي كاتدرائيته. هنا، كان ينتظر عودة الإله.

في الحقيقة، أنا لم أولد في أورشليم، لنقل بأني مهاجر من مكان دون اسم، دون جغرافيا، ودون تاريخ. عند موت والدتي، كنت في الثالثة من عمري عندماأخذني أبي بأسرع وقت، بصحبة أخي البكر، وغادر المدينة. اجتاز غابات، وأنهاراً وصحاري حتى وصل إلى مكان، كان بحسب اعتقاده من الصعب الوصول إليه. خلال هذه المغامرة الكبيرة، التقينا بآلاف الأشخاص الذين كانوا يندفعون في الاتجاه المعاكس: يخلون الريف باتجاه المدينة، يهربون من الريف الذي في حالة حرب، ليلتجئوا إلى بؤس الأماكن الحضرية. كان الناس يرون في حالتنا أمراً غريباً: لِمَ كانت عائلتنا تندفع بقوة نحو الأماكن، هناك حيث الأمة تشتعل؟

كان والدي يتابع النظر، آخذاً مكانه في المقعد الأمامي. بدا عليه الغثيان، ربما كان قد استسلم للسفر في باخرة عوضاً عن السفر في سيارة.

هنا، هي سفينة نوح بمحركات. أعلن بينما كنا نأخذ أماكننا في السيارة البالية. زكريا كالاش، العسكري القديم الذي كان يساعد أبي في أعماله اليومية، سافر معنا، وأخذ مكانه في الخلف، في الشاحنة الصغيرة القديمة.

– لكن إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل أخي.

– من الآن فصاعداً، لن يكون هناك «أين». قرّر سيلفستر.

خلال رحلتنا الطويلة هذه تجاوزنا ملكية صيد مهجورة منذ زمن والتجأنا إلى مخيم مهجور من الصيادين. حولنا، كانت الحرب قد أفرغت كل شيء، دون أي وازع للإنسانية. حتى الحيوانات كانت نادرة. فقط، كانت هناك الأدغال المعادية، حيث لا طريق يلوح في الأفق. تمركزنا في أنقاض المخيم. أبي في القسم المركزي للخراب؛ أنا وأخي في المنزل المرفق به. واستقر زكريا في مستودع قديم. وبقي البيت الكبير للهيئة الإدارية خالياً.

- قال والدي: هذا المنزل مسكون بالأشباح، ومحكوم بالذكريات.

ومن ثم أمر قائلاً: هنا، يُمنع الدخول.

جرت أمور الترميم بشكل موجز. لم يكن سيلفستر يريد التقليل من شأن ما كان يدعى «أعمال العصر» وقد صبّ كل اهتمامه على مهمة واحدة: في مكان صغير عند مدخل المخيم كانت هناك سارية كانوا يرفعون عليها الأعلام في السابق. فجعل منها والدي قاعدة لصليب ضخم. وفوق رأس المسيح وضع لوحة بحيث يمكن للمرء أن يقرأ: «أهلاً بكم، سيدنا الله». كان هذا اعتقاده: في يوم ما، سيأتي الإله ليطلب منا الغفران.

رسم خالي والخادم إشارة الصليب بارتباك لتجنب الهرطقة. كنا نبتسم، ونحن على ثقة: بأننا لابد وسننعم، ببعض الحماية الإلهية حتى لا نتألم أبداً من مرض، من لدغة أفعى أو هجوم حيوان مفترس.

سألناً مراراً وتكراراً لماذا نحن هنا، بعيدون عن الجميع وعن كل شيء. ويأتي جواب أبي هو نفسه لا يتغير:

– يا أطفالي، انتهى العالم. لم يبق غير أورشليم.

كان لدي إيمان بأقوال الأبوة، بينما كان نتونزي يأخذ الأمر كله على أنه مجرد هذيان. وبعناد، يعود ليسأل سيلفستر من جديد

– ألم يعد هناك أحد في هذا العالم؟

يأخذ سيلفستر فيتاليسيو نفساً طويلاً كما لو كان الجواب يتطلب شجاعة خارقة، ويترك نفسه ليزفر زفرة عميقة، ويتمتم:

– نحن آخر المخلوقات.

وبحرص شديد، قام أبي برعايتنا بعناية وتبصر، مبتعداً عن المغالاة في اللطف. كان رجلاً، وكنا في مدرسة الرجال. كنا آخر الرجال الفريدين من نوعهم. أتذكر بأنه كان يبعدني عنه برقة عندما أقترب وأقبلّه:

– أتغلق عينيك عندما تقبلني؟

– لا أعرف يا أبي، لا أعرف.

– لا يجب عليك القيام بذلك.

– أن أغلق عينيّ يا أبي؟

– بل أن تقبلّني.

على الرغم من البعد الجسدي، كان سيلفستر دوماً بالنسبة لنا أباً وأماً على حدّ سواء، وسلفَ الوقت الراهن. لأن هذا الحماس كان ينفي كل ما كان يطبّل ويزمّر به. لم يكن لهذا التفاني من معنى إن لم يوجد عصر مفعم بآمال المستقبل في مكان غير معلوم.

– لكن يا أبي، هيا قص علينا كيف انتهى العالم؟

– في الواقع أنا لا أذكر.

– لكن الخال أبروكزيمادو....

– خالكم يخترع الكثير من القصص...

– إذن يا أبي، هيا احكِ لنا أنت.

– إليكم ما جرى: لقد انتهى العالم قبل نهاية العالم...

انتهى العالم دون أي مشهد، دون دموع ولا وميض. مضمحلاً مستنفد اليأس. وهكذا، وبشكل غامض، انحرف والدي بشأن مسار انقراض الكون. في البداية بدأت الأماكن الأنثوية بالانقراض: الينابيع، الشواطئ والمياه. ثم لحقت بها الأماكن الذكورية: القرى، الطرقات، والموانئ.

– وحده هذا المكان بقي قائماً، وهنا سوف نعيش إلى الأبد.

نعيش؟ مع ذلك فمعنى أن نعيش تعني أن نحقق أحلاماً، ننتظر أخباراً. لم يكن سيلفستر يحلم ولم يعد ينتظر أي خبر أيضاً. الآن، لم يعد هو نفسه متأكداً من هويته.

كان الخال أبروكزيمادو يضع الماء في خمر أفكار أبي. فقد غادر صهره المدينة لأسباب تافهة، مشابهة لخرف من يتقدم في السن.

– يشكو أبوك من شعوره بأنه يكبر في السن.

الشيخوخة ليست سناً. إنها تعب. عندما يكون المرء مسناً فكل الناس يكون لديهم هيئة متشابهة. كما هي الحال مع شكوى سيلفستر عندما قرر الانطلاق في السفر المثالي، كانت الأمكنة كما السكان كلها مجهولة بالنسبة إليه. في أحيانٍ أخرى ـ وقد كانت كثيرة ـ كان سيلفستر يعلن: الحياة أثمن من أن نبددها في عالم من الأوهام.

– ختم خالي قائلاً: والدك عاطفي جداً. ستنتهي هذه الحالة يوماً ما.

مرت الأيام وتبعتها السنون وأبي مثابر على الهذيان. مع مرور الوقت، بدأت زيارات خالي تصبح نادرة. هذا الغياب المتعاظم جعلني أتعذب، لكن أخي حررني من أوهامي وهو يحذرني قائلاً:

– خالي أبروكزيمادو ليس هو الرجل الذي تعتقد.

– لم أفهم.

– إنه سجّان. هذا ما هو عليه، إنه سجّان.

– كيف هذا؟

– خالك العزيز يحرس السجن الذي نحن محكومون فيه.

– ولماذا يجب علينا أن نكون في سجن؟

– بسبب الجريمة.

– أي جريمة، نتونزي؟

– الجريمة التي اقترفها والدنا.

– لا تقل هذا يا أخي.

كل تلك القصص التي كانوا لدي قد اخترعها عن نهاية العالم، كل تلك النصوص الوهمية لم يكن لها إلا هدف واحد: ذر الرماد في عيوننا، محتفظاً بنا بعيدين عن الماضي. ثم يتابع قائلاً:

– ليس هناك إلا حقيقة واحدة: أبونا العجوز يهرب من العدالة.

– وما الجريمة التي اقترفها؟

– في يوم ما، سوف أحكي لك.

مهما كانت أسباب النفي، فأبروكزيمادو هو الذي وجّه انسحابنا إلى أورشليم قبل ثماني سنوات في شاحنة سقطت متهالكة قطعاً قطعاً. كان خالي يعرف الوجهة التي حُدّدت لنا، فهو كان قد عمل في السابق كحارس صيد في تلك الملكية. كان يتفاهم هنا مع الحيوانات كما مع البنادق، في الغابات كما في المروج الفسيحة. بينما كان يقودنا في عربته القديمة، ويده متدلية خارج بابها. كان يستعرض خلال الطريق معرفته عن الحيوانات، وأسرار الأدغال.

وصلت الشاحنة الشهيرة ـ سفينة نوح الجديدة ـ إلى وجهتها لكنها في نهاية الأمر ردّت الروح على باب ما سيُثبت قريباً على أنه بيتنا. بقيت الشاحنة واقفة لتتلف في مكانها، وأصبحت لعبتي المفضلة، وملجأ حلمي. بجلوسي وراء مقودها المتوفى، كان يمكنني اختراع رحلات لانهائية، وقطع مسافات واجتياز حواجز. وكما يفعل أغلب

الأطفال، كان باستطاعتي أن أقوم بجولة حول الكوكب حتى يصبح العالم أجمع تحت سيطرتي. لكن هذا لم يحصل أبداً: حلمي لم يكن قد تعلّم السفر. فالذي عاش ناصباً خيمته في أرض واحدة لا يعرف أن يحلم في أمكنة أخرى. كانت خيالاتي مقيدة وانتهى بي الأمر بتحسين عروض أخرى لصد الحنين. لهذا، ولإبطال بطء مرور الساعات، كنت أعلن قائلاً: «سأذهب إلى النهر».

بالطبع لم يكن أحد ليسمعني. في حين كنت أجد لذة كبيرة في هذا الإعلان بحيث كنت أستمر في ترديده وأنا في طريقي باتجاه الوادي. في الطريق، كنت أقف أمام عمود نور كان قد نُصب منذ زمن لكنه لم يعمل قط. كانت البراعم الخضراء قد نمت فوق عواميد النور المنصوبة في الأرض وأصبحت اليوم أشجاراً بقمم رائعة، فيما عدا هذا العمود الذي بقي وحده عارياً، متمسكاً بالأرض، يجابه وحده أبدية الزمن. كان نتونزي يقول بأن هذا العمود ليس عبارة عن جذع مغروز في الأرض، بل هو في الأصل سارية سفينة كانت قد تاهت في البحر. أيضاً، كنت أضع فوقه قبلة على الدوام كي أتلقى العزاء من أحد الأقارب المسنين.

وأنا في النهر، كنت أستمر غارقاً في أحلام ممتدة. كنت أنتظر أخي الذي كان يأتي ليسبح في نهاية الغسق. كان نتونزي يخلع ثيابه ويبقى هكذا واقفاً ينظر إلى الماء في حنين مشابه تماماً لذاك الحنين الذي كنت أراه في عينيه وهو يتأمل حقيبة سفره، التي كان يقوم بتوضيبها كل يوم ليعود ويفرغها من جديد. سألني في إحدى المرات:

– هل سبق لك أن كنت تحت الماء، أيها الصغير؟

قمت بإشارة نفي، واعياً بأني لم أفهم تماماً عمق سؤاله.

– يمكننا تحت الماء رؤية أشياء من المستحيل أن نتخيلها.

لم أفك كلام أخي الملغوم. لكن شيئاً فشيئاً بدأت أشعر: هذا النهر الذي لا اسم له هو الشيء الوحيد الحيّ، والتيار الجاري الأكثر حقيقية في القدس. أخيراً، كان لحظر الدموع والصلاة معنى. لم يكن أبي مختلاً مثلما كنا نعتقد. فإن كان هناك مكان للصلاة أو البكاء فالمكان الوحيد سيكون هنا، على شط هذا النهر، وهو راكع على الرمل المبلل.

– يقول أبي دوماً بأن العالم قد مات، أليس كذلك؟ سأل نتونزي.

– حسناً، أبي يتفوه بأشياء كثيرة.

– العكس هو الصحيح. ليس العالم هو من توفى، بل نحن الأموات.

ارتعشت، تسللت البرودة من روحي إلى جسدي، ومن جسدي إلى بشرتي. هذا يعني بشكل قاطع بأن منزلنا هو الموت بعينه؟

– لا تقل هذا نتونزي، فهذا يخيفني.

– حسناً، يجب أن تعرف: نحن لم نغادر العالم، نحن اقتلعنا كما تُقتلع الشوكة من الجسم.

آلمتني كلمات أخي، كما لو أن الحياة كانت مزروعة في جسدي وكي أكبر، كان يتوجب عليّ اقتلاع هذه الشوكة.

– في يوم ما، سوف أقص عليك كل شيء ـ هكذا وضع حداً لهذه الحوار ـ ولكن الآن، أيها الأخ الصغير، ألا تريد رؤية الجهة الأخرى؟

– أي جهة أخرى؟

– الجهة الأخرى، أنت تعرف: العالم، الطرف الآخر؟

تأملت الجوار قبل أن أجيب. كنت أتأكد من أن أبي لا يراقبنا. تفحصت قمة الهضبة، وراء الأبنية. خشية من أن يمر زكريا.

– انزع هذه الثياب، هيا.

– يا أخي، أنت لا تريد أن تؤذيني أليس كذلك؟

تذكرت المرات العديدة التي كان يرميني فيها في مياه المستنقعات الراكدة: كنت أبقى سجين الأعماق، وقدماي متشابكتان مع جذور القصب المغمورة.

– تعال معي. دعاني قائلاً.

دخل نتونزي إلى النهر وغطست قدماه في الطين. سار حتى وصلت المياه إلى منتصف صدره وحثني كي أتبعه. شعرت بالتيار يتحرك حول جسمي. أمسك نتونزي بيدي خشية أن تجرفني المياه.

– هل سنهرب يا أخي؟ سألت بحماس تام.

شعرت بالألم لعدم تفكيري أبداً في النهر بهذه الطريقة: النهر كان الطريق المفتوح، الأخدود المحفور دون خطر. كان المخرج الوحيد هنا، ونحن، نحن بكل بساطة لم نكن قادرين على رؤيته. رحت أضع الخطط بصوت عالٍ. وقد تضاعفت رغبتي: من يدري، إن عدنا إلى

الضفة وبدأنا بإنشاء قارب صغير؟ نعم، يكفي قارب صغير كي يبعدنا عن هذا السجن ويفتح أمامنا العالم على مصراعيه. تأملت نتونزي الذي بقي لامبالياً بهذياني.

– لن يكون هناك قارب صغير أبداً، انس الأمر.

أفراس النهر، والتماسيح التي كانت تحتلّ أعماق النهر هل ستخرج لي رأسها مصادفة؟ والمنحدرات والشلالات؟ أخيراً الأخطار والفخاخ اللانهائية التي كان يخفيها النهر؟

– لكن هل سبق لأحد أن ذهب إلى هناك؟ إنه فقط الشيء الذي نسمعهم يتحدثون عنه...

– اصمت، وحافظ على هدوئك.

تبعته ضد التيار وأبحرنا في تموجات النهر حتى وصلنا إلى منطقة كان النهر يتمايل فيها كالأفعى، حزيناً، وشاطئه مفروش بالحصى. تلك المياه النائمة كانت تتمتع بصفاء مذهل. ترك نتونزي يدي وأشار إليّ بأن يجب أن أقلده. غطس عندئذ في الماء، وعندما غمرته بالكامل، فتح عينيه كي يتأمل النور المنعكس على سطح المياه. وهذا ما قمت به أنا الآخر: وأنا في عمق النهر، رحت أتأمل سطوع الشمس، أبهرني هذا الوميض بغشاوته الكثيفة والناعمة. إن كان هناك وجود لعناق أم، فلا بد وأنه سيكون مشابهاً لهذا الشعور.

– هل أعجبك هذا؟

– أأعجبني؟ إنه جميل جداً يا نتونزي، فنحن نلتقي بنجوم سائلة، نجوم في عز النهار، جميلة جداً!

– أرأيت يا أخي الصغير؟ ها هنا يكمن الطرف الآخر.

عدت أغطس من جديد لأتلذذ بهذا الخَدر. مع ذلك، في هذه المرة، انتابني دوار وجعل الأمر يختلط عليّ ما بين السطح والأعماق. بقيت هنا أدور في مكاني كما سمكة عمياء دون أن أعرف كيف يمكن لي العودة إلى السطح. كاد الأمر ينتهي بغرقي لو لم يسحبني نتونزي إلى الشط. بعد أن وضعني، اعترفت بأن رعشة قد أصابتني وأنا تحت الماء.

– ألا يوجد من يراقبنا من الطرف الآخر؟

– نعم، إنهم يراقبوننا. إنهم هؤلاء الذين سيأتون لاصطيادنا.

– هل قلت «يبحثون»؟

– بل «يصطادون»[3].

كنت أرتجف. فكرة أن نتحول إلى أسماك، أسرى المياه، جعلني أصل إلى نتيجة مرعبة: الآخرون. هؤلاء الذين من جهة الشمس كانوا هم الأحياء، المخلوقات البشرية الوحيدة على وجه الأرض.

– يا أخي، هل حقاً نحن أموات؟

– وحدهم الأحياء من يستطيع أن يعرف يا أخي الصغير. هم وحدهم.

---

[3]: لفظ الكلمتين قريب من بعضه في اللغة الفرنسية: pêcher ... chercher (المترجم)

لم يثبط حادث النهر من عزيمتي. بل على العكس، فأنا لم أتوقف عن العودة مرة أخرى إلى منحنى النهر، وأترك نفسي لأغوص في مياهه النائمة، باقياً لوقت لانهائي، بعينين مبهورتين لزيارة الطرف الآخر من العالم. لم يعرف أبي أبداً، لكن هنا. وليس في أي مكان آخر، قمت بإجادة موهبتي بدوّزنة الصمت.

أبي، سيلفستر فيتاليسيو

عشت في الاتجاه المعاكس
مستمراً في السفر عكس السير
متحرراً من ذاتك
أرمل من نفسك
(....)

صوفيا دي ميللو أندرسن [4]

---

[4]: صوفيا دي ميللو أندرسن: أهم شاعرة برتغالية في القرن العشرين (1919 ـ 2004)

عرفت أبي قبل أن أعرف نفسي. لهذا فأنا بشكل ما، هو. في غياب الأم، كان صدر سيلفستر البارز العظام هو حضني الوحيد وقميصه البالي منديلي، وكتفه النحيل وسادتي، وشخيره الرتيب هدهدتي الوحيدة.

لسنوات وسنوات بقي والدي روحاً رقيقة. كانت ذراعاه تحيطان بالكرة الأرضية، وفيهما يقيم أقدم سلام. على الرغم من كونه المخلوق الغريب ولا يمكن التنبؤ بأفعاله، كنت أرى في هذا المسن سيلفستر الشخص الوحيد الخبير بمعرفة الحقائق، الرائي الانفرادي للبشائر.

اليوم، أصبحت أعرف: فقدَ والدي اتجاه الشمال. كان يلمح أشياء لم يكن بوسع أحد معرفتها. تلك الرؤى كانت تخرج خاصة عندما كانت رياح أيلول تعصف بالسافانا. بالنسبة لسيلفستر كان الأمر عبارة عن رقص للأرواح. تصبح الأشجار في العاصفة أشخاصاً، إنهم الأموات الذين يندبون، راغبين في اقتلاع جذورهم. هكذا كان يتكلم سيلفستر، منعزلاً في غرفته، متحصناً خلف الأبواب والنوافذ في انتظار هدوء العاصفة.

– الهواء ممتلئ بالأمراض، كل هواء هو شر معدٍ.

في أيام عاصفة كهذه، كان يأمر العجوز بعدم خروج أحد من غرفته. كان يستدعيني لأبقى بجانبه، محاولاً دون جدوى تخصيب الصمت. لم أنجح مطلقاً في تهدئته من خلال حفيف أوراق الشجر. كان سيلفستر يسمع أصوات محركات، قطارات، ومدنٍ صاخبة. عصف الريح بين الأغصان كان يُفجّر كل ما حاول نسيانه.

– كنت أخاطر وأسأله: لكن يا أبي، مما أنت خائف؟

– كان يشرح لي قائلاً: أنا شجرة.

شجرة نعم، لكن دون جذورها الطبيعية. كان يختبئ في أرض غريبة، في هذا البلد المتحرك الذي اخترعه لنفسه. لم يتوقف هذا الخوف من الأشباح عن الازدياد سوءاً مع مرور الأيام. نشر الخوف على الأشجار مسارات ليلية وفي باطن الأرض. في بعض الأحيان كان والدي يأمرنا بإغلاق فتحة البئر ساعة النوم. يمكن لمخلوقات مرعبة أن تبرز بشكل متعمد من هذه الفوهة المفتوحة. تخيلي لرؤية تلك المخلوقات تنبثق من الأرض كان يجعلني أرتجف.

– بابا، ما الذي يمكن أن يخرج من البئر؟

ما كنت أجهله هو أن بعض هذه الزواحف التي كانت تحفر قبور الموتى وتجمع تحت أظافرها وأسنانها بقايا الموت نفسه، هذه السحالي تتسلق الجدران الرطبة للآبار، وتغزو النوم وتبلل أغطية الأشخاص الراشدين.

– لهذا لا تستطيع النوم بقربي.

- لكني خائف يا أبي، أريد فقط أن تدعني أنام في غرفتك.

لم يُعلق أخي البتة على ادعائي بأسباب نومي بالقرب من والدي. كان يراني في عمق الليل، وأنا أتقدم بشكل خفي في الممر، وأقف عند عتبة الباب الممنوع للغرفة الأبوية. عديدة كانت تلك المرات التي كان نتونزي يأتي فيها ليحملني وأنا نائم، ممدد كخرقة على الأرض الباردة.

- عد إلى غرفتك، لا يجب ألا يراك أبي هنا.

أتبعه وأنا مخدر بالكامل فلا أتمكن من شكره. كان نتونزي يقودني إلى سريري. وفي إحدى المرات أمسك بيدي وقال:

- هل تعتقد بأنك خائف؟ إذاً حسناً، فلتعلم بأن والدنا خائف أكثر منك.

- بابا؟

- هل تعلم لماذا لا يريدك أبي في غرفته؟ لأنه يموت خوفاً من أن يُفاجأ وهو يحكي في منامه.

- يحكي ماذا؟

- أشياء لا يمكن البوح بها.

من جديد، كانت دوردالما، أمنا المتوفاة، هي السبب بكل هذه الغرابة. عوضاً عن أن تتلاشى في الماضي كانت تتغلغل بين شقوق الصمت، وطيات الليل. لم يكن هناك من وسيلة لحجب هذا الشبح. موتها الغامض، دون سبب أو شكل، لم يحجبها عن عالم الأحياء.

– بابا، هل ماتت والدتي؟

– أربعمائة مرة.

– كيف؟

– سبق وقلت لك أربعمائة مرة: أمك ماتت، كما لو أنها لم تعش على الإطلاق.

– وأين دُفنت؟

– حسناً، دفنت في كل مكان.

ربما يكون هذا هو السبب: أفرغ أبي العالم أجمع كي يملأه باختراعاته. في البداية كنا ما زلنا نندهش من طيور مفاجئة تتحرك من خلال كلماته وترتفع كما الدخان.

– العالم: هل تريدون أن تعرفوا كيف هو العالم؟

كانت عيوننا وحدها من تجيب. نعم، نحن ننتظر بفارغ الصبر أن نعرف، كما لو كانت الأرض التي نسلكها تتعلق بهذه المعرفة.

– حسناً، العالم يا أولادي...

ويأخذ استراحة، ويهز رأسه كما لو كانت الأفكار تثقل عليه تارة نحو اليمين وأخرى نحو اليسار. ومن ثم ينهض، ويردد بصوت جاد وعميق:

– العالم يا أطفالي...

في البداية، كان هذا الاجترار يسبب لي الرعب. فربما لا يعرف أبي في النهاية ماذا يجيب، وكان هذا نوعاً من الهشاشة بحيث يصعب

عليّ احتمالها. كان سيلفستر يعرف كل شيء، وهذه المعرفة المطلقة كانت هي المنزل الذي يحميني. هو من يطلق الأسماء على الأشياء، هو الذي كان يعمّد الأشجار والثعابين، هو الذي يتنبأ بهبوب العواصف والفيضانات. كان أبي هو الإله الوحيد المفروض علينا.

– موافق، أنتم تستحقون ذلك، سوف أحكي لكم عن العالم...

كان يتنهد، فأتنهد بدوري. كلماته عادت من جديد إليه، وزوّدني نوره مرة أخرى بعمق اليقين.

– حسناً، الأمر بسيط يا أولادي: العالم مات، لم يعد هناك من شيء فيما وراء أورشليم.

– ألم يبقَ هناك من نساء؟ يسأل نتونزي.

يرتفع حاجبا سيلفستر، وعندما يشعر أخي أن سؤاله كان مستفزاً، يُعدّل من لهجته ليقول: دون نساء، لن يبقى لنا بذار.

يرفع أبي ذراعيه ويحيط بهما رأسه برد فعل شبه طفولي. يكرر نتونزي السؤال، كما لو كانت أظافره تصر على الزجاج:

– دون نساء، لا توجد بذار...

أكدّت حدّة سيلفستر الحظر القديم غير المعلن عنه أبداً: كانت النساء موضوعاً يُمنع الكلام فيه، محظوراً أكثر من الصلاة نفسها وآثماً أكثر من الدموع والغناء.

– لا أريد هذا النقاش. لا وجود للنساء هنا... ولا أريد حتى سماع هذه الكلمة...

- اهدأ يا أبي، كنت أريد فقط أن أعرف...

- نحن لا نتفوه بأشياء مماثلة في أورشليم. النساء هن جميعاً... هن عاهرات.

لم يسبق لنا على الإطلاق أن سمعناه ينطق بكلمة كهذه. لكنه ظهر وكأنه قد حلّ عقدة. منذ الساعة أضحت كلمة «عاهرة» تدل فيما بيننا على كلمة «امرأة». وإذا ما قام أبروكزيمادو بغفلة بالإشارة إلى النساء، كان أبي يتحرك في البيت من مكان لآخر صائحاً: «كلهن عاهرات!».

كان هذا التصرف يُعتبر بالنسبة إلى نتونزي البرهان على تعاظم هذيان سيلفستر. بالنسبة إليّ كان والدي يعاني من مرض عابر. هذه العاهة قادته إلى أن يطلب منا في عزّ الشتاء، وفي الوقت الذي تصبح فيه الغيوم عقيمة لا ماء فيها، بأن نحفر في الأرض الصلبة لنستكشف آباراً جافة وخاوية.

في نهاية اليوم، كان أبي يتفحص الحُفر الهزيلة، والشقوق وسط تلة من التراب والحصى، كي يتأكد من فاعلية العمل، ثم ينتقل إلى عنصر التحكم التالي: سوف نُنزل نتونزي، مربوطاً من قدميه بحبل طويل، داخل الحفرة الصخرية. وبقلق، كنا نراه وقد ابتلعته الأعماق، مربوطاً فقط بالرابط الأخير في عالم الأحياء. كان الحبل الممدود بين يدي سيلفستر يشكل الجهة الأخرى للحبل السري. ثم نقوم برفع أخي ونطلق سراحه على السطح لنفتح في أقرب وقت حُفراً إضافية. ننهي

اليوم منهكين، تغطينا الرمال، وشعرنا منكوش من الغبار. من وقت لآخر كنت أغامر مرة أخرى وأقول:

– لماذا نحفر يا أبي؟

– هذا فقط كي يرى الرب. فقط كي يرى.

لم يكن الرب يرى، فأرضنا بعيدة جداً. والمَغلي الإلهي لن ينصبُ من خلال هذه الفجوات ضمن الأوعية المرتعشة في الأرض. كان سيلفستر يريد تشنيع عمل الخالق، كما الزوج الغيور الذي كان يشوه جمال زوجته كي لا يستمتع الآخرون بجمالها. مع ذلك، كان شرح هذا الموضوع مغايراً تماماً، فالآبار ببساطة كانت عبارة عن فخاخ.

– فخاخ؟ ولكن لأي من الحيوانات؟

– إنها حيوانات أخرى، قادمة من بعيد. أسمع مسبقاً صوت الأوغاد وهم يطوفون في الجوار.

مهما كانت نوعية عدم ثقته، كنا نعرف بأن الشرح سيتوقف عند هذه النقطة. هناك شعور مبهم وشيك لشيء ما لا يمكن تحاشيه يستولي على العجوز سيلفستر. كانت الأوامر التي نتلقاها غير قابلة للنقاش. على سبيل المثال، كنا أنا وأخي وزكريا نبدأ بكنس الدروب التي حول منشأة سيلفستر. وكلمة «كنس» تأخذ معناها فقط عند لغة العجوز، أما في الحقيقة فقد كنا نقوم بفعل معاكس: ننشر الغبار والأحجار، وننثر الأغصان والحبوب. ماذا كنا نفعل في الحقيقة؟ كنا نقتل على المسارات

الناشئة النية لتنمو وتتحول إلى مكان صالح لطريق عابر، مدمرين بذلك إمكانية نشوء أي نواة، لأي وجهة كانت.

– لماذا نمحو الطريق يا أبي؟

– لم يسبق لي أبداً أن رأيت طريقاً لم يكن حزيناً. يجيب دون أن يرفع بصره عن أعواد القصب التي كان يجدل بها سلّة.

وبما أن أخي لم يكن ليستسلم، مظهراً بأن الجواب لم يكن قد سرّه على الإطلاق، كان أبي يتابع شرحه. لم يكن أمامنا إلا أن نعرف إلى ماذا يؤدي الطريق.

– يؤدي إلى خالي أبروكزيمادو وطلبياتنا.

مُبدياً بأنه لم يسمع، كان سيلفستر يتابع بهدوء أعصاب:

– ترقّبْ. هذا ما يقود إليه الطريق. والترقّبْ هو الذي يقصّر العمر.

ونعود مرة أخرى لنسجن تحت هذه الغيوم الجافة والسماوات العجوز. وعلى الرغم من الوحدة، لم نكن لنستطيع أن نشتكي من الخمول. كانت ساعات يومنا منظمة منذ انبلاج الصبح حتى حلول المساء.

دورة ضوء النهار كانت موضوعاً جدياً في عالم ضاعت فيه فكرة التقويم. في كل صباح، كان العجوز يعاين فيها عيوننا، متفحصاً بانتباه داخل البؤبؤ. كان يريد أن يتأكد إذا ما كنا قد شهدنا بزوغ الفجر. كان هذا يمثل لديه أول واجب من واجبات الأحياء: رؤية بزوغ النجم

الخالق من بريق النور الذي سوف يستمر في عيوننا. كان سيلفستر يعرف متى نكذب، ومتى كنا نبقى لوقت طويل تحت غطائنا.

- هذا البؤبؤ ممتلئ بالليل.

في نهاية اليوم، كان لديه التزامات أخرى هي أيضاً مقدسة. في اللحظة التي كنا نأخذ فيها استراحة كان يستعلم منا قائلاً:

- هل قبّلت الأرض، يا بني؟

- نعم يا أبي.

- بذراعين مفتوحتين على التربة؟

- كما سبق وعلمتني.

- إذن، هيا اذهب إلى النوم.

عموماً، كان ينسحب في وقت مبكر، ولا يراقب ساعة النوم. نرافقه حتى غرفته ونبقى في وضعية الحراسة حتى يأخذ مكانه في السرير. يهزّ يده ببطء ويقول بصوت واهن:

- الآن يمكنكما الذهاب. ها قد بدأت أغادر جسدي.

في اللحظة التي تلي ذلك يغفو. حينئذ، تبدأ معجزاتنا المحلية في الظهور: تُشعل الشموع وحدها في كل أرجاء المنزل. لاحقاً، بعد أن نخلد إلى النوم، كنت أسمع أنفاس نتونزي الثقيلة تدشن مملكة البومات والكوابيس. من وقت لآخر، كنت أجد أخي يمشي أثناء نومه متمتماً بصوت ليس له:

- ماتوس فينتورا، سوف تُحرق بنار جهنم!

كان أخي البكر يواجه السلطة الأبوية حتى في منامه. هذا الاسم، كان يظهر من بين الأسرار التي لا يجب ذكرها في القدس. في الحقيقة، كان سيلفستر فيتاليسيو قد اتخذ لنفسه اسماً آخر. فقد كان يُدعى في السابق فينتورا. عندما انتقلنا إلى أورشليم، منحنا والدنا أسماء أخرى. بإعادة تعميدنا بهذه الأسماء، أصبح لدينا ولادة جديدة، وأخذنا نبتعد أكثر فأكثر عن الماضي.

لم يكن تغيير الأسماء من الأعمال السهلة التي وُضعت قيد التنفيذ هكذا ببساطة. فقد شكّل سيلفستر طقساً ذا أبهة وظُرف. فعند مغيب الشمس، بدأ زكريا بقرع الطبل وبالصراخ، وهو يصيح بابتهال غير مفهوم. ركّزنا انتباهنا ـ أنا وأخي وخالي ـ على فسحة الأرض الصغيرة، ونحن واقفون وصامتون، بانتظار الكشف عن سبب الدعوة. عندئذ، قام سيلفستر بدخول المكان، وهو ملتحف بغطاء. حاملاً قطعة من الخشب، ويتحرك بهيئة نبي، حتى وصل إلى الصليب وقام بغرز قطعة الخشب في الأرض. فهمنا وقتئذ بأن تلك كانت لوحة نُقش عليها اسم بالأحرف الكبيرة. أعلن والدي فاتحاً ذراعيه:

– هنا يكمن آخر مكان في العالم، وسوف يدعى أورشليم.

فوراً بعد ذلك، أمر زكريا بجلب دلوٍ من الماء. رشّ الأرض ببعض القطرات، لكنه ندم على الفور. لم يكن يرغب أن يسقي الموتى. فقام بنبش الرمل المبلل بقدمه حتى محا كل أثر من آثاره. بعد أن قام بتصحيح خطئه أعلن بصوت عميق:

– فلننتقل الآن إلى مراسم العماد.

راح ينادينا اسماً وراء الآخر. وقد جرى الأمر هكذا: أورلاندو ماكارا، خالنا العزيز، أصبح الخال أبروكزيمادو. وتحول اسم أخي البكر من أوليندو فينتورا إلى نتونزي. والمعاون إرنستو سوبرا أصبح زكريا كالاش. وماتوس فينتورا، والدي المعذب، تحول إلى سيلفستر فيتاليسيو. وقد احتفظت وحدي باسمي نفسه: موانيتو.

– هذا الأخير ولد حديثاً. هكذا برر والدي احتفاظي باسمي.

كنت أملك عدة سُرّات، وقد سبق لي وولدت مرات لا تحصى في أورشليم، هكذا صرّح سيلفستر بصوت عالٍ. وولادتي الحقيقية كانت في أورشليم. الطرف الآخر من العالم الذي هربنا منه، كان جد حزين بحيث لم تكن لدى أحد الرغبة أبداً بالولادة فيه.

– لم يسبق لي على الإطلاق أن عرفت أحداً قد ولد على ذوقه. ربما هذا الـ زكريا...

كان زكريا هو الوحيد الذي ضحك. وهو نفس زكريا الذي عُيّن بشكل مفخّم لتسجيل أسمائنا الجديدة بشكل رسمي.

– هيا سجّل السكان في التعداد، حدّد كل شيء على هذه العلامة. أمر والدي قائلاً وهو يمد له بسكين صيد قديمة.

مترنحاً، قرفص زكريا بطريقة يستطيع معها الإمساك باللوحة بين قدميه. تأخر في البدء في التسجيل، كانت سكينه تقفز من أصبع لآخر ومن يد إلى أخرى.

– اعذرني فيتاليسيو، هل أكتب أو أسجل؟

– اكتب ما سوف أمليه عليك.

كان زكريا يسجل بعناية كما لو كان كل حرف يشكل جرحاً على جسده الحيّ. أحياناً كان يوقف سكينه المقوس: فيتاليسيو، بحرف «V» صغير؟

في هذه اللحظة، قاطع العم أبروكزيمادو هذه المراسم، وسأل سيلفستر إن كان كل هذا جدياً، وبأن يتذكر على الأقل أسلافه وهو على وشك تسمية أولاده. لقد احتفظوا على الدوام بهذه العادة، من جيل إلى آخر.

– هدّئ من روح أسلافنا، امنح أطفالك اسمهم. احمِ هذين الطفلين.

– بما أنه لم يعد هناك من ماض، فلن يكون هناك من أسلاف.

غادر الخال أبروكزيمادو المراسم منزعجاً، ولحق به نتونزي وتركاني لا أعرف ماذا أفعل. كنت الجندي الذي بقي واقفاً على قدميه، باحثاً عن حل من أعالي السماء أمام هذا التردد الهجائي. أحكم سيلفستر، المولع بالطقوس، الغطاء حول رقبته وأكدّ قائلاً:

– نحن خمسة، لكن لا يوجد سوى أربعة شياطين. أنت ـ وأشار نحوي ببنانه ـ أنت ينقصك شيطان. وبالمقابل لا ينقصك أي اسم... موانا[5]، موانيتو، هذا يكفيك.

هذا المساء، استطعت بصعوبة التوصل إلى النوم، مصحوباً بضوء القمر. فكلمات والدي الأخيرة غير المكتملة بشأن والدتي كانت ترن في

---

[5]: Mwana: موانا هي تصغير لكلمة صبي في لغة وسط الموزامبيق.

أذني. وتبادر إلى ذهني بأني كنت المسؤول عن يُتمي. لم تكن أمي قد ماتت لأنها توقفت عن العيش بل لأن جسدها قد افترق عن جسدي. كل ولادة هي بشكل ما نوع من الإقصاء، والتشويه. لو كان الأمر بيدي، لبقيت دوماً قطعة من جسدها، نسبح في دماء واحدة. يتكلم المرء عن «المرأة الماخض»، حسناً، سيكون من الأصح القول «المرأة المصدّرة»[6]. وقد أردت تصحيح هذا المسار.

سرقت الحرب ذكرياتنا وآمالنا. لكن، وبشكل غريب، فالحرب هي من علمتني قراءة الكلمات، وسوف أشرح السبب: فككت أولى حروفي من تسميات كانت لا تزال عالقة فوق صناديق أدوات الحرب. كانت غرفة زكريا في خلفية المعسكر تشكل ترسانة حقيقية. «وزارة الحرب»، كما كان يدعوها أبي. قبل وصولنا إلى القدس كانوا قد خزّنوا فيها الذخيرة والسلاح، وقد اختار زكريا هذا الجزء ليقيم فيه. في نفس هذا الكوخ، فاجأني العسكري وأنا على وشك فك أحرف ملصقات الحاويات.

– هذا لا يُقرأ أيها الصغير. وبخني العسكري السابق قائلاً.

– هذا لا يُقرأ؟ لكنها تبدو كحروف...

– يبدو ذلك، لكن لا. إنها أحرف روسية، حتى الروس لا يعرفون قراءتها...

---

[6]: أيضاً هناك تشابه بكتابة الكلمة باللغة الفرنسية: «parturiente» و«partance». (المترجم)

بحركة مفاجئة قام زكريا بتمزيق الملصقات. ثم، أعطاني غيرها وقد قام بسحبها من جارور، والتي كانت، على حد قوله، عبارة عن ترجمة قامت بها وزارة الدفاع للملصقات الأصلية باللغة الروسية.

– لا تقرأ إلا هذه الأوراق التي هي من أصل برتغالي محض.

– علّمني القراءة يا زكريا.

– إن أردت أن تتعلم، فافعل لوحدك.

أتعلم وحدي؟ مستحيل. لكن الذي كان أكثر من مستحيل هو أن يقوم زكريا بتعليمي أي شيء كان. كان يعرف تعليمات والدي. في القدس، ممنوع إدخال أي كتاب أو دفتر، أو أي شيء يمت بصلة إلى الكتابة.

– حسناً إذن، أنا من سيعلمّك القراءة.

كان نتونزي هو من قال لي هذا لاحقاً. كانت هذه مخاطرة كبيرة. كان أخي قد بدأ بالشروع في رؤية الطرف الآخر من النهر. لا أدري كيف سيتصرف العجوز سيلفستر إن عرف بمخالفات ولده البكر.

– سأعلمك القراءة. عاد ليقول بعناد.

وبهذا الشكل بدأت أولى الدروس. كنت قد تعلمت أحدها عن طريق كتابة الحروف الهجائية في غرف الصف. بدأت في تهجئة مناهج الحرب. مدرستي الأولى كانت في الترسانة. كانت الحصص الدراسية تجري في الجانب الخفي من المستودع، خلال فترات طويلة حين يكون فيها زكريا غائباً، يطلق الطلقات في الدغل.

استطعت بوقت قصير تشكيل كلمات، وحياكة جُمل ومقاطع. لاحظت فوراً أنه عوضاً عن القراءة، كان لي ميل إلى الترتيل كما لو كنت أمام نوتة موسيقية. لم أكن أقرأ، بل أغني، مضاعفاً بذلك أوامر النهي.

– ألا تخشى أن يُمسَك بنا، يا نتونزي؟

– بل يجب أن تخاف من الجهل. بعد القراءة سوف تتعلم الكتابة.

تأخرت دروس تعلم الكتابة غير الشرعية في البدء. كانت قطعة صغيرة من غصن الشجر تخربش فوق رمال الحديقة، وأنا، كالمبهور، كنت أشعر بأن العالم يولد من جديد كما أعشاب السافانا بعد هطول الأمطار. بدأت أفهم شيئاً فشيئاً نواهي سيلفستر: الكتابة كانت جسراً لأزمنة سابقة ولاحقة، عصور لم تكن أبداً لتوجد في داخلي.

– أهذا اسمي الذي هنا؟

– نعم. يُكتب م ـ و ـ ا ـ ن ـ ي ـ ت ـ و.[7] ألا تستطيع أن تقرأه؟

لم أقل لنتونزي ذلك أبداً، لكن في ذاك الوقت، كان لدي شعور بأني لن أتعلم معه. فمعلمتي الحقيقية كانت دوردالما. كلما كنت أفك الكلمات، يأخذ صوت أمي وجسدها يتسربان إلى أحلامي. جعلني النهر أرى الضفة الأخرى، وأعادت الكتابة إليّ وجه أمي.

---

[7] موانيتو. يُكتب الاسم بحرف كبير في أوله باللغة الأجنبية. Mwanito (المترجمة)

أثناء زيارة أبروكزيمادو التالية، قام نتونزي بسرقة القلم الذي كان يستخدمه لكتابة طلبياتنا. وبشكل يتسم بالرسميات راح أخي يدير القلم بين أصابعه ويقول لي:

– خبئه جيداً، إنه سلاحك.

– أين سأكتب به؟ على الأرض؟ سألت ودوماً بصوت هامس.

كان أخي قد سبق وفكر بهذا الأمر، لهذا فقد انسحب ليعود بعد قليل حاملاً أوراق الكوتشينة.

– سيكون هذا دفترك من الآن فصاعداً. إذا ما فاجأنا العجوز نتظاهر بأننا نلعب.

– نكتب فوق أوراق اللعب؟

– هل يمكنك رؤية أي قطعة من الورق في مكان آخر؟

–لكن على أوراق الشدّة؟

– تماماً لأجل هذا. فأبي لن يشك أبداً. سبق وكنا نغش في اللعب. الآن، سوف نغش في الحياة.

هكذا دشنت أولى يومياتي. وهكذا بدأ الآس والملوك والملكات والدوقات والخدم والأغلال كلها في مشاركتي أسراري. ملأت كتاباتي الصغيرة جداً أوراق القلب الكبة وكذلك البستوني والديناري والسباتي. كنت أغرز ضمن تركيبة تلك الاثني وخمسين مستطيلاً صغيراً كل

شكوى، وكل أمل، وجميع اعترافات الطفولة. كنت دوماً أخسر في اللعب مع نتونزي، أما في لعبة الكتابة، فقد كنت دوماً ضائعاً[8].

كل مساء، بعد انتهائي من كتاباتي، كنت أجمع أوراق اللعب وأطمرها في البستان. أعود إلى غرفتي وأراقب بغيرة وجه نتونزي الغافي. كان قد سبق لي أن تعلمت كيفية تمييز النور السيال فوق سطح مياه النهر، تعلمت فعلاً أن أسافر برسائل صغيرة كما لو كانت كل واحدة تمثل طريقاً نحو اللامتناهي. لكن كنت لا أزال أفتقد لأن أحلم وأتذكر: كنت أبغي الحصول على هذه السفينة التي كانت تقود نتونزي نحو أذرع موتانا. في يوم، طفح الكيل من هذا الغضب المتراكم:

– يقول أبي إن هذا غير صحيح، وأنك لا تحلم بأمي.

نظر إليّ نتونزي بشفقة، كما لو كنت معاقاً، وقد بُتر جهازي المسؤول عن الحلم.

– أتريد أن تحلم؟ يجب عليك أن تصلي يا صغيري.

– أصلي؟ ألا تعرف بأن بابا...

– انسَ أباك. إن كنت تريد أن تحلم.

– لكن لم يسبق لي أن صليت أبداً. حتى أني لا أعرف تماماً كيف يقومون...

---

[8]: أيضاً تُكتب الكلمة نفسها بالفرنسية : perdu (خاسر. وضائع) يلعب الكاتب بالكلمات كما لو كانت مفاتيح بيانو (المترجم)

– أعطني ورقة من أوراق اللعب. سوف أكتب لك صلاة لتتعلمها عن ظهر قلب. سترى بعدها، ستبدأ تحلم.

حفرت الأرض وأخرجت له آس الديناري. كان هناك العديد من الفراغات حول الشكل المعين الأحمر كي يخربش فوقها بالكلمات المقدسة.

– ليس هذه الورقة، أعطني بالأحرى صورة السيدة. إنها صلاة لسيدتنا.

احتفظت بورقة الكوتشينة هذه كأكبر ثروة يمكن أن أمتلكها في حياتي كلها.كنت أركع قرب السرير، ويتمتم قلبي بالصلاة الصغيرة. حتى جاء يوم فاجأني فيه العسكري زكريا، أتمتم الابتهال بين شفتيّ.

– هل تغني، موانيتو؟

– لا شيء زاكا. إنها كلمات روسية، تعلمتها من الملصقات التي لم تزل موجودة.

لم يكن لكذبتي أي أساس من الصحة. نعم، كان زكريا يتجسس علينا بأمر من سيلفستر. استدعينا على الفور. كان أبي قد جهزّ مسبقاً التهمة لنتونزي:

– أأنت من قام بتعليم أخيك الصغير؟

وأمام توقعي للعنف، سارعت لنجدة أخي: تعلمت دون علم نتونزي.

– هنا لا أحد يصلي.

– لكن يا أبي ما السوء في ذلك؟ سأل نتونزي.

– أن نصلي، هذا يعني أن نستدعي زواراً.

– لكن أي زوار، بما أنه لا يوجد هنا أي إنسان في العالم؟

– هناك خالنا... صححت له قائلاً، بتعال.

– صرخ أخي: اسكت، من طلب منك الكلام؟

ابتسم العجوز سيلفستر، مبتهجاً من السلوك اليائس لابنه البكر. كان قد توقف عن التدخل، فقد عوقب ابنه بطريقة أخرى. انتبه نتونزي للرضا الأبوي، وتنفس بعمق كي يضبط نفسه. كان صوته قد استعاد نبرته عندما عاد ليسأل من جديد:

– أي زيارات يا أبي؟ هيا اشرح لنا.

–هناك زيارات قد لا ننتبه إليها. إنها ملائكة وشياطين تأتي دون أن تطلب السماح ...

– ملائكة أو شياطين؟

– ملائكة أو شياطين، الفرق ليس فيما بينهم. بل فينا نحن.

كانت ذراع سيلفستر المرفوعة لا تترك أي مجال للشك: لقد تجاوز الحوار حدوده. كان هذا واضحاً، لن يكون هناك صلاة بعد الآن. إنها نقطة وانتهى، والحل الوحيد غير قابل للنقاش.

– وأنت! صرخ والدي موجهاً الكلام إلي. لا أريد أن أسمعك أبداً وأنت تبكي مرة أخرى.

– ومتى بكيت يا أبي؟

– الآن، أنت تتباكى.

كان على وشك المغادرة عندما لاحظ أن نتونزي يريد أن تكون لديه الكلمة الأخيرة. وسأل وهو يواجه سيلفستر مباشرة في عينيه المحلقتين:

– لا نصلي ولا نبكي؟

– البكاء والصلاة هما الشيء نفسه.

في الليلة التالية أيقظني زئير الأسود. كانوا قريبين، ربما كانوا يتجولون حول الحظيرة. في عتمة الغرفة، شددت نفسي بين ذراعيّ كي أتمكن من النوم. كان نتونزي ينام بعمق، وأنا عاجز عن السيطرة على مخاوفي، ذهبت لألتجئ تحت سرير أبي. كنت أُهدهَد من شخيره في هذه العلاقة الحميمية السرية وأنا ملتصق بالأرض الباردة. مع ذلك، لم يلبث أن اكتشف وجودي، وطردني بقسوة:

– بابا، إذا سمحت، اتركني، فقط هذه المرة أنام قربك.

– فقط في المقبرة ننام معاً.

عدت إلى سريري دون حماية، وأنا أسمع زئير الأسد يقترب أكثر فأكثر. في هذه اللحظة وأنا أتعثر دون حماية في العتمة، كرهت عجوزي لأول مرة. عندما اختبأت في سريري كان الغضب يغلي في صدري:

– سنقتله؟

كان نتونزي ينتظر جوابي وهو مستند على كوعه فوق سريره. انتظر دون جدوى. كان صوتي غارقاً في حنجرتي. فأصرّ قائلاً:

– هذا السافل قتل أمنا.

هززت رأسي في حالة إنكار يائسة. كنت لا أريد أن أسمع. وتنهدت قبل أن يُسمع مرة أخرى زئير الأسود ويغطي على صوت أخي.

– ألا تصدق ذلك؟

– تمتمت قائلاً: لا.

– ألا تصدقني؟

– ربما.

– ربما؟

هذه الـ «ربما» كانت كحملٍ على ضميري. كيف بالإمكان قبول احتمالية أن يكون أبي قاتلاً؟ لزمن طويل وأنا أحاول التخلص من هذا الإثم، وأقوم بإنشاء ظروف مخففة: إذا ما كان قد حدث شيء ما فلا بد وأن يكون أبي قد تصرف رغماً عنه. من يعلم، ربما كان هذا دفاعاً عن النفس؟ أو ربما كان قد قتل عن حب، وهل كان هو نفسه نصف ميت وهو ينفذ جريمته؟

الحقيقة هي أنه، وهو على عرش وحدته، كان أبي ينحرف عن السبب، هارباً من العالم ومن الآخرين، ولكنه عاجز عن الهروب من نفسه. هذا اليأس هو ما جعله دون شك يعود فيتخذ له ديناً متفرداً، نوع من تأويل شخصي للمقدس. بشكل عام، تنحصر مهمة الله في غفران خطايانا. بالنسبة لسيلفستر، كان وجود الله يصلح فقط لجعله مذنباً بالخطايا البشرية. وهكذا، بقلبه لمفهوم الإيمان، لم يكن هناك لا صلوات ولا طقوس: مجرد صليب بسيط عند مدخل المخيم يقود الله عند

وصوله إلينا. كُتب على لوحة الترحيب التي يعلوها الصليب: «*أهلاً وسهلاً بك أيها الزائر المبجل!*».

– هذا كي يعلم الله بأننا فعلاً قد سامحناه.

كان الأمل في الظهور الإلهي يثير في أخي بسمة ساخرة: الله؟ إنه لمكان بعيد جداً لدرجة سوف يتيه الله في الطريق.

في صبيحة اليوم الثاني وبينما نحن متجهان ناحية النهر، اكتُشفنا ليس من قِبل كائنات سماوية، إنما من قِبل والدي وهو يزفر بغضب. كان مصحوباً بزكريا الذي انتحى جانباً، بينما كان الغضب على وشك الإمساك بخناق أبي.

– أعرف ماذا تفعلان في النهر، أنتما الاثنين عاريين...

– نحن لا نفعل شيئاً يا أبي. ركضت، عندما وجدت أن التلميح غريب.

– لا تحشر أنفك موانيتو، عد إلى المنزل مع زاكا.

على الرغم من صراخي كنت أسمع الضربات التي راح سيلفستير يكيلها لابنه. أراد زاكا أن يعود أدراجه، لكن رغم ذلك، انتهى الأمر بدفعي إلى غرفة مظلمة. هذا المساء، نام نتونزي وهو مربوط في الحظيرة. عند انبلاج الصبح، كان مريضاً، يرتجف من الحرارة ويكاد يفارق الحياة، لولا أن جاء زاكا في النهاية، متجاوزاً الضباب ليحمله بين ذراعيه حتى غرفته. كان الضوء لا يزال هشاً وأنا أسمع خطوات سيلفستر الملهوفة، وخطوات زاكا والخال أبروكزيمادو تأتي وتروح في

الغرفة. لاحقاً، في الصباح الباكر، لم يعد باستطاعتي تصنّع النوم. كان نتونزي، أخي الوحيد، قريب طفولتي الأوحد، يبتعد نحو النهاية. غادرت غرفتي متسلحاً بعصى ضخمة، ورحت أكتب على الرمل في الفناء حول المنزل. أكتب وأكتب بشكل هستيري كما لو كنت أرغب في ملء صفحات كاملة بخربشاتي. تحولت الأرض من حولي إلى صفحة كنت أزرع فيها انتظار معجزة ما. كانت التماساً كي يُسرّع الله من قدومه إلى أورشليم وينقذ أخي المسكين. غفوت منهكاً وأنا ممدد فوق خربشاتي نفسها.

كان النهار قد أشرق بالكامل عندما جاء زاكا ليقتلعني من النوم ويسحبني من مرفقي: أخوك محموم، هيا ساعدني لنأخذه إلى النهر.

– اعذرني زاكا، لكن أليس من الأولى أن يقوم أبي بهذه المهمة.

– لا تقل شيئاً موانيتو، أنا أعرف ما أفعل.

كان النهر هو ملاذه الأخير. قمنا أنا والعسكري بنقل نتونزي بعربة جرّ. بدت ساقاه المتدليتان كأنهما ميتتين. غمر زاكا جسد أخي المسكين الجامد في المياه. كان يغمره ويرفعه من المجرى لسبع مرات على التوالي. مع ذلك لم تتحسن صحة نتونزي، ولم تتوقف الحرارة عن التهام جسده الضعيف.

أمام ما يمكن أن تؤول إليه الأمور، أراد الخال أبروكزيمادو أخذ الطفل إلى مستشفى المدينة.

– أرجوك سيلفستير، يا أخي، فلنعد إلى المدينة.

- أي مدينة؟ لا وجود هناك لأي مدينة.

- توقف عن ذلك. لا يمكن لهذا الجنون أن يستمر.

- لا يوجد شيء لإيقافه.

- سبق لك وعرفت ألم الترمّل. ولكنك لن تتحمل فقدان الولد.

- اتركني لوحدي.

- إن مات، لن تستطيع أن تكون لوحدك أبداً. سيكون ثاني شريك سيء يلازمك...

استطاع سيلفستر ضبط نفسه بصعوبة. فقد ذهب صهره بالأمر لمسافة بعيدة جداً. شدّ أبي على مسند كرسيه بكراهية شديدة وبدا كأن الخشب بالأحرى هو من يحتجزه سجيناً. شيئاً فشيئاً، زفر بعمق، زفرة مصحوبة بتنهد طويل:

- حسناً، ها أنا أسألك يا عزيزي يا عزيزي أورلاندو، يا صهري العزيز: هل قمت في الفترة الأخيرة بغسل يديك جيداً قبل الدخول إلى أورشليم؟

- أرفض حتى أن أجيب.

- مرض نتونزي هذا، أنت من نقله إليه.

أمسك أبي خالي من رقبته وراح يصرخ في ثيابه. هل يعرف قريبنا هذا لماذا نجت عائلتنا من الحيوانات المفترسة من الأفاعي من الأمراض ومن الحوادث؟ السبب كان بسيطاً جداً: في أورشليم لا وجود للموت، لا وجود لخطر من مواجهة قبر، أو بكاء أرامل، أو شكوى يتيم. هنا لا وجود للتأسف على شيء. في أورشليم، لا تحتاج الحياة من أحد أن

يطلب غفرانها. ولا هو أيضاً، في هذا الوقت، لم يشعر بأنه يريد أن يعطي المزيد من الشرح، لكنه أضاف:

– ويمكنك أنت الذهاب إلى مدينتك الفاسدة. ارحل من هنا.

نام أبروكزيمادو في غرفتنا هذا المساء، وقبل أن يغفو، اقتربت من سريره مقرراً الاعتراف:

– خالي، أعتقد أن ذلك كان بسببي.

– لماذا بسببك؟

– أنا الذي جعل نتونزي يمرض. إنها غلطتي: لقد وافقت أخي على نيته بقتل أبي.

وضع خالي يده المدَورة على رأسي وقال بطيبة: سأقص عليك قصة.

وتحدث عن أحد الآباء الذي لم يكن يقدّر شدة محبته لابنه. ذات يوم، حدث هناك حريق في الكوخ الفقير الذي يقيمون فيه. أخذ الرجل الطفل بين ذراعيه وسار في الليل ليبتعد عن المأساة. بالتأكيد لا بد وأنه قد تجاوز حدود هذا العالم، لأنه في اللحظة التي أراد فيها وضع ابنه على الأرض، اكتشف بأن الأرض لم تعد موجودة. بقيت مجرد فراغ من بين الفراغات. سحبٌ مثقوبة بين السماوات الزائلة. ختم الرجل قائلاً لنفسه: «من الآن فصاعداً، ستكون ذراعاي بمثابة الأرض لابني».

لم يلحظ هذا الطفل أبداً بأن هذه الأرض الواسعة التي كبر وعاش عليها بعد ذلك، وأصبح لديه هو الآخر أولاد، لم تكن سوى حضن

جذوره القديمة. بعد عدة سنين أخرى، وهو يفتح مدفن والدهِ، نادى على ابنه وقال له: «هل ترى الأرض يا بني؟ تبدو كالرمال كالحجارة وكالأموات. لكنها في الحقيقة هي أذرع وعناق».

داعبت يد خالي، وعدت إلى سريري ولم يغمض لي جفن الليل كله. كنت أراقب أنفاس نتونزي الثقيلة، ولاحظت بأنه قد عاد للحياة مرة أخرى. فجأة، تحركت يداه في الظلام لتبحث عن شيء، وأطلق أنيناً يُفهم منه رغبته في أن يشرب: ماء!

ركضت، وأنا أكبت انفعالي. استيقظ أبروكزيمادو وأشعل المصباح. انسلّ الضوء من غرفتنا لينتشر في الرواق. في اللحظة التالية، دخل الرجال الكبار الثلاثة إلى الغرفة وهرعوا نحو سرير نتونزي. وبيد راجفة بحث سيلفستر عن وجه ابنه ليكتشف بأنه لم يعد محموماً.

– لقد أنقذه النهر. هتف زاكا قائلاً.

ركع العسكري قرب السرير وأمسك بيد نتونزي، بينما بقي الاثنان الآخران واقفين، يتواجهان بصمت. فجأة، سقط كل منهما بين ذراعي الآخر. وقع المصباح، ولم نعد نرى سوى أقدامهما، خطوات عصبية تتحرك للأمام والخلف. بدت وكأنها رقصة غير متوازنة بين ضريرين. لأول مرة، نادى سيلفستر صهره بـ يا أخي:

– اعذرني يا أخي.

– لو كان ابن أختي هذا قد مات، لما بقي لك مكان تعيش فيه...

- أنت تعرف جيداً مدى اهتمامي بهذين الطفلين. إنهما آخر ما بقي لي في هذه الحياة.

- ليس بهذه الطريقة تساعدهما. ليس بمسك جناح الطير يمكن لنا مساعدته على الطيران. العصفور يطير ببساطة فقط لأننا تركناه عصفوراً.

هكذا تكلم خالي أبروكزيمادو، ومن ثم غادر، وقد ابتلعته الظلمة.

أخي، نتونزي

لا تبحث عني
حيث الأحياء يزورون
الأموات، كما يُطلق عليهم.
ابحث عني في عمق البحار
في الساحات، وفي لوعة قلب
بين الأحصنة، وبين الكلاب
في حقول الأرز، والجداول
أو بالقرب من العصافير
أو فكّر في شخص آخر
لتقطع صعوبة الطريق.
حجر، بذرة، وملح
خطوات من الحياة، ابحث عني هناك
على قيد الحياة.

«هيلدا هيلست»[9]

---

[9] شاعرة برازيلية، 1930 ـ 2004 (المترجم)

كان أخي نتونزي يعيش مع حلم وحيد ألا وهو الهرب من القدس. كان قد عرف العالم، وعاش في المدينة، ويذكر أمي. كنت أحسده على كل ذلك. كنت أسأله دون انقطاع عن هذا العالم المجهول من قِبلي، وكان يطيل الشرح دوماً حول هذه التفاصيل، حول الألوان والإيحاءات. كانت عيناه تومضان، متقدّتين بالأحلام. نتونزي كان شاشة السينما بالنسبة إليّ.

أيضاً على الرغم من أنه يبدو كشيء لا يُصدق، فقد كان أبي هو من قام على تشجيعه في فن قصّ الحكايات. كان سيلفستر يفكر بأن القصة الجيدة هي سلاح أمضى حداً من البندقية أو السكين. لكن كان هذا قبل وصولنا إلى هنا. في تلك الفترة، عندما كان أخي يشتكي من عراك حدث في المدرسة، كان سيلفستر يشجع نتونزي قائلاً: «إن هدّدوك بلكمة، ردّ عليهم بقصة».

– هل والدي من قال ذلك؟ سألت باستغراب.

– نعم.

– وهل أعطى هذا نتيجة؟

- كم تلقيت وتلقيت!

- ...

ابتسم. لكن ابتسامته حملت المرارة، أي قصص في الحقيقة كان يمكن لنا اختراعها في الحاضر؟ دون دموع دون غناء دون كتاب ودون صلاة؟ شابَ شعر أخي، وشاخ في لمح البصر. ذات يوم أعرب عن أسفه بشكل غريب:

- في هذا العالم يوجد الأحياء، ويوجد الأموات، ونحن. نحن الذين يستحيل عليهم السفر.

كان نتونزي يتعذب لأنه كان يتذكر. باستطاعته أن يقوم بالمقارنة. هذه العزلة كانت أقل صعوبة بالنسبة إليّ، فأنا لم يحدث أن تذوقت طعم حيوات أخرى.

كنت أسأله في بعض الأحيان عن أمنا.وهنا كانت لحظته المفضلة. كان يشتعل كالنار في خشب جاف، وكان بارعاً في التمثيل: كان يقلد تصرفات وصوت دوردالما، مضيفاً إليها دوماً لمسة جديدة من الإلهام.

في المرات التي كنت أسهو عن مناشدته ليقص عليّ ما يذكره عنها، كان يتدخل في الحال:

- ما الأمر، أنت لا تطلب مني أن أتحدث عن أمنا؟

ومرة أخرى يعود ليشتعل في الذكريات. عند نهاية العرض يصبح نتونزي متجهماً كما يحدث مع السكارى بعد نوبة من الابتهاج.

ولمعرفتي المسبقة بهذه النتيجة المحزنة كنت أقاطعه وهو يروي كي أسأله:

- والأخريات يا أخي؟ كيف هي بقية النسوة؟

عندئذ كانت عيناه تلتمعان ببريق جديد، ويبدأ يدور حول نفسه كمن يرجع وراء الكواليس كي يعود إلى خشبة المسرح ليحاكي إيماءات النساء. كان ينفخ قميصه كي يقلد نهود النساء، ويكور مؤخرته، ويستدير حول نفسه في الغرفة كدجاجة فقدت عقلها. ومن ثم نقع كلانا على السرير، نكاد نموت من الضحك.

ذات يوم، اعترف ليعن شغفه الأول، الذي كان عبارة عن هذيان أكثر منه أمراً معاشاً. لا يمكن في الواقع أن يكون شيئاً آخر، فقد غادر المدينة وهو لم يكد يبلغ عامه الحادي عشر. كان نتونزي يحلم بالنساء بحماس شديد لدرجة أصبحن وهن في الحلم أكثر حقيقية من أولئك النساء اللواتي من لحم وعظم. مرة أخرى، وهو في هذا الواقع الذي لا يُصدق، قابل امرأة ذات حسن لامتناه. للحال، في اللحظة التي لمس فيها ذراعها وحدق بها، اجتاحته برودة في جسده: لم يكن للمرأة عينان، وفي مكان محجر العين ظهر فراغ، بئران دون جدار أو قاع.

- سألتها بصوت مرتجف: ما الذي حدث لعينيك؟

- ما بهما عيناي؟

- باه...أنا لا أراهما.

ابتسمت، مندهشة لشعوره بالحرج. لا بد وأنه كان متوتراً وغير قادر على التخفيف من حدة نظره.

- نحن لا نرى مطلقاً عيني الشخص الذي نحب.

- فهمت، أكدّ نتونزي قائلاً، وهو يتراجع بحذر شديد.

- أنت خائف مني يا عزيزي نتونزي؟

خطوة أخرى للخلف ويسقط نتونزي في الهاوية، واليوم أيضاً ما زال يسقط، ويسقط، ويسقط.بالنسبة لأخي كان الدرس واضحاً. الذي يترك نفسه لينساق وراء عشقه يُحكم عليه بالعمى. لا يعود يرى المرء من يحب، وعوضاً عن ذلك يبدأ العاشق بالتحديق في هاويته الخاصة.

- النساء كالجُزر: هن دوماً بعيدات، لكنهن يحجبن كل البحار المحيطة.

كل هذا كان بالنسبة إليّ عبارة عن جبل من الضباب لا ينِي يزيد من غموض المرأة. كنت أقضي فترات كاملة أتأمل فيها السيدات المرسومات على أوراق اللعب وأنا أقول في نفسي إن كانت هذه الصور تمثل حقيقة الواقع، فهذيان نتونزي لم يكن له أساس من الصحة. كانت أولئك النسوة ذوات شكل ذكوري وجاف مثلهن مثل زكريا.

- أحياناً تنزف النساء. قال أخي ذات يوم.

وجدت ذلك أمراً غريباً. تنزف؟ كلنا ننزف؛ لماذا يذكر نتونزي هذه الميزة.

– ليست النساء بحاجة إلى جرح كي ينزفن، فهن يولدن مع شقّ لديهن.

عندما طرحت على سيلفستر هذا السؤال أجاب:

– الله هو من جرح المرأة. وأضاف قائلاً: أُصيبت بهذا الجرح عندما اختار الله أن يكون رجلاً.

– أمي أيضاً كانت تنزف؟

– لا، أمك لا...

– ولا حتى عند مماتها؟

– كلا.

في هذه الليلة، هاجم نهر من الدماء حلمي، وراح يتدفق من جسد سيلفستر. كانت تمطر دماءً والنهر يحمّر، وكان أبي يغرق في هذا الفيضان. غطست في الماء كي أُنقذ جسده الضعيف والهش كما الطفل حديث الولادة. تردد صوت سيلفستر الملتبس صداه في داخلي: «أنا ذكر، لكني أنزف كالنساء».

دخل ذات يوم والدي إلى غرفتنا وفاجأ أخي وهو يقوم بالتمثيل، في تقليد ينبض بالحيوية بما يسمى «المرأة المغناج» احمرّت عينا سيلفستر، محقونتين بالكراهية:

– من ذاك الذي تقلده؟ هاه، من؟

وضربه بطريقة عنيفة لدرجة أغمي فيها على أخي. وقفت متوسطاً فيما بينهما، عارضاً جسدي كي أخفف من الغضب الأبوي وصرخت:

- بابا، لا تفعل ذلك، كاد أخي أن يموت في كثير من الأحيان...

وكان هذا صحيحاً: فبعد شفائه من الحمى بدأ أخي يعاني من ذاك الاعتداء. في البداية كان يقوم بتدوير عينيه المخمورتين، وترتعش ساقاه كراقصة عمياء، ثم ينهار فجأة على الأرض. في تلك اللحظات كنت أذهب لطلب المساعدة من سيلفستر الذي كان يأتي ويردد ما لا أفهم من أقوال أو تشخيص:

- إنها حروق الروح!

كان لوالدنا العجوز تفسيراته الخاصة للتوعك: روح بغيضة ملتقطة من المدن. كان يختتم قائلاً، أو يتمتم ويشير بإصبع الاتهام: التقط أخوك هذه البذاءة هناك. في تلك المدينة الملعونة.

كان العلاج بسيطاً وفعالاً. في كل مرة كان نتونزي يعاني فيها من هذه التشنجات، كان يضع أبي ركبتيه على صدره ويطبق على رقبته ويضغط ضغطاً متزايداً، مستخدماً في ذلك أصابعه كنصل سكين. كان يبدو كأنه سيخنقه، لكن فجأة كان أخي يفرغ كبالون مثقوب، يخرج الهواء من شفتيه اللتين كانتا تصدران صوتاً كنهيق أنثى الحمار جيزابيلا. بعد أن يفرغ نتونزي، ينحني والدي ويبدأ بتمسيد وجهه ويهمس بطريقة مهيبة:

- هذا هو نفس الحياة.

يتنشق نفحة عميقة من الهواء، ومن ثم ينفخها بقوة في فم أخي وعندما يتخبط ابنه، كان يختتم قائلاً بنصر: «أنا من باضك (وَلَدك)».

يجب عدم نسيان ذلك أبداً، يكرر قائلاً. كان تنفسه لاهثاً ونظرته متحدّية، بينما يؤكد مجدداً: ربما تكون أمكم قد انتزعتكم من الظلمة، لكن أنا من وضعكم في الغالب، أكثر منها.

يغادر غرفتنا منتصراً. بعد ذلك بقليل، كان نتونزي يستعيد رشده، ويقوم بتمرير يديه مطولاً على ساقيه كي يتأكد من أنهما سليمتان. ويبقى هكذا، مديراً ظهره، ليستعيد الحياة. ذات مرة رأيت ظهره يهتزّ من الحزن. كان نتونزي يبكي.

- ما بك يا أخي؟

مكتبة ياسمين

- كل شيء خاطئ.

- ما الخطأ؟

t.me/yasmeenbook

- لا أستطيع أن أتذكر.

- ألم تعد تتذكر؟

- لم أعد أتذكر أمي. لم يعد باستطاعتي أن أتذكر ذلك...

كل تجسيد من تجسيداته في تلك الغرف المتلئة حياة لم تكن أكثر من وهم خالص. لا يموت الأموات عندما يفارقون الحياة، إنما عندما نكرسّ نسيانهم. كانت دوردالما قد اختفت نهائياً، وبالنسبة لنتونزي، انطفأت الفترة التي كان لم يزل فيها طفلاً، ابن عالم ولد معه، وإلى الأبد.

- الآن يا أخي الصغير، الآن نحن أيتاماً.

ربما شعر نتونزي بأنه يتيم في تلك الليلة، بالنسبة إليّ، مع ذلك، كان الشعور أكثر احتمالاً فأنا لم أكن قد رأيت أمي على الإطلاق. كنت فقط ابن سيلفستر. وأيضاً، لم يكن باستطاعتي الرضوخ للدعوات التي كان أخي يوجهها إليّ كل يوم: وهي أن نكره أبانا، وأن أرغب في موته كما يرغب هو.

أمن المرض أم من اليأس، بدأت تصرفات نتونزي تتغير. دون السلع الكاذبة للذكريات، كان صفوه يتعكر ممتلئاً مرارة. بدأت طقوس تشغل لياليه: كان يحزم بعناية ممتلكاته الضئيلة في حقيبة ويخبئها وراء الخزانة:

– لا تدع والدي يرى ذلك أبداً.

باكراً في الصباح، والحقيبة نفسها فوق قدميه، كان يبقى لفترة طويلة يتأمل في خارطة قديمة جداً. كان العم أبروكزيمادو قد أعطاها له سراً. كانت سبابته تجوب مراراً وتكراراً فوق قطعة الورق المطبوعة، كما زورق صغير ثملٌ يبحر فوق أنهر متخيلة. ثم وبحرص شديد للغاية، كان يطوي الخارطة ويرتبها داخل حقيبته.

في إحدى المرات، وهو على وشك إغلاق القفل تجرأت وسألته:

– يا أخي؟

– لا تقل شيئاً.

– هل تريد مساعدة؟

– مساعدة لأجل ماذا؟

– حسناً، لأجل توضيب حقيبتك...

دفعنا بالحقيبة تحت الخزانة وهو يلتزم مكانه على كرسيه بينما يتمتم: حقير، قاتل عجوز!

بعد عدة ليالٍ أخرى نام نتونزي مهدهداً من قراءة خارطته، فانزلق دليل السفر الممنوع واستقر قرب وسادته. وكان ها هنا، أن وجده أبي في صباح اليوم التالي. جعلنا غضب سيلفستر نقفز من السرير: من أين أتت هذه النجاسة؟

لم ينتظر سيلفستر الجواب، بل قام بتمزيق الخارطة ومن ثم أعاد تمزيق القطع، واستمر على هذا المنوال حتى كاد يمزق أصابعه. وعلى الأرض بدأت تتساقط شيئاً فشيئاً مدنٌ، وجبال، وبحيرات وطرقات من الورق. انهارت خارطة الكرة الأرضية على أرضية الغرفة.

بقي نتونزي فاغر الفم، دون حراك هنا، كما لو أنهم كانوا يقطّعون روحه نفسها. أخذ نفساً عميقاً ودمدم بكلمات غير مفهومة. لكن أبي كان قد خرج وهو يصرخ: لا أحد يلمس شيئاً! زكريا هو من سينظف هذه القذارة.

بعد قليل، ظهر الجندي في الغرفة والمكنسة في يده. لكنه لم يكنس بل التقط القصاصات قطعة، فقطعة، ورماها في الهواء كما تفعل العرّافة بقطع الوَدع. تطايرت قطع الورق الملون وانتشرت على الأرض بأشكال عشوائية. قرأ زكريا هذه الرسومات، واستغرق وقتاً ثم ناداني:

– تعال موانيتو، تعال لترى...

كان العسكري جالساً وسط كوكبة من الأوراق الصغيرة الملونة. اقتربت وهو يشير إليّ بأصبعه المرتجفة:

– انظر ها هنا، إنه مكان زيارتنا.

– لا أرى شيئاً. أي زيارة؟

– تلك التي يجب علينا أن تحصل.

– لم أفهم، زكريا.

– سلامنا سينتهي، هنا في أورشليم.

في صباح اليوم التالي، استيقظ نتونزي مع قرار حازم: سوف يهرب، حتى ولو لم يكن هناك وجود لأي مكان آخر. فقد دفعه اعتداء والدنا إلى اتخاذ هذا القرار.

– سأغادر، سوف أهرب من هذا المكان وإلى الأبد.

كان يبدو، والحقيبة في يده، كم كان مخططه غير قابل للنقض. ركضت لأمسك بيديه وتباكيت قائلاً:

– خذني معك يا أخي.

– أنت، عليك البقاء.

وابتعد وهو في حالة تأهب، سائراً في طريقه ومن خلفه رحت أبكي وأنا شديد الحزن، أكرر بين لعابي الذي يسيل وشهقاتي: سأذهب معك.

– أنت، عليك البقاء، سآتي لاحقاً لآخذك.

– لا تتركني وحدي، أرجوك يا أخي.

– انتهى الأمر.

مشينا لساعات متجاهلين المخاطر. عندما وصلنا أخيراً إلى البوابة راح قلبي يتقافز. كنت أرتجف فزعاً. لم يسبق لنا أبداً أن غامرنا في الذهاب إلى مسافة بعيدة كهذه. كان يوجد في هذا المكان الكوخ الذي كان خالي أبروكزيمادو يعيش فيه. دخلناه، كان فارغاً. بدا لنا، عقب ما رأينا، أن ألا أحد قد عاش هنا منذ مدة طويلة. كنت أرغب بتفتيش المكان، لكن نتونزي كان على عجلة من أمره. بدت الحرية ها هنا، على بُعد بضعة أمتار، وركض ليفتح المصاريع الخشبية.

عندما فُتح الباب على مصراعيه رأينا أن الطريق الذي طالما نُبهّنا بعدم تجاوزه لا يتعدى أن يكون درباً ضيقة، شبه مموّهة، مجتاحة من العشب ومستعمرات النمل. بالنسبة لنتونزي على الأقل، برز هذا الطريق الصغير وكأنه سبيل عريض يجتاز مركز الكون. هذا الخط الرفيع الضيق كان يغذّي وهم وجود جانب آخر.

– أخيراً! تنهد نتونزي قائلاً.

لمس الأرض براحة يده بالطريقة نفسها التي كان قد لاطف بها النساء في المسرح الصغير الذي من اختراعه. ركعت وأنا أتوسل إليه من جديد:

– يا أخي، لا تتركني وحيداً.

– أنت لا تفهم، موانيتو. المكان الذي أنا ذاهب إليه لا يوجد فيه أحد. أنا من سأكون وحيداً... ألا تثق بأبيك الحبيب؟

كانت لهجته ساخرة: كان أخي ينتقم لكوني الابن المفضل. فجأة، دفعني وأغلق المغاليق الخشبية عليه. بقيت أنظر عبر شقوق الألواح

الخشبية، وعيناي ممتلئتان بالدموع. لم أكن أشهد رحيل رفيق الطفولة الوحيد فقط، بل كانت قطعة مني هي التي ترحل. بالنسبة إليه كان هذا بمثابة العيد لكل البدايات. بالنسبة إليّ، كان يعني الانسلاخ.

ورأيت كيف رفع نتونزي ذراعيه بإشارة V كدليل على النصر متذوقاً حريته كالعصفور، مدشناً السماء. تمايل فترة للأمام والخلف، آخذاً قراره، كمن يحاول أن يتوازن عند حافة هاوية. وارتجل على رؤوس أصابعه خطوات راقصة كما لو كان ينتظر من نفسه الغوص أكثر منه السير. تساءلت لماذا كان يتأخر كثيراً في الرحيل؟ وعندئذ شككت: هل كان يريد تأبيد هذه اللحظة؟ أم إنه كان يستفيد من سعادته بوجود باب يستطيع إغلاقه خلفه؟

لكن إليكم ما جرى: عوضاً عن أن يتقدم بخطوات يتوق إليها، انحنى أخي كمن تلقى ضربة غير مرئية وبقي في مكانه متخذاً وضعية بهيمة. كان يزحف بشكل دائري وهو يتشمم الغبار.

فوراً، قفزت فوق السياج لنجدته. أثار شفقتي: كان ملتصقاً بالأرض، وقد لخّص الوضع بدمعتين: حقير! ابن العاهرة الكبير!

– إذاً يا أخي!؟ هيا انهض.

– لا أستطيع النهوض، لا أستطيع النهوض.

حاولت أن أرفعه، كان ككتلة من الصخر. مشينا أيضاً هكذا، الكتف على الكتف، ننسحب، كما لو كنا نتقدم داخل نهر، ضد التيار.

– سوف أطلب المساعدة.

– أية مساعدة؟

– سوف أذهب لآتي بخالي.

– أجننت؟ اذهب إلى البيت واجلب عربة الجر. سأنتظر.

يطيل الخوف من المسافات. تحت قدميّ ظهرت الأرض وكأن مساحتها قد تضاعفت. ذهبت إلى المعسكر وعدت مصحوباً بالعربة. كانت تلك هي النقالة التي ستنقل أخي كي تعود به إلى المنزل. على طول الطريق، كان جسمه يخرج من النقالة، وقدماه تتأرجحان خاويتين وواهنتين كأقدام عنكبوت ميت.تأوه مهزوماً:

– أعلم ما كان هذا... إنه قدرٌ...

كان هذا قدر، نعم. لكن لم يكن أبي هو من رماه به. إنه الأسوأ من عيون الحسد: تلك التي نرمي بها أنفسنا.

عاد أخي ليقع مريضاً بعد محاولة فراره المجهضة. سجن نفسه في غرفته، يستلقي على جنبه وساقاه محنيتان، وجسمه مغطى بالكامل بغطاء. كنا نعرف بأنه لم يزل على قيد الحياة، لأنه كان يرتعش، كما لو أنه قد أصيب بتشنج. شيئاً فشيئاً بدأ يفقد من وزنه، وبرزت عظامه من جلده. مرة أخرى استبد القلق بوالدي:

– حسناً يا ولدي، ما الذي يجري؟

أجاب نتونزي بطريقة سلمية، وبطريقة رقيقة جداً بشكل جعلني أنا نفسي أتعجب:

– أنا متعب يا أبي.

- متعب من ماذا؟ بما أنك لم تعمل شيئاً من الصباح حتى المساء.

- عدم العيش هو ما يتعب أكثر.

شيئاً فشيئاً بدأت تتضح الأمور: دخل نتونزي في إضراب عن الوجود. الكفّ عن الحياة كان أخطر من أي مرض كان. بعد ظهر هذا اليوم تأخر والدي عند سرير ابنه البكر. كان نتونزي يتعرق بشدة لدرجة كان الغطاء مبللاً بالكامل.

- يا بني؟

- نعم يا أبي؟

- هل تذكر عندما قلت لك بأن تخترع قصصاً؟ حسناً، هيا اخترع واحدة الآن.

- ليس لدي القوة.

- حاول.

- أسوأ من عدم معرفتنا قصّ الحكايات، هو عدم وجود من يصغي إليها.

- أنا أصغي إلى قصتك.

- في الماضي، كنت أنت حكواتياً جيداً. الآن، هي قصة مروية بشكل سيء.

لم أعترض. صوت نتونزي على الرغم من ضعفه كان حازماً ويحمل في نبرته على الأخص هدوء نهاية الكلام. لم يأت أبي بحركة. غرق كما لو كان هو الآخر قد انصاع للأمر. واحد منا سوف يموت، وسيكون هذا

خطأه. نهض العجوز سيلفستر وتفحص الغرفة ودار حولها حتى جعلته دمدمات نتونزي يخمن من جديد:

– موانيتو، يا أخي، قدّم لي خدمة... اذهب إلى الحائط الخلفي وارسم نجمة أخرى.

سرت في الطريق وأنا أشعر بخطى والدي تتبعني. اتجهت إلى أنقاض غرفة طعام قديمة، ولم أتوقف إلا عندما وجدت نفسي أمام حائط ضخم كان قد تعرض لحريق، ولم يزل يحتفظ بلونه الأسود والمحمّر. فوق هذا الجدار الضخم، رسمتُ نجمة بواسطة حجر صغير. سمعت صوت أبي من خلفي يقول: تباً له، ما هذا؟

كان الجدار يمتلئ بآلاف النجوم الصغيرة التي كان نتونزي قد قام بخربشتها يومياً، كما يفعل السجين على جدار سجنه.

– هذه، هي سماء نتونزي، وتدل كل نجمة على يوم.

لا أستطيع أن أؤكد، لكن بدا لي، بأني رأيت عيني أبي وقد غُمرتا بسائل غير متوقع. انهار حاجز في داخله. هل انبثق بكاء قديم كان قد عرف كيف يحتويه خلال سنوات؟ لا يمكن لي أبداً التأكد من ذلك، لأنه في اللحظة التي تلت، استولى على مجرفة وبدأ بكشط الجدار. بدأت شفرة المعدن تجعل السطح الأسود الذي كان أخي يسجل فوقه مرور الزمن، يتطاير. زاد هذا العمل التدميري من قوة سيلفستر. عندما انتهى، كان جسمه مغطى بلطخات الطلاء الأسود. استأنف سيره وهو منهكٌ، كحيوان زاحف بحراشف.

الخال أبروكزيمادو

قال أحدهم:

«هنا لا يوجد أغصان ورد على الإطلاق»

إذن فالساعات

تبتعد غريبة

كما لو أن الوقت لم يكن مصنوعاً

إلا من التأجيل».

«صوفيا دي ميللو أندرسن»

وهو يقودنا إلى المخيم منذ ثمانية أعوام، لم يكن يصدق الخال أورلاندو ماكارا سابقاً، بأن صهره، سيلفستر المستقبل، سيبقى مخلصاً في رغبته بالهجرة لمدى الحياة. ولم يكن يشك بالمقابل بأن اسمه سيصبح الخال أبروكزيمادو. لا بد وأنه كان يفضل ذاك الاسم الذي كان أبناء أخته ينادونه به سابقاً: الخال مادرينو. لا شيء من هذا كان قد عبر ذهن قريبنا في اليوم الذي قادنا فيه إلى مكان امتياز الصيد هذا. حدث ذلك في يوم، عند نهاية ما بعد الظهر. نزل أبروكزيمادو من السيارة مشيراً إلى امتداد الدغل وهو يقول:

- بيتكم الجديد.

- أي بيت؟ سأل أخي وهو يمسح ببصره الطبيعة المتوحشة.

صحح والدي وهو لم يزل بعد جالساً في السيارة:

- بيت، لا. إنه بلدنا.

في البداية، سكن خالنا معنا. دامت إقامته عدة أسابيع. كان أبروكزيمادو قد فقد وظيفته كحارس صيد قديم، بسبب الحرب. الآن، حتى العالم نفسه لم يعد موجوداً، كان يستطيع أن يقضي وقته كما

يحلو له. كما أنه، وخلال الفترة التي قضاها معنا، وضع يده في اللبنة كي يبني ويعيد تصليح البيت والأبواب والنوافذ والأسقف وضع ألواحاً من الزنك وأزال الحراج حول المعسكر، فنبات السافانا يحب كثيراً التهام البيوت وتجريد القصور من طابعها الإنساني. وكان فم الأرض المفتوح قد التهم جزءاً من بيوت السكن وخلّف صدوعاً عميقة تُفتح على جدران كما الندبات. يقتل المرء عشرات الأفاعي داخل وحول المنازل المدمرة. البناء الوحيد الذي لم يعد تأهيله كان سكن الهيئة الإدارية الذي كان يشغل وسط المعسكر. مكان السكن هذا ـ الذي كنا ندعوه «البيت الكبير» ـ كان مصاباً باللعنة. يُحكى أن آخر رجل برتغالي كان يديره قد وُجد مقتولاً. مات داخل السكن وبقيت عظامه بالتأكيد ممددة بين الأثاث النصف مدمر.

خلال الأسابيع الأخيرة، دخل العجوز في حالة من عدم الإحساس، غريباً عن الحركة الدؤوبة من حوله. اقتصر نشاطه الوحيد على بناء الصليب الضخم في المكان الصغير أمام البيت الكبير.

– هذا كي لا يدخل أحد آخر.

– لكن أليس أنت من قال بأننا آخر من بقي؟

– أوضح قائلاً: أنا لا أتحدث عن الأحياء.

ما إن وضع الكتابة على الصليب. حتى قام باستدعائنا جميعاً وأقام شعيرة طقس عمادنا الجديد. فجأة لم يعد أورلاندو ماكارا خالنا

مادرينو[10]. وأصبح اسمه شاهداً على أنه لم يكن أخاً بالدم لأخته دوردالما. كان كما قال سيلفستر صهراً من الدرجة الثانية. وُلد ليتم تبنيه، سوف يكرّس وضعه كمخلوق غريب وخارج عن بلده طيلة حياته. يمكن لأبروكزيمادو[11] التحدث إلى أهله، لكن ليس مسموحاً له على الإطلاق بالحوار مع أسلاف العائلة.

بعد أن انتهت أسابيعه الأولى، ذهب خالنا الطيب ليعيشِ بعيداً مدّعياً بأنه سوف يسكن في بيت الحارس، عند مدخل الحامية. شككت دوماً بأن هذا السكن غير حقيقي. هربْ نتونزي البائس أثبت لي ذلك: مخبأ أبروكزيمادو لم يكن بعيداً، تماماً وسط المدينة الخالية. كنت أتخيله جيفة بين الأنقاض والرماد.

– على الإطلاق، اعترض نتونزي قائلاً، الخال يعيش فعلاً في كوخ عند مدخل المحمية. إنه موجود تحت إمرة أبي، كي يراقب المدخل.

كانت تلك مهمته: حماية عزلة زوج أخته الُدان بقتل أمنا. من يعلم إن لم يكن أبروكزيمادو، بسلاحه الموجه إلى الخارج، لم يكن قد قتل شرطة كانوا يحاولون إيجاد سيلفستر. لهذا السبب كنا نسمع طلقات نارية من بعيد من فترة لأخرى. لم يكن ذلك مجرد طلقات كان الجندي يطلقها لقتل الحيوانات، التي كانت تشكل وجبة عشاءنا في المساء. إنها طلقات أخرى، لأغراض أخرى. زكريا كان حارسنا الثاني.

---

[10]: Madrinha: وتعني Marraine أي العراب. الخال مادرينو = الخال العرّاب.

[11]: أبروكزيمادو: ويعني القريب.

– إنهم جميعاً شركاء، هؤلاء الاثنان هما في الواقع ثلاثة. أكدّ نتونزي. لهم صلة قرابة بالدم، نعم، لكن بدماء الآخرين.

أينما كان المكان الذي يعيش فيه، الحقيقة هي أن أبروكزيمادو كان يزورنا كي يزودنا بالمؤن والثياب والأدوية. بيد أنه كانت هناك لوائح ممنوع استيرادها، وعلى رأسها الكتب والجرائد والمجلات والصور. كان نشرها ممنوعاً على الرغم من أنها كلها قديمة ولا تتحدث عن الأمور الراهنة. في غياب صور الطرف الآخر كانت مخيلتنا تُشحن بقصص الخال أبروكزيمادو الذي كان يقصها علينا خفية عن أبينا.

– يا خالي ألا قل لنا كيف هو العالم؟

– لا يوجد أي عالم آخر يا أبناء أختي الصغار، ألم يتعب والدكم في ترديد ذلك أمامكم؟

– هيا يا خالي...

– أنت تعرفه يا نتونزي، لقد سبق وذهبت إليه.

هذا الحوار كان يزعجني. لم يكن يعجبني أن يذكرنا بأن أخي كان قد رأى الجانب الآخر، وأنه كان يعرف أمنا ويعرف كيف هن النساء.

دون أن يحكي لنا عن العالم، كان الأمر ينتهي بأبروكزيمادو بأن يقص علينا حكايات، ودون أن يعلم، كانت تلك القصص تفتح أمامنا الباب واسعاً ليس أمام عالم واحد، بل عدة عوالم.

– كنت دوماً مدهوشاً من أن أحداً يستمع إليّ.

وهو يتكلم، يبدأ في السير طولاً وعرضاً. وحينئذ فقط كنا نلاحظ بأن لديه ساقاً أضعف من الأخرى. كان زائرنا، فليسامحني، يشبه ورقة شاب السباتي. أكانت غلطة من التصنيع أم من العجلة سبباً لإخفاقهم في رسم رقبته وساقيه؟ كان يبدو لحيماً جداً بشكل لا يمكننا رؤية نهاية قدميه. وهو ريان بهذا الشكل، كان يبدو ضخماً وهو واقف مثلما وهو جاثم على ركبتيه. خجولٌ، ينحني باحترام كما لو أن كل الأبواب في كل مكان منخفضة. يسهب في الكلام دون أن يبتعد أبداً عن طريقته الموزونة، كما لو أنه يخطئ دوماً، كما لو كان وجوده بالفعل نوعاً من التطفل.

– أيها الخال، حدثنا عن أمنا.

– أمكم؟

– نعم، أرجوك، احكِ لنا كيف كانت.

كان الإغراء كبيراً. قام خالي بمحاولة العودة إلى الوراء ليعود ويصبح أورلاندو تحدوه الرغبة في السفر ضمن ذكريات الأخت غير الشقيقة. جال بنظره في أربع جهات المكان كي يتفحص إمكانية وجود سيلفستر.

–أين هو سيلفستر الكبير؟

– ذهب إلى النهر، يمكننا الكلام.

عندئذ، يطلق أبروكزيمادو العنان لنفسه ويفيض بالكلام.

– دوردالما، فليحفظ الله روحها، كانت من أجمل النساء، لم تكن سوداء البشرة مثله، فهي ورثت النضارة عن والدها، خلاسي صغير من موشاتازينا. ما إن التقى والدكما بها حتى وقع في هواها.

– ألا تعتقد بأن والدنا يعاني ربما من السويداء؟[12]

– حسناً حسناً: من الذي يعلم ما هي السويداء؟

– هل يعاني منها أم لا؟

– السويداء هي أن ننتظر الطحين ليعود فيصبح قمحاً.

بقي يتفلسف حول معنى السويداء. قال بأن كل شيء هو عبارة عن مجرد أسماء. أسماء ولا شيء غير ذلك. ليس أمامنا غير أن نأخذ حالة الفراشة: هل تحتاج لأجنحة كي تطير؟ أو بالأحرى أليس الاسم الذي نطلقه عليها، هو نفسه يعني رفرفة الجناحين؟ وهكذا دواليك، يستمر الخال أبروكزيمادو يخادع بأجوبته بترداد بطيء.

– خالي، توقف عن ذلك. قل لنا مثلاً: هل أحب سيلفستر ودوردالما بعضهما؟

في البداية كانا يتفاهمان كما الريح والشراع، والقماش والرقبة. يجب القول، إنه أحياناً كان يحدث عملية إحماء تؤدي إلى مشاجرات صغيرة. كل الناس تعرف سيلفستر: عنيد كما إبرة البوصلة. شيئاً فشيئاً انغلقت دوردالما على عالمها، حزينة وصامتة كما الحجر البري.

---

[12]: Saudade: كلمة برتغالية تعني (السويداء) وهي مزيج من الحنين والأسف المحزن.

- وكيف ماتت أمنا؟

لم يكن هناك من جواب. كان أبروكزيمادو يراوغ: في ذاك الوقت هو لم يكن في المدينة. عندما وصل إلى البيت كانت المأساة قد حصلت. بعد الانتهاء من تقبّل التعازي، قال له أبي: الأرمل ليس إلا شكلاً من أشكال الأسماء التي تُمنح للمتوفى. سأختار مقبرة شخصية، مقبرتي الخاصة، هناك حيث سأدفن.

- لا تقل ذلك. إلى أين تريد الذهاب؟

- لا أعرف، لم يعد هناك أي مكان.

كانت المدينة تنهار، انفجر الوضع داخلياً، واختفى نور المستقبل. عاد الأخ غير الشقيق لدوردالما ليدعو والدي إلى التعقل: الذي يغادر مكانه لن يعود أبداً إلى رشده.

- أنت ليس لديك أطفال أيها الصهر. أنت لا تعلم ما معنى أن يكون بعهدتك أطفال في هذا العالم الفاسد.

- لكن، ألم يبق لك أي أمل، سيلفستر يا أخي؟

- أمل؟ إن ما فقدته هو الثقة.

من يفقد الأمل يهرب. من يفقد الثقة يختبئ. وكان يرغب في الهرب والاختباء على حد سواء. لكن يجب أن لا نشك أبداً في أن سيلفستر يحمل عواطف محبة.

- والدكم رجل طيب. طيبته تشبه طيبة ملاك لم يعد يعرف أين هو الله. هذا كل شيء.

أبوته، خلال كل حياته، كانت هي إنجازه الوحيد. وككل أب جيد، كان قد واجه الإغواء نفسه: الاحتفاظ بأولاده لنفسه، بمعزل عن العالم، وبعيداً عن مرور الزمن.

ذات يوم، وصل الخال أبروكزيمادو باكراً في الصباح، مخالفاً بذلك التعليمات التي تقتضي بعدم وضع قدمه في أورشليم إلا عند نهاية اليوم. في الأوقات العادية، كان الخال يعرج وتبدو ساقاه وكأنهما تنقادان لرغبتين غريبتين.

– أعرج ليس نتيجة تشويه، إنما للحرص. كان يقول.

هذه المرة، نسي الحرص. وحدها السرعة كانت تستبد بجسده.

كان أبي منشغلاً في ترميم سقف بيتنا، وكنت أمسك له السلم الذي كان متسلقاً عليه. صرخ خالي وهو يدور حول السلم: أيها الصهر انزل. لدي أخبار لك.

– انتهت الأخبار منذ زمن طويل.

– أطلب منك النزول، سيلفستر فيتاليسيو.

– سأنزل عندما يحين الوقت.

– مات الرئيس!

وهو على قمة السلم، جمد بحركته الأخيرة. إلا أن ذلك لم يستمر لأكثر من لحظات قصيرة. شعرت فوراً بعدها بالسلم يهتزّ: كان عجوزي قد شرع في النزول. وهو على الأرض كان يستمتع بمسح العَرق الذي يسيل على صفحة وجهه. اقترب منه خالي:

– هل سمعت ما قلته لك؟

– سمعت.

– كان حادثاً.

وبحركة واضحة ومكشوفة استمر سيلفستر بتنشيف وجهه. وبيده التي استعملها كواقٍ للشمس راح يتفحص المكان الذي كان فيه.

– أعتقد بأن تسرب الأمطار سيتوقف في الداخل. أكدّ وهو يطوي بدقة شديدة قطعة القماش التي كان يمسح بها عرقه.

– هل سمعت ما قلته لك؟ بأن الرئيس قد مات؟

– هو ميت بالفعل قبل هذا التاريخ.

ودخل إلى البيت. بقي الخال أبروكزيمادو واقفاً في مكانه وهو يضرب حصى الفناء بقدمه. الغضب ليس إلا شكلاً آخر من أشكال البكاء. بقيت بعيداً، أتظاهر بترتيب العدّة. لا يجب على أي شخص الاقتراب من رجل يدّعي عدم البكاء.

عندئذ أخذ أبروكزيمادو قراره على الفور. ذهب إلى الترسانة ونادى زكريا. جعل هذا الخبر العسكري السابق يخرج عن طوره. وهو مهتاج، لم يتأخر في تلقف سلاحه الذي قام بتدويره في الهواء كدليل على التهديد. مرّ من الساحة الصغيرة التي أمام منزلنا وهو يصرخ دون توقف:

– لقد قتلوه، السفلة، لقد قتلوه.

واستدار ليتجه نحو النهر، وبدأت صرخاته تخفت شيئاً فشيئاً حتى عدنا لنسمع من جديد أصوت أزيز الرصاص. وبينما بدا وكأن كل شيء قد هدأ أخيراً، فتح أبي فجأة باب غرفته وتوجه بالحديث إلى صهره قائلاً:

– هل رأيت ما فعلت؟ من الذي طلب منك أن تعلمه بالخبر؟

– أنا أحكي مع من أريد.

– حسناً إذاً، لا تتحدث مع أي أحد في أورشليم.

– أورشليم غير موجودة. إنها لا توجد إلا في خارطتك، فقط فوق خارطة جنونك. لا وجود لسيلفستر ولا أبروكزيمادو ولا نتونزي ولا...

– اخرس.

قبضت يدا سيلفستر على ياقة أبروكزيمادو، وخشينا من الأسوأ. لكن العجوز سيلفستر لم يترك نفسه ينساق وراء غضبه، إلا فيحكمه القاسي:

– اذهب أيها الأعرج! ولا تعد إلى هنا على الإطلاق، لم يعد لدي أي طلبات منك.

– سآخذ شاحنتي، ولن أعود إلى هنا أبداً.

– ممتاز، وزيادة على ذلك لا أريد أن تمر السيارات من هنا، لأنها تبعثر الأرض الممهدة.

سحب أبروكزيمادو من جيبه حاملة مفاتيحه وتمهل وهو يختار تلك التي تمكنه من الدخول إلى شاحنته. كانت هذه المماطلة جوابه عن

الشرف. سيذهب، نعم، لكن باختياره هو توقيت رحيله. ركضنا أنا ونتونزي كي نجعله يغير قراره.

– خالي، أرجوك، لا ترحل.

– ألا تعلمون المثل القائل: ذاك الذي يرتدي ثوب الثعلب يفقد ثوبه؟

لم نفهم المثل الشعبي، لكننا عرفنا بأن لا شيء سوف يثنيه عن قراره. ما إن جلس في سيارته حتى مرر خالي منديله على جبهته كما لو كان يرغب في نزع جلده أو زيادة صلعته التي كانت ظاهرة بالفعل. ولم يلبث صوت الشاحنة أن خنق كلمات وداعنا.

بعد ذلك، مرّت علينا الأسابيع كزيت ثقيل البنية. بدأت مؤن الطعام في التناقص شيئاً فشيئاً، واقتصر اعتمادنا تقريباً على اللحم الذي كان زاكا يجلبه لنا مطبوخاً في نهاية النهار فقط وكان بستان المزروعات لا ينتج إلا بالكاد بعض الحشائش التي لا تؤكل. الفاكهة «السيلفسترية» التي لا اسم لها، أنقذتنا.

أثناء هذا الوقت، انشغل نتونزي برسم خارطة جديدة. وقضيت أيام بعد الظهر كلها تقريباً قرب النهر كما لو كان تيار الماء يداوي جروحي غير المرئية.

مع ذلك، في يوم من الأيام، سمعنا ضجة الشاحنة التي طالما رغبنا في سماعها. لقد عاد أبروكزيمادو. فرمل في الساحة الصغيرة مثيراً عاصفة من الرمال. ودون أن يرمي علينا السلام، قام بنصف دورة بعربته

وفتح الأبواب، وبدأ بتفريغ علب، وأكياس عادية وأخرى شبكية. نهض زكريا كي يساعده، لكن كلمات سيلفستر القاسية جعلته يتوقف:

– ابق جالساً. لا شيء من هذا لنا.

فرّغ أبروكزيمادو السيارة دون مساعدة من أحد. في النهاية، جلس على أحد الصناديق وتنهد متعباً:

– جلبت كل ذلك.

– يمكن لك أن تعيدهم، رد أبي باعتراض، لم يطلب أحد منك شيئاً.

– لا شيء لأجلك. كل ذلك مخصص للصغار.

– سوف تعيد كل شيء. وأنت يا زاكا، ساعده في إعادة كل هذه القذارة إلى الشاحنة.

ما كاد الساعد يبدأ في رفع العلب، حتى قال خالي بحدّة، وبصوت غير متوقع، آمراً إياه بألا يفعل:

– دع هذا يا زاكا! والتفت نحو العجوز يرجوه قائلاً: سيلفستر... اسمعني، أرجوك، لدي أخبار خطيرة لأنقلها إليك...

– هل مات رئيس آخر؟

– الأمر جدّي. لقد لاحظت حركة دؤوبة تأتي وتذهب بالقرب من بوابة المعسكر.

– حركة دؤوبة؟

– هناك أحد من الطرف الآخر.

انتظرنا من والدي أن ينفي بشكل جازم. مع ذلك، بقي ملتزماً بالصمت، ومتفاجئاً من الإعلان الفجّ لقريبه. شعرنا بالدهشة عندما أشار إليه سيلفستر بمقعد خالٍ ليجلس عليه وقال:

– اجلس، لكن قل بسرعة. لدي الكثير من الأعمال. هيا تحدث إذاً...

– أعتقد بأن الوقت قد حان. هذا يكفي! سوف نعود، أنت يا ماتوس فينتورا، وكذلك الأولاد...

– لا وجود هنا لماتوس.

– غادر يا سيلفستر. لا يوجد سوى الأولاد. أنا أيضاً لم أعد أتحمل.

– بما أن ذلك فوق احتمالك هيا ارحل. تستطيع الذهاب، وأنا باقٍ.

ساد صمت ثقيل. نظر والدي إلى السماء كما لو كان يبحث عن رفيق لأيامه القادمة. ثم، نظر مطولاً إلى زكريا وقال: وأنت؟

– أنا؟

– نعم أنت، أيها الرفيق زكريا كالاش. أتريد البقاء أم الرحيل؟

تكلم زكريا ولم يكن هناك الكثير ليُقال. ضربة خفيفة من كعبيه ومن ثم انسحب. قرّب أبروكزيمادو كرسيه من سيلفستر، وحسّن من نبرة صوته كي يتابع الحوار.

– أريد أن أفهم يا صهري: لماذا كل هذا العناد لتبقى هنا؟ هل هناك مشكلة في الكنيسة؟

– في الكنيسة؟

- نعم، قص عليّ، أنا بحاجة أن أفهم.

- بالنسبة لي لم يعد هناك من كنيسة منذ زمن طويل.

- لا تقل هذا...

- حسناً، وها أنا أقوله وأعيده. بماذا يفيد الإيمان بالله إن فقدنا إيماننا بالبشر؟

- هل هي مشكلة سياسية؟

- سياسية؟ السياسة ماتت، والسياسيون هم الذين قتلوها. الآن، لم يعد هناك سوى الحرب.

- بهذه الطريقة لن نستطيع التفاهم. أنت تدور في حلقة مفرغة ونحن نهيم على وجوهنا في الكلمات.

- لهذا السبب أقول لك بأن ترحل.

- فكر في أولادك. فكر خاصة بنتونزي المريض.

- نتونزي أصبح أحسن حالاً ولا يحتاج لأكاذيبك كي يصبح أفضل...

- هذا هو الأمر، أورشليم هذه، اللعينة، هي أكبر كذبة، صرخ أبروكزيمادو وهو يشير بأن الحديث قد توقف هنا.

ابتعد الزائر وهو يعرج أكثر من المعتاد. بدا وكأنه قد وقع في آن واحد من الجانبين. كما لو أن الإحباط قد زاد من تشوهه الخلقي.

- اذهب واعرج في مكان آخر، أيها المشوه.

شاعراً بالارتياح، تنفس سيلفستر بعمق. كان ينقصه أن يشتمَ أحداً ما. صحيح أنه كان يسيء معاملة زكريا، لكن المساعد في الجيش كان مرؤوساً. وأي لذة توجد في شتم شخص أقل رتبة منه؟

زكريا كالاش الجندي

هنا، ومنذ عهد بعيد كانت الأشياء
قد عاشت:
في الهواء فضاءات مطفأة
نُقش النموذج بشكل أجوف
أصوات وإيماءات من الأمس
ويداي لا تستطيعان الإمساك بشيء

صوفيا دي ماللو أندرسن

– ستقفز، سأريكم.

ضغطت أصابع زكريا المتحمسة على عضلات ساقه حتى العظم. فجأة، قفزت أطراف معدنية من جلده وسقطت ودارت على الأرض.

– إنها رصاصات، أوضح لنا زكريا بفخر.

عاد فأخذها برؤوس أصابعه واحدة فواحدة وشرح لنا قطرها، كما الظروف التي كان قد أُصيب فيها. كانت كل رصاصة من الرصاصات الأربع لها مصدرها المتميز.

– هذه التي في ساقي ربحتها خلال الحرب الاستعمارية. وتلك التي في الفخذ تعود إلى الحرب مع إيان سميث. وهذه التي في ذراعي من الحرب الراهنة...

– والأخرى؟

– أي أخرى؟

– تلك التي في كتفك؟

– هذه، لم أعد أذكر مصدرها.

– ليس صحيحاً. هيا زكريا، احكِ.

– أنا أتحدث بجدية. حتى هناك أخريات لم أعد أذكر تماماً مصدرهن.

مسح القذائف بكم قميصه وعاد فأدخلها من جديد في لحمه، مستخدماً أصابعه كمن يدفع بمكبس محقن.

– أتعرف لماذا لا أفترق أبداً عن رصاصاتي؟

كنا نعلم.لكن كنا نتظاهر بأننا نسمع القصة للمرة الأولى. كما القول المأثور الذي من اختراعه: «إن أردت أن تعرف رجلاً، انظر إلى ندباته».

– هؤلاء هن عكس السرّة لدي. فمن ها هنا ـ وأظهر لنا الندبات ـ هرب الموت.

– دع جانباً الرصاصات، زاكا، نريد أن نعرف أشياء أخرى.

– أي أشياء أخرى؟ ليس لدي إلا معرفة حيوانية: أتوقع الموت والدماء.

بعد شفاء أخي، فكر سيلفستر بأن الوقت قد حان كي يحدث بعض التغيير الجذري في أورشليم. وقرر ما يلي: يجب عليّ أنا ونتونزي الذهاب للعيش بعض الوقت مع زكريا كالاش. لتوضيح أفكارنا أكثر، ولنتعلم على حد سواء، أسرار الوجود، وسر البقاء على قيد الحياة. إذا خلف زكريا بوعده، سنستبدله بالصيد، وهو نشاط ضروري للحياة.

– اجعلهما يسيران في الطين. أمره العجوز قائلاً.

كان من المفترض علينا أن نجتاز الدروب الضيقة، ونطّلع على فنون الشمّ ونطارد الحيوانات، ونطوّع اللغات السرية للأشجار. بيد أن زكريا

كان يتحاشى بمهارة أن يقوم بدور المعلم. كان يفضل أن يقصّ حكايات الصيد، وأن يحكي دون أن يأخذ جواباً، يصغي إلى نفسه كي لا يعود يسمع أصوات أشباحه. لكن كنا نناشده أن يحكي بمواضيع أخرى، مغايرة لتلك الأحاديث.

- احكِ لنا عن ماضينا.

- حياتي عبارة عن ثقوب خِلد: أربعة ثقوب، أربعة أرواح. عن ماذا تريدونني أن أتكلم.

- عن أمنا، عن عشقها مع والدنا.

- هذا لا، أبداً.

بدا لنا رد فعل زكريا قاطعاً. راح الرجل يخور، ويداه متشابكتان فوق صدره، وهو يكرر دون توقف: هذا لا، أبداً.

حفيد جندي، وابن رقيب في الجيش، لم يكن زكريا نفسه أبداً شيئاً آخر إلا مجرد عسكري. لنقل بأن لا أحد كان يحكي معه كلاماً منمقاً، وقصصاً عاطفية، وعشقاً وندماً. الكائن البشري هو حيوان فانٍ يعشق الحياة، لكنه يحب أكثر أن يمنع العيش.

- تشعر بنفسك منذ زمن أنك عسكري. هيا اعترف يا زاكا، هل تشتاق إلى الترسانة؟

داعب الرجل السترة العسكرية التي كان يرتديها طوال الوقت. استرخت يداه على فوهة بندقيته. لم يتحدث إلا لاحقاً: ليست الملابس العسكرية هي من تصنع الجندي، إنما هو القَسم. لست من هؤلاء الذين

ينضمون إلى الجيش خوفاً من الحياة. أن تكون عسكرياً فذلك يعني، كما يقولون، انحرافاً عن التيار. لا توجد كلمة في اللغة الأم كي نقول جندياً. يقولون «massodja» وهو مصطلح مأخوذ من اللغة الإنكليزية.

وتابع قائلاً: لم يكن لدي أسباب، كنت دوماً حامل لواء نفسي.

– لكن زاكا، ألا تتذكر أمنا؟

– لا أحب العودة إلى الوراء. ذاكرتي قصيرة المدى.

إرنيستينو سوبرا، الذي عُمّد الآن باسم زكريا كالاش، كان قد نجا من موت ومن حوادث إطلاق نار. نجا من طلقات، من أي استدعاء للذكرى. هربت ذكرياته عبر ثقوب جسده.

– لم أكن أبداً موهوباً في استرجاع ذكرى، فأنا هكذا منذ الولادة.

الخال أبروكزيمادو هو من كشف هذا النسيان لديه: لماذا زكريا لا يتذكر حروباً أخرى؟ لأنه كان يحارب دوماً في الجهة الخاطئة. هكذا هو الأمر دوماً في عائلته: قاتل جده ضد «غانغانهانا»[13]. انخرط أبوه في الشرطة الاستعمارية، وهو نفسه كان قد حارب مع البرتغاليين خلال النضال من أجل التحرر الوطني.

بالنسبة للخال أبروكزيمادو، قريبنا الزائر، فقدان الذاكرة تلك لا يستحق أكثر من الازدراء. جندي دون ذكريات حرب، هو كالعاهرة

---

[13]: Gungunhana: ولد في «كازا» في أفريقيا عام 1850، حكم إمبراطورية كازا من 1884 ـ 1895. وكان على رأس مجموعة من المتمردين ضد البرتغاليين، خسر عام 1895 واقتيد أسيراً إلى Açores في البرتغال حيث مات عام 1906.

التي تدّعي أنها عذراء. هذا ما كان أبروكزيمادو يرميه في وجه زكريا على المكشوف. بيد أن العسكري كان دوماً يدير الأذن الصماء دون أن يرد على الهجوم. بابتسامة ملائكية، كان يدير دفة الحديث نحو مواضيع فارغة يشعر فيها بالارتياح:

- أتساءل أحياناً كم من الرصاصات يمكن لها أن توجد في هذا العالم؟

- زاكا، هذا لا يهم أحداً...

- هل كان في الحرب رصاص أكثر من الناس؟

- هذا ما لا أعلمه، كان يجيب نتونزي، في هذه الأيام هذا مؤكد: يكفي ست قذائف كي تُباد الإنسانية. هل لديك ست قذائف؟

- يشير زكريا إلى الصناديق مبتسماً. كانت مملوءة بالذخيرة. كانت أكثر من كافية كي تبيد الإنسانية جمعاء. ضحك الجميع إلا أنا، لأن الشعور بأننا نعيش بين ذكريات ونسيان الحرب كانت تثقل عليّ.

- كانت البودرة جزءاً من طبيعتنا.

أكدّ العسكري المصاب بفقدان الذاكرة، وتابع:

- في يوم ما، سأقوم بنشر رصاصاتي هذه، وسأزرعها في الزاوية...

- لماذا تركت المدينة زاكا؟ لماذا جئت معنا؟

- وما الذي سأفعله هناك؟ أحفر ثقوباً في الفراغ؟

كان يبصق وهو يتكلم، ويعتذر عن طريقته تلك. كان رجلاً مثقفاً. يبصق فقط كي يتخلص من طعمه الخاص.

– أنا أحمل سمّ نفسي.

في الليل، كان لسانه يمتد كأفعى، فيستيقظ وطعم السمّ في فمه كما لو كان الشيطان قد قبّله. كل ذلك يحدث لأن نوم الجندي كان يمر بموكب طويل من الأموات. كان يستيقظ كما كان يعيش: وحيداً للغاية بشكل كان يعقد اتفاقاً مع نفسه لغرض وحيد وهو ألا ينسى لغة البشر.

– لكن يا زاكا، ألا تشتاق إلى المدينة؟

– لا.

– ألا تندم على أحد؟

– عشت طوال عمري في الحرب. هنا، في هذا المكان، كان سلامي الأول...

سوف لن يعود إلى المدينة، فهو لا يريد العيش لا ليطيع الأوامر ولا كي يقبض معاشاً، كما كان يقول. لم يكن أمامنا إلا أن نراه كيف كان يتصرف هنا في أورشليم: كان ينام كالدجاجة البرية. على أغصان الشجر خوفاً من الأرض. لكن على الأغصان الأكثر انخفاضاً خوفاً من أن يقع.

لم يكن زكريا يتذكر الحرب، لكن الحرب كانت تتذكره من خلال إحياء الصدمات القديمة. عندما كانت العاصفة تنفجر، كان يذهب كالمجنون إلى الفلاة الخالية صارخاً: يا ابن العاهرة، يا ابن العاهرة!

من حوله، كانت الحيوانات تقوم بمظاهرة، حتى جيزابيلا كانت تنهق من اليأس. لا يصرخون بسبب العاصفة، بل كان هلع زكريا هو الذي يضايقهم.

- هذا بسبب هدير الرعد. كان يقول سيلفستر شارحاً.

كانت ذكريات الانفجارات تبلبله. لم يكن هدير الغيوم مجرد ضجيج، بل كان عبارة عن جروحات قديمة تعود إلى الحياة. ينسى المرء الرصاص لكنه لا ينسى الحرب.

أرسلنا والدي لنعيش في الترسانة. بالنسبة إليّ، كانت الأسباب الحقيقية هي لأجل نتونزي وضرورة الترفيه عنه. وبحسب التسلسل الهرمي للأسلحة فقد خُصصت لنتونزي بندقية بينما حصلت أنا على مقلاع. وبواسطة إطارات قديمة للشاحنات، علمني زكريا كيف أتموَن بالمطاط وكيف أشكل سلاحاً قاتلاً. كان الحجر يطير مصدراً صوت صفير، وها هو طيران العصفور يتوقف فجأة، وقد حطّم الحجر جسده بالكامل. كان هذا حجري الصاعق.

- تقتل، تأكل.

كانت هذه أوامر زاكا. مع ذلك فقد تساءلت: هل يمكن لعصفور صغير يضجّ بالألوان ويزقزق هكذا أن يشكل طبقاً لوجبة سوف نأكلها؟

- كل ما يمكنني تعليمه لك ولنتونزي هو عدم جعل طلقاتكم تُخفق. كي نكون سعداء يجب علينا معرفة التصويب تماماً على الهدف.

- ألا تشعر بالحزن حين تقتل؟

- أنا لا أقتل، أنا أصطاد.

وأضاف قائلاً بأن الحيوانات هم إخوته.

- اليوم أنا المفترس، غداً هم من سيفترسونني. بررّ قائلاً.

التصويب الجيد ليس حنكة بل رحمة. في الأخير، طريقته في التصويب كانت انتحارية: في كل مرة كان يقتل فيها حيواناً، يكون هو نفسه من أُصيب أكثر. هذا الصباح كان يجب على زكريا مرة أخرى أن يطلق النار على نفسه، فقد أمرنا أبي بأن نجلب طريدة ما لأجل العشاء:

– سيصل الخال أبروكزيمادو وسوف نستقبله بأطباق وكؤوس ملأى بالشراب.

حينئذ تقدمنا في الغابة نلاحق ظبياً أفريقياً كان يعوي ويعض ككلب. فتح العسكري أمامنا الطريق ويداه تشيران إلينا بالأوامر. كان زكريا يتوقف من وقت لآخر، وهو راكع على الأرض. ثم قام بحفر حفرة وانحنى وبدأ يتحدث أمام فوهتها، سّاراً إليها بأسرار غير مفهومة.

– سوف تقول لي الأرض أين هي الحيوانات ذات القرون.

ومن ثم كنا نعاود السير من جديد، في مسارات لم تكن تظهر إلا لزكريا. كان الوقت تقريباً عند الظهر وأجبرتنا الحرارة الشديدة على اللجوء نحو الظل. انهار نتونزي من التعب على الأرض وهنا انتقم من تعبه باستسلامه للنوم.

– طلب قائلاً: أيقظوني في أحد هذه الأيام.

بدا الأمر لي غير متوقع: فقد نهض العسكري وعمل من سترته وسادة وضعها تحت رأس نتونزي ليحسّن من وضعية نومه. لم أتخيل قط وجود حركة بهذا اللطف في أورشليم. بعودته إلى ظلال أشجار

نتوندو[14]. قام زكريا بلف سيجارة طويلة كما لو كانت متعته تكمن في لفّها وليس في تدخينها. شيئاً فشيئاً، ارتاح على جذع الشجرة، وسرّ ناظريه بقمة الأشجار المورقة، وقال: هذه الشجرة تستجيب بشكل جيد للأرض.

كان المقلاع ينام في يده، آخذاً حذره مع ذلك على الظلال المتحركة. استمرت العصافير في العبور. لا يحصل الصياد على الاسترخاء التام، فجزء من روحه، ذاك الجانب من السِّنَور فيه، يكون دوماً مستعداً للهجوم.

– سألته: دوماً صيادٌ، هيه؟

– ماذا؟ بسبب هذا المعقل الذي في يدي؟ هذا فقط كي أشعر بأني طفل.

وبدأ يترنح من النعاس، وقد طغى عليه التعب، حتى دون أن تكون لديه رغبة في تحريك عينيه. كانت الشمس في أوجها، ومجرد الشعور بوجود جسد يشكل أمراً لا يُطاق.

– ألم تتواجد في حياتك نساء على الإطلاق يا زاكا؟

– عشت دوماً من جبلٍ إلى وادٍ، دون أن أخلق روحاً أبداً. وحدها النسور تستطيع أن تجد الراحة في عالم مشابه كهذا، يا طفلي.

على حسب معرفتنا، لم يكن لدى العسكري لا امرأة ولا أطفال. برّر كالاش ذلك بقوله بأن هناك أناساً كالخشب: من الجيد بقاؤهم معاً.

---

[14]: Ntondo: شجر في أفريقيا من أنواع المانغا البرية.

وهناك آخرون كالبَيض: دوماً بالدزينات. لكن لا يُعد هو واحداً منهم. فهو له طباع وعلٍ أفريقي، يهيم دوماً دون رفيق، وهي عادة اكتسبها واحتفظ بها من الحرب. مهما كان عدد كتيبة الجيش يعيش العسكري دوماً وحيداً، يموت بشكل جماعي، ويدفن ليس في مقبرة جماعية فقط، بل بهيئة مشتركة. لكنه لا يعيش إلا في الوحدة.

في ظل أشجار نتوندو بدا أن جميعنا سوف يستغرق في النوم. مع ذلك، وتحت ضغط نابض داخلي، نهض العسكري فجأة. لقّم سلاحه ومزقّ صوت الطلقة السكون للأبد. كان هناك انفجار بين الشجيرات وهرعنا راكضين كي نلتقط ظبي البقر الوحشي المجروح. لكن الحيوان لم يكن في المكان الذي توقعناه. لقد هرب وسط النباتات. كان هناك آثار دماء على الأرض تدلّ على مساره. عندئذ أصبحنا شهوداً على التغيير غير المتوقع لزاكا. كان شاحباً، مصاباً بالدوار، وقد جلس على حجرة كي يتحاشى السقوط.

– لاحقوا أنتم آثاره.

– نحن؟ وحدنا؟

– خذا البندقية. أنت نتونزي، أطلق.

– لكن ألن تأتي معنا زاكا؟

– لا أستطيع.

– أأنت مريض؟

– لم أستطع فعل ذلك أبداً.

الصياد الخشن، الجندي الذي خاض العديد من الحروب، كان يترنح أمام نوبة رحمة؟ شرح لنا زكريا بأنه لا يستطيع مجابهة الدماء ولا النزاع الأخير للطرائد. إما أن تكون الطلقة دقيقة والموت صاعقاً، أو يتراجع، مأخوذاً بنوبة من تأنيب الضمير.

– تحولني رؤية مشهد الدماء إلى امرأة. لا تقولا شيئاً أمام والدكما.

أخذ نتونزي البندقية، وبعد فترة قصيرة، سمعنا طلقات النار. لم يتأخر في الظهور مجدداً حاملاً الحيوان. وبدءاً من هذا اليوم، بدأ نتونزي يستسيغ طعم البارود. فينهض منذ بزوغ الفجر كي يتسلل إلى الغابة، فرحاً كآدم قبل فقدان حظوته.

وبينما كان أخي يعاود إتقان الصيد، كنت أفضل أنا بأن أكون الراعي. باكراً في الصباح، كنت آخذ الماعز لترعى.

– يعلّق زكريا قائلاً: بالنسبة إلى الماعز، كل أرض تمثل لها طريقاً. وكل تربة هي مرعى. ليس هناك حيوان أكثر تعقلاً منها. فطنة الماعز تتلخص في أنها كانت تقلد الحجارة كي تعيش.

ذات يوم، وأنا على وشك مساعدته في التقاط العلف من الإسطبل، اعترف زكريا. نعم، هناك ذكرى تراوده بطريقة متكررة. وكانت كالتالي: أثناء الحرب الاستعمارية. شاهد وصول أحد الجرحى إلى الترسانة. اليوم أصبح يعي بأن الجنود هم دائماً مجروحون. الحرب تجرح حتى أولئك الذين لم يذهبوا إلى ساحة المعركة. حسناً، هذا الجندي كاد أن يكون طفلاً، وكان يعاني من مرض: في كل مرة كان

يسعل فيها، كان يخرج من فمه سيل من القذائف. هذا السعال كان مُعدياً، ويجب الابتعاد عنه. كان ينتاب زكريا الرغبة ليس فقط في الابتعاد عن الترسانة كلها، بل كان يرغب في هجرة زمن كل الحروب.

– ما زلت سعيداً بأن يتم الانتهاء من العالم. الآن، أتلقى الأوامر من الأدغال.

– ومن أبي؟

– لا أقصد إهانتكم، والدكم هو جزء من الأدغال.

أخذت نقيض طريق زاكا، ذات يوم سأكون حيواناً. كيف يمكننا ونحن نعيش بعيداً عن الناس بهذا الشكل، أن نكون بشراً؟ كان هذا هو الشك الذي يخامرني.

– لا تفكر بهذه الطريقة. فهناك، في المدينة يصبح الناس وحوشاً.

في ذلك الوقت لم أقدّر كم كان العسكري على حق. لكن اليوم أعرف: كلما كان العالم غير صالح للسكن، أصبح مأهولاً بالسكان.

لم أفهم زكريا لمدة طويلة. وكان سبب شكّي هو اسمه القديم. «إرنستو سوبرا» لماذا «سوبرا»؟ في النهاية كان السبب بسيطاً، فهو بقايا بشرية، نتوءات تشريحية، قطعتان منفصلتان للروح[15]. كنا نعرف، لكننا لا نحكي في ذلك: أُصيب زكريا بانفجار لغم. انفجرت الآلة، فطار الجندي سوبرا في الجو كما طيران فظّ لعصفور. وجدوه وهو يبكي

[15]: Sobra : تعني بقايا في اللغة البرتغالية.

ولا يعرف أبداً كيف يمشي. بقوا يفتشون عبثاً عن إصابة ما في جسده. الانفجار كان قد دمّر روحه بالكامل.

لكن شكوكي نحو إنسانية زكريا ذهبت لأبعد من ذلك بكثير. في الليالي غير المقمرة مثلاً، كان يقوم بتفريغ بندقيته في الهواء كما لو أنه كان يطلق التحية العسكرية.

– ماذا أفعل؟ نجوماً.

كان يقول بأن النجوم ما هي إلا ثقوب في السماء، والكواكب المتعددة لتكن أكثر من ثقوب مفتوحة من تسديداته على مرمى السماء المظلمة.

في بعض الليالي، الممتلئة بالنجوم، كان زكريا ينادينا لرؤية عرض السماء. كنا نحتج والنعاس يغلبنا:

– لكن لدينا منها الكثير لنراه...

– أنتما لا تفهمان. ليس كي نرى، بل كي نُرى.

– ألهذا السبب تنام في الخارج؟

– هذا لا، لأجل سبب آخر.

– لكن أليس من الخطورة النوم هكذا تحت النجوم؟

– كنت فيما مضى حيواناً. وما زلت أتعلم كيف أصبح بشراً.

– نحن لا نفهم أورشليم، كان يقول زكريا: هنا الأشياء هي أشخاص. شرح قائلاً.

أنشتكي كوننا وحدنا؟ مع ذلك هناك أناس من حولنا، مخلوقات بشرية تحولت إلى حجارة، إلى أشجار، وإلى حيوانات. حتى إلى نهر.

- أنت، موانيتو، افعل كما أفعل: ارمِ التحية على الأشياء عندما تمر بجانبها. هكذا تجد السلام. هكذا سوف تستطيع النوم تحت أي نجمة جميلة.

مخاوفي الليلية سوف تختفي إن أنا قمت برمي التحية على الشجيرات والصخور. لم أتوصل على الإطلاق لإثبات فاعلية وصفة زكريا كالاش، لأنه في مرحلة ما كان يحتجب.

حدث هذا تماماً عند الوصول غير المتوقع للخال أبروكزيمادو. في نهاية بعد ظهر أحد الأيام، سمعنا صوت خطوات على مقربة من الترسانة، زحف زكريا وسلاحه في يده، مستعداً لإطلاق النار. همس العسكري في أذن أخي:

- ها هو، إنه حيوان جريح يقترب وهو يعرج، هيا أطلق يا نتونزي...

وسمعنا عندئذ الصوت الأكثر ألفة من بين كل أقربائنا يصرخ من وراء الأدغال وهو يقول:

- أطلق! هيا اذهب إلى الجحيم! هيه، اهدؤوا، هذا أنا...

- أجاب زاكا: لم أسمع صوت الشاحنة.

لقد أصيبت بعطل عند مدخل المحمية. مشيت على طول الطريق.

- ألقى أبروكزيمادو التحية، وجلس تحت الظلال، وشرب. انتظر بعض الوقت قبل أن يقول:

- أنا قادم من الجهة الأخرى.

– هل جلبت بعض الأشياء؟ سألته وأنا أشعر بالفضول.

– نعم. لكنني لست هنا لأجل هذا. لدي شيء أقوله لكم.

– ماذا يا خالي؟

– انتهت الحرب.

ملأ قربته بالماء وعاد إلى المخيم. أمر زكريا نتونزي بأن يعيد له السلاح، لكن أخي رفض بحدة:

– والدي من أمرني بالتدرب عليه...

– والدك يأمر العالم، وأنا آمر السلاح.

صوت زكريا كان مغايراً، بدت الكلمات وكأنها تسلخ حلقه. وضع السلاح في الترسانة وأغلق البناء بالمفتاح. رأيناه أيضاً يذهب ناحية البئر وينحني فوقه كمن يريد أن يرمي بنفسه في الهاوية. بقي على هذه الحال لمدة نصف ساعة. ومن ثم نهض مشغول البال، واكتفى بالقول:

– عودا إلى المعسكر، أنا ذاهب...

– ذاهب، إلى أين؟

لم يحر جواباً. بقينا نسمع خطواته العسكرية وهي تسحق الأوراق الجافة.

انسحب زكريا، ولم يره أحد لأيام. عدنا ولزمنا غرفتنا ينتابنا شعور بأن الزمن قد تقلص في كليته إلى مجرد فترة انتظار. لم يكن هناك أي إشارة من أبروكزيمادو، ولا أي أثر للعسكري. ولا أي طلق ناري متقطع من بعيد.

ذات يوم، وأنا أجلب التبغ إلى جيزابيلا، فاجأت زكريا وهو نائم في الإسطبل، ملتحياً، وتبدو عليه الشراسة أكثر من وحش.

– كيف حالك زاكا؟

– ذهبت دون سبب، وجئت لأجل لا شيء.

– يريد أبي أن يعرف ما الذي تفعله هنا منذ مدة طويلة، وأنت تُغلق على نفسك تماماً؟

– أقوم بتنشئة فتاة. هذا يأخذ وقتاً طويلاً، لأنها غريبة عن هنا.

– ومتى تتوقع أن تنتهي؟

– انتهى الأمر بالفعل، لم يبق سوى أن أضع لها اسماً. اذهب الآن، لا أريد وجود أي مخلوق حي هنا.

سألني والدي عندما عدت إلى المخيم: هل قال هذا؟

طلب مني سيلفستر أن أعيد عليه الحوار الذي جرى منذ لحظات بيني وبين العسكري كلمة كلمة. ازدادت التجاعيد التي فوق جبهة أبي اتساعاً. اعتقدنا جميعاً بأن زكريا كان يحتفظ بقوى غامضة. كنا نعرف مثلاً كيف كان يصطاد دون شبكة ولا صنارة. متسلحاً بقوى المسيح، كان يدخل إلى النهر حتى تصل المياه إلى خصره. ثم، وهو مستمر في السير، يغوص بيديه ويسحبهما في ثوانٍ وهما تمتلئان بالأسماك التي لم تزل حيّة.

– جسدي هو شبكتي. كان يقول.

في اليوم التالي، عاود زكريا خدمته، وارتدى بدلته الرسمية. لم يسأله والدي شيئاً. بدا أن روتين أورشليم قد عاد من جديد: يخرج العسكري عند انبلاج الضوء وبندقيته على كتفه. من وقت لآخر كنا نسمع بعض الطلقات النارية من بعيد. طمأننا العجوز قائلاً: إنه زكريا وأموره الغريبة. ومن ثم، لا يلبث أن يظهر الرقيب في الأفق، حاملاً طريدة تكون بالفعل مقطعة الأوصال. لكن قد يحدث أن يتناهى إلى سمعنا بعض الطلقات أثناء وجود زكريا معنا.

- من هؤلاء الذين يطلقون النار الآن يا أبي؟
- طلقات النار هذه هي عبارة عن صدى لصوت طلقات قديمة.
- اشرح لنا يا أبي.
- لم يعد لديهم مكان الآن. إنها أصداء الحرب المنتهية.
- هذا خطأ، أيها العزيز سيلفستر. كان يقاطعه زاكا قائلاً.
- أي خطأ؟
- لا وجود لحرب تنتهي أبداً.

الأتـان جيزابيلا

متألمـة مـن أن أكـون نفسـي ولـيس
شخصاً آخر.
متألمة من ألا أكون، يا حبيبي، تلك
الـتي تسـتطيع أن تعطيـك ذريـة مـن
الفتيات، يتزوجن فتية
وفي المساء أتجمّل وأتتبأ
وجوه الحب، متيقظة وجميلة.

متألمة لأني لست الجزيرة الكبيرة
التي تنسحب دون أن تسبب لك اليأس
(الليل كحيوان مفترس يقترب)

متألمة كوني ماء في وسط الأرض
وأن لي وجهاً متعباً ومتغيراً
وفي الوقت نفسه متعدد وجامد
لا أعرف إن كان غائباً أوينتظرك
معذباً بحبك، أو ثائراً.
وكونه ماء، يا حبي، يريدأن يكون
أرضاً.

«هيلدا هيلست»

أقدم لكم الآن، كخاتمة، آخر شخصية من الإنسانية: إنها حِمارتنا العزيزة، والتي تدعى جيزابيلا. كانت أنثى الحمار من سني، وهذا ما جعلها أكثر بكثير من مجرد حيوان. بيد أن جيزابيلا ـ كما كان يقول أبي ـ في عمر الربيع. يعود سر أناقتها إلى أوراق التبغ التي كانت تستمتع بمضغها. كنا نطلب من الخال أبروكزيمادو إشباع الشراهة التي كان يتناوب عليها زكريا والأتان. في عصر كل يوم، كان أحدنا يأخذ لها الأوراق كاملة، وكانت الأتان تبتهج عند رؤيتها، وتقترب بفرح وهي تخب خبباً، كي تتلقى هذا الخَضار. ذات يوم، قام نتونزي بالتعليق بقوله كم أن هذا الأمر يسليه عند رؤيته التعابير الحساسة هذه، فوق شفتيها الضخمتين.

– ضخمتان! من الذي قال لك بأنهما ضخمتان؟

كان هذا عجوزي وهو يدافع عن جيزابيلا. زيادة عن التبغ، كان هناك الحب الذي يكنه لها سيلفستر، والذي راح يشرح لنا عظمة الأتان. لم يكن أحد قد شهد البتة عاطفة كهذه ضمن خاصية التعلق بالحيوان. كان العشق يجري يوم الأحد. يجب القول بأن والدي كانت

لديه صورة مبهمة عن التقويم. أحياناً يكون يوم الأحد عبارة عن يومين متتاليين، ويعود هذا إلى قوة حالة الحرمان. وكذلك الحال بآخر يوم من الأسبوع والذي يجب أن يكون يوم أحد. كان سيلفستر يضع ربطة عنق حمراء ويتجه بخطوات مفخّمة نحو الإسطبل، وبيده باقة من الأزهار واثقاً كل الثقة بذلك. كان الرجل يسير متجهاً لإتمام ما كان يسميه «غاياته القصوى». وعلى مسافة معينة من الإسطبل، كان العجوز يعلن باحترام:

– أتسمحين؟

تلتفت الأتان بنظرة ملتبسة متخمة بالرموش، وأبي، ويداه حول بطنها، ينتظر الإشارة. ما هي تلك الإشارة، لم نكن لنعرف أبداً. الحقيقة، هي أنه كان في لحظة ما، يعبر عن امتنانه قائلاً:

– أشكرك جيزابيلا، لقد جلبت لك هذه الأزهار المتواضعة...

كنا نرى الأتان وهي تلوك باقة الأزهار. ثم يختفي أبي داخل الإسطبل. ولم نكن نعرف شيئاً أكثر.

ذات يوم أحد، لم يكن يبدو بأن الأمور قد جرت بشكل إيجابي، عاد سيلفستر غاضباً من جولته الغرامية، كان الغضب يظهر في خطواته واللعنة على طرف لسانه، مطأطئ الرأس، وهو يكرر:

– هذا لم يسبق أن حدث معي قط، أبداً! نهائياً.

دار في غرفته وهو يضرب بقدميه قطع الأثاث القليلة. كان غضبه كغضب سجين عاجز، ما جعل صوته يرتجف وهو يقول: إنها لعنة النعمة!

أخذنا الأمر حرفياً تقريباً: النعمة، تعني، بعد إجراء التعديلات اللازمة، جيزابيلا. لكن لا. النعمة كانت تلك المتوفاة. أي، أمي. العطب الذكوري الذي حصل مع فيتاليسيو كان بسبب العين الحسودة للسيدة دوردالما.

وهو مترهل في كرسيه على الشرفة، طلب أبي خدماتي كمدوزن للصمت. كان هذا في نهاية بعد ظهر أحد الأيام، والظلال تركض لتستولي على العالم. كان سيلفستر يشبه إحدى تلك الظلال: التقطها على الفور،لكنه لم يتأخر عن النهوض وإصدار أوامره بحركة فجائية:

– تعال معي إلى الإسطبل.

– ماذا سنفعل؟

– أنا الذي سيفعل، صحح قائلاً. سأطلب الصفح من جيزابيلا. كي لا تكون حزينة، المسكينة، تعتقد بأنها غلطتها.

بقيت عند مدخل الإسطبل، رأيت والدي يعانق رقبة الأتان ومن ثم لم تلبث العتمة من حولي أن لفتني. منعني هيجان داخلي من النظر. كنت أتحرق غيرة من جيزابيلا. عند عودتنا، أضاءت صاعقة السافانا، وانطلق صوت فرقعة أصمّتنا. بدأت أمطار نوفمبر بالهطول. لم يتأخر زكريا عن الخروج ليلعن الآلهة.

في نفس هذه الليلة، أمرنا والدي بأن نحرس الإسطبل.

– وزكريا؟ سألناه قائلين، لماذا لا توكل هذا العمل إلى المسؤول عنه؟

– هذا الشخص يصبح مشلولاً عند هبوب العاصفة. هيا، خذا المصباح.

كانت جيزابيلا هائجة، تنهق وترفس. ولم تعطِ شتائم زكريا أي مفعول. كان يقف في تلك اللحظة صامتاً في كوخه. كان سبب الاضطراب يعود لشيء آخر، وكانت مهمتنا دراسة هذا السبب. خرجنا أنا وأخي تحت صوت هدير العاصفة القوي. حدّقت بي الأتان وهي تنهق كنداء استغاثة شبه بشري، وأذناها مطويتان من الخوف. نور الاستغاثة ذاك، كان ينبعث من عينيها المخمليتين، كما لو كانت أعماق روحها مخططة بالبرق.

جلس نتونزي وهو يغالب النعاس بينما كنت أهدئ من روع الأنثى. اطمأنت، واتكأت بجنبها على جسدي في محاولة منها للبحث عن دعم مريح. سمعت صوت الأذى في نبرة أخي:

– يمثلن كلهن الضعف والوهن، موانيتو.

– أبداً.

– هيا، جامع الآنسة.

– لم أسمع.

– بل سمعت جيداً. هيا، افتح سحاب بنطلونك، ترغب الآنسة بأن تؤخذ.

- لكن جيزابيلا هي فقط خائفة.

- أنت الخائف. هيا، موانيتو، أخفض بنطلونك، لا يبدو عليك وكأنك ابن سيلفستر فيتاليسيو.

اقترب نتونزي مني ودفعني، وأجبرني بأن أتكئ على ظهر الأتان، بينما كنت أبكي:

- لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك.

فجأة، وسط الغابات، شاهدت ظلاً يتحرك، متسللاً، وزاحفاً. أشرت وأنا مرعوب:

- إنها لبوة! إنها لبوة!

- سنذهب، بسرعة، هات مصباحك.

- وجيزابيلا؟ هل سنتركها هنا؟

- فلتذهب إلى الجحيم.

سمعنا فجأة طلقاً نارياً. بدا بالأحرى وكأنه صوت صاعقة. لكن طلقاً نارياً آخر، أزال الشك لدينا. كان جندينا على حق تماماً: أمام الطلقات، الهادفة أو الطائشة، يموت الجميع دوماً. البعض، يكون محظوظاً أحياناً، ويعود من رماد الخوف. وهذا ما حصل معنا. من شدة الارتباك، اصطدم نتونزي بي، وتعرقلنا ووقعنا على الأرض، ونحن نترصد من بين الأعشاب. كان زكريا قد أصاب اللبوة المهاجمة.

قام الحيوان ببضع خطوات سكرى، كما لو كان الموت يشبه دواراً يضرب الأرض نفسها. ومن ثم انهارت بخفة لا تليق بمقامها الملكي. في اللحظة التي وقعت فيها على الأرض، توقف المطر.

تأكد زكريا بأنها قد ماتت حقيقة، ومن ثم ركع ووجه كلامه نحو قبة السماء، طالباً منا ربط جرحه الذي انفتح بسبب إطلاق الرصاص.

ظهر أبي فجأة، وهرع مستعجلاً دون أن يتوقف بالقرب منا. دار حول السياج يبحث عن جيزابيلا، وعندما رآها، بقي قربها يواسيها.

– المسكينة، إنها ترتجف، اليوم ستنام في البيت.

– صرخ نتونزي مستغرباً: في البيت؟

لم تنم سوى هذه الليلة، وكان ذلك كافياً بالنسبة لنتونزي ليصب غيرته عندما وجّه كلامه نحوي: أنت، الذي هو ابنه، لم يسمح لك على الإطلاق بالنوم عنده، لكن جيزابيلا لها الحق في النوم في الداخل...

بعد هذا الحادث، قرّبنا موقع الإسطبل. فما إن يحل الليل حتى نبدأ بإشعال النار من حوله لنحمي الأتان من طمع السارقين.

لم تمض أسابيع حتى قرر سيلفستر إطلاق بوق الدعوة لاجتماع عائلي. اجتمعنا بسرعة عند مكان الصليب. كان الخال أبروكزيمادو، الذي قضى الليل معنا، ينتظرنا أيضاً، متأهباً بجانبنا. حدق العجوز فينا واحداً واحداً وهو ينظر مطولاً في عيوننا عاقد الحاجبين. من الآخر، زمجر قائلاً: جيزابيلا حامل.

انتابتني الرغبة في الضحك. الأنثى الوحيدة التي تعيش بيننا استمتعت على راحتها. لكن نظرة عجوزي الباردة قتلت في داخلي كل حس في الفكاهة. القاعدة السرية كانت قد انتهكت: هناك مَني بشري انتهى بالانتصار، وراح يهدد بأن يثمر داخل حيوان في أورشليم.

– هكذا يبدأ الزنى في العالم في كل مرة.

– لكن اعذرني، يا صهري، قال أبروكزيمادو، ألا يكون السيد هو نفسه صاحب هذه المزحة؟

– أنا آخذ حذري، والسيد يعرف ذلك جيداً.

– من يدري؟ ربما في إحدى المرات، وفي حمّى الاستعجال...

– قلت لست أنا، قال العجوز وهو يخور.

أعماه الغضب لدرجة صار معها فمه يزبد باللعاب؛ وكان الرذاذ يشبه النيازك لحظة صرخ:

– ليس هناك إلا حقيقة واحدة وهي أنها حبلى، والوغد المسؤول عن ذلك هو هنا، بيننا.

صرخ العسكري زكريا بصوت جارح: أقسم لك يا سيلفستر بأني لم أنظر لجيزابيلا ولا حتى نظرة واحدة.

– عقّب أبروكزيمادو قائلاً: ربما ليس هو أكثر من انتفاخ بسيط بسبب مرض ما؟

– إنه مرض تسبب فيه ابن عاهرة، لديه ثلاثة جلاجل بين فخذيه.

همهم العجوز بغضب.

أطرقت بنظري إلى الأرض، غير قادر على مواجهة عشق والدي للأتان. وتبعتنا التهديدات المتكررة بينما كنا نعود إلى الغرفة.

- كائناً من كان: سوف أقطع له خصيتيه!

لاحقاً، بعد شهر، أعطى زكريا الإنذار: نزفت جيزابيلا خلال الفجر كله، وهي تتلوى بين نهيق ورفس. حدث هذا عند انبلاج الصبح. كانت قد قاومت، وبدت كأنها ميتة. أخيراً، قامت بطرح جنينها، فأخذ زكريا مُرشح الحياة الجديد ورفعه بين ذراعيه، وهو مضرج بدمائه ومادته المخاطية.

هدأ العسكري، وقال بصوت مخنوق: ها هو ابن أورشليم!

عندما عرفنا بهذا الخبر، اجتمعنا جميعاً بالقرب من الحظيرة، ملتفين حول الأتان التي كانت لم تزل لاهثة. كنا نريد رؤية المولود وهو مختبئ في الشعر الكثيف لوالدته. لم نجرؤ حتى على الدخول إلى الإسطبل، فوصول والدي غير المتوقع أرجأ انتظارنا النافد الصبر. أمرنا سيلفستر بالابتعاد، كان يريد أن يكون أول من يجابه الدخيل. تقدم زكريا بخفة جندي عند حاجز الإسطبل:

- انظر إلى الطفل يا سيلفستر، سوف تعرف فوراً من هو الوالد.

دخل سيلفستر في العتمة وبقي هناك لمدة. عاد فخرج منها، بخطوات حثيثة، كاشفاً عن زوبعة تعتلج في روحه. ما إن اختفى أبي حتى هجمنا بسرعة نحو الأرض المسورة وركعنا بالقرب من جيزابيلا.

ولحظة اعتاد نظرنا على العتمة، وجدنا إثبات هوية الجسد الصغير الممدد بالقرب من جيزابيلا.

كانت الخطوط المنتظمة السوداء والبيضاء، على الرغم من عدم اتساقها، كافية لكشف الحقيقة: إنه زيبرا صغير. كان أحد ذكور حمار الوحش قد جاء لعندنا وتزوج ثانية بقريبته البعيدة. حمل نتونزي الصغير بين ذراعيه، وراح يداعبه كما لو كان كائناً بشرياً، وأعطاه اسماً جديداً بينما كان يهدهده كأم بين ذراعيه وهو يمشي. لم يخطر في بالي مطلقاً بأن لأخي القدرة على منح كل هذه الرقة: كان الحيوان الصغير يستفيد من ذراعيه، وابتسم نتونزي عندما تمتم:

– حسناً، سوف أقول لك يا طفلي: لقد أعطى والدك رفسة كبيرة في قلب عجوزي الصغير.

حتى نتونزي نفسه لم يكن يعرف كم كان على حق. في الحقيقة لم يتأخر سيلفستر في العودة إلى الإسطبل، سحب فجأة المولود من بين الذراعين اللتين كانتا تحملانه، وأمر بطريقة غير قابلة للنقاش أو الجدل:

– أريد إعدام هذا الزيبرا القذر من خصيتيه، هل سمعت يا زكريا؟

في تلك الليلة عاد أبي إلى الإسطبل وأخذ حمار الزيبرا الصغير بين ذراعيه. كانت جيزابيلا تتبع حركاته بعيون دامعة بينما كان سيلفستر يردد كأغنية غريغورية:

– آه، يا يسوع، لماذا فعلت بي ذلك؟ لماذا؟

ظهر وكأنه يداعب المولود، لكن ذراعيه لم تكونا في الواقع تقومان غير بخنق هذا الكائن الهش، هذا الزيبرا الصغير ذي الدماء المختلطة. أخذ أبي الحيوان الصغير الذي كان قد فارق الحياة بين ذراعيه وابتعد عن الإسطبل، وقام بدفنه بنفسه بالقرب من النهر. كنت أتلصص على ما يجري، غير قادر على التدخل، وعاجز عن الفهم. شكلّ هذا العمل الفظيع بالنسبة إليّ وإلى الأبد عائقاً في تفكيري نحو طيبة والدنا. لم يعرف نتونزي أبداً ما جرى وحصل في تلك الليلة. بقي يعتقد بأن المولود الجديد لم يعش لأسباب طبيعية. كانت الطبيعة البرية تصحح من خطوط صغير حمار الوحش، المولود ضمن بيئة أليفة.

عندما أغلق الحفرة، اتجه سيلفستر نحو النهر كي يغسل يديه، هذا ما اعتقدت، وأنا كنت أتبعه عن بعد. هل كان سيضعف، متأثراً بوميض داخلي؟ اقتربت منه رغبة في مساعدته، لكن الخوف من القصاص حماني من نظره. وحينئذ عرفت: كان سيلفستر يصلي. وحتى اليوم لم أزل أرتعش عندما أعود إلى تلك اللحظة. لأني لم أعلم إن كنت أخترع أم أتذكر حقيقة دعائه: «يا إلهي، احمِ أولادي بما أنك لم تعرف كيف تحميني. الآن لم يعد لدي ملائكة، تعال إلى أورشليم كي تمنحني القوة...».

فجأة، شعر والدي بوجودي. صحّح من وضعية الخاشع، فرك ركبتيه، وسألني:

– هل تريد إخافتي؟

– سمعت ضجيجاً يا أبي، فجئت لأرى إن كنت تحتاج إلى مساعدة.

– كنت ألمس الأرض: لم تزل جافة. عساها تمطر أكثر من ذلك!

جال بنظره ناحية الغيوم، متظاهراً التكهن بالمطر. تنهد وقال:

– هل تعرف يا طفلي؟ لقد اقترفت خطأ رهيباً.

اعتقدت بأنه سوف يعترف بجريمته. أخيراً سيتحرر والديوس يُغفر له حين اعترافه بوخز الضمير.

– أي غلطة يا أبي؟

– لم يسبق أن أعطيت هذا النهر اسماً أبداً.

كان هذا اعترافه. مبسطاً ودون أي مشاعر. نهض وأحاط كتفي بيده:

– أنت يا بني، اختر اسماً لهذا النهر.

– لا أعرف يا أبي. اختيار اسم هو شيء كبير بالنسبة إليّ.

– إذن، سأختار أنا: سوف يدعى نهر كوكوانا.

– أجد هذا اسماً جميلاً. ماذا يعني؟

– هذا يعني «الجدّ».

شعرت بقشعريرة: هل بدأ أبي يضعف أمام الامتناع عن استحضار الأسلاف؟ وكانت هذه اللحظات من الحساسية بحيث لم أنبس ببنت شفة خوفاً من أن يتراجع.

– كان جدك لأبيك يصلي للأنهار عندما كان يريد أن يطلب المطر.

– وبعد ذلك؟ هل تمطر؟

– كانت تمطر دوماً بعد ذلك، يجب فقط أن نصلي مقدماً. ثم أضاف قائلاً: المطر هو نهر يحميه المتوفون.

من يدري، ربما هذا النهر، الذي أخذ اسماً مؤخراً، يُقاد من قبل جدي الأبوي؟ من يدري، ربما بهذه الطريقة سأصبح محاطاً أكثر بكثير؟

عدت إلى غرفتي، كان مصباح سرير أخي لم يزل مضاءً. كان نتونزي يرسم ما بدا لي بأنه خريطة. كان هناك أسهم، وألواح حظر، وخربشة غير مفهومة تشبه الأحرف الروسية. في وسط هذه الخارطة كان يتربع شريط بلون أزرق وهو بكامل إشراقه.

– هل هذا نهر؟

– نعم، إنه النهر الوحيد في العالم.

وفجأة تشرّبت الورقة بالماء وراحت قطرات ضخمة تتساقط على الأرض. لتحاشي بركة الماء التي كانت تغطي الأرضية، جلست عند زاوية سريره. عنفني نتونزي قائلاً:

– انتبه لقدميك المبللتين، أنت تلطخ كل مكان بالبقع.

– قل لي يا نتونزي، كيف يكون الجدّ؟

أمام غيرتي الكبيرة، كان نتونزي قد عرف مجموعة الأجداد كاملة. دون شك لم يكن يتكلم حول ذلك بسبب الحشمة. أو ربما من خشيته أن يعلم أبي؟ كان سيلفستر يمنع الذكريات. العائلة هي نحن، دون أي وجود لشخص آخر. عائلة فينتورا ليس لديها لا قبل ولا بعد.

– جدّ؟ سأل نتونزي.

– نعم، قل لي كيف يكون؟

– جدّ أم جدّة؟

لم يكن ذلك يشكل فارقاً عندي. في الحقيقة لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أطرح عليه فيها هذا السؤال. وأخي لم يكن يجيب على الإطلاق. كان يعد على أصابعه كما لو أن فكرة أولئك الأقرباء تولد من حسابات دقيقة. يعدّ، نعم، بطريقة غير حسابية.

مع ذلك، هذا المساء، لا بد أن نتونزي كان قد أنهى العدّ. لأنه وبينما كنت مسترخياً بشكل تام بين أغطية السرير، عاد بنفسه ليفتح هذا الموضوع. كوّر فراغاً بيديه، بحرص من كان يحاول نقل عصفور صغير.

– هل تريد أن تعرف كيف يكون الجدّ؟

– لطالما سألتك، ولم تجبني أبداً.

– أنت، موانيتو، لم يسبق لك أن رأيت كتاباً أبداً؟

وشرح لي كيف كان شكل هذا الشيء المغري، مقارناً إياه بلعبة عظيمة لورق اللعب.

– تخيل أوراق شدّة بحجم يد. الكتاب هو لعبة مؤلفة من هذه الأوراق جميعها ملتصقة من جانب واحد.

كانت نظرته غامضة عندما مرر يده على أوراق لعب خيالية وقال:

– داعب كتاباً هكذا وسوف تعرف ماذا يعني جدٌّ؟

أحبطتني طريقة شرحه. كانت فكرة الجدّ الذي يدير أنهاراً مثيرة أكثر من ذلك بكثير. كنا على وشك أن نغفو عندما ناديته:

- على فكرة، نتونزي، لقد انتهت أوراق اللعب.

- انتهت كيف؟ هل أضعت الشدّة؟

- لا، ليس الأمر كذلك. لم يعد هناك مكان كي أكتب.

- سوف أجد لكَ شيئاً تكتب عليه. سوف آتيك به غداً.

في اليوم التالي، سحب أخي من قميصه رزمة من الأوراق الملونة ورماها نحوي بجفاء: يمكنك الكتابة هنا.

- ما هذه؟

- إنها نقود. وهذه أوراق النقود.

- وماذا أفعل بها؟

- افعل كما فعلت بأوراق اللعب، اكتب فوق كل الأماكن المتاحة عليها.

- وأين كانت هذه النقود؟

- كيف تعتقد بأن بمقدور عمي أن يحصل على كل الأشياء التي نطلبها منه؟

- يقول بأنها مجرد بقايا يلتقطها بكل بساطة من الأماكن المهجورة.

- أنت لا تفقه شيئاً يا أخي. أنت من العمر ما يكفي لتُضلل، وأنا في عمر التعرض للخداع.

- هل أستطيع الكتابة الآن؟

- ليس الآن. خبئ جيداً هذه النقود حتى لا يداهمنا أبي.

أخفيت الأوراق تحت غطائي كما لو كنت أخفي صحبة لأحلامي. عندما أصبحت وحيداً، وكان نتونزي قد بدأ بالشخير، كانت يداي ترتجفان وهما تداعبان النقود. دون أن أعرف السبب، وضعت الأوراق المرسومة على أذني كمن سيسمع أصواتاً. فعلت كزكريا عندما كان يصغي إلى الثقوب في الأرض. ربما كان هناك حكايات مخبأة في تلك الأوراق البالية، من يدري؟

بيد أني لم أكن أسمع سوى شيءٍ واحدٍ، وهو الخوف الذي كان يجعل صدري يخفق. كانت هذه النقود الثروة الأكثر سرية لعجوزي. كان تواجدها يشكل البرهان المحتوم لكذبه الطويل. كان الطرف الآخر في الواقع حيّاً وهو من كان يدير أرواح أورشليم.

الكتاب الثاني الظهور 101

أريد فسحة لأنام
عفواً - بلكي أرتاح في الساعات التي
خلالها
دون أدنى حلم
لفافة ورقية واهية لحلم هش.

أريد لمن هو قبل الحياة
جعل النوم للأجناس عميقاً
نعمة وضعية،
بذرة.
فيما وراء الجذور.

«آديلا برادو»

لم نكن نعيش فعلياً خلال أغلب أوقات حياتنا. كنا نُستنفد في فترات خمول طويلة التي، من أجل أن نخدع أنفسنا ونواسيها، ندعوها بالوجود. من حيث باقي الأمور، كنا نترنح، مستنيرين فقط بفواصل لحظية قصيرة.

كان يمكن لحياة بأكملها أن تنقلب تحت تأثير هذه الفواصل. بالنسبة لي، أنا موانيتو، حصل ذلك في ذاك اليوم. بدأ ذلك في الصباح، عندما غادرت المنزل كي أواجه هبوب الرياح التي كانت ترفع في كل مكان سحابة من الغبار. كانت الدوّامات تدور بشكل راقص متقلب، ثم لا تلبث أن تختفي بنفس الطريقة الخارقة التي كانت قد ارتفعت بها. وقمم الأشجار تكنس الأرض بينما الأغصان الثقيلة تنفصل، وهي تتكسر بشكل صاخب.

– لا أحد يخرج في هذه المنطقة ليقوم بجولة...

كانت تلك أوامر أبي الذي كان ينظر من نافذة غرفته، معذباً من العاصفة ولهيب هوائها. لا شيء كان يشوش على سيلفستر أكثر من الأشجار الملتوية، وأوراق الأشجار المتموجة كالثعابين الأثيرية.

عاصياً للأوامر الأبوية، غامرت في الدروب الضيقة التي كانت تربط أحياءنا بالبيت الكبير. وندمت على ذلك فوراً. كانت العاصفة تشبه تمرداً للجهات الرئيسية. اجتاحتني برودة داخلية: هل كانت مخاوف عجوزي مبررة؟ ما الذي يحدث؟ هل كان سطح الأرض متعباً كونه على الأرض؟ أم إن الله كان يعلن عن قدومه إلى أورشليم؟

حميت وجهي بيدي اليمنى، وباليد اليسرى شددت طرفيّ معطفي القديم، وتقدمت في الدرب حتى وصلت إلى المبنى المسكون. قضيت وقتاً دون حراك وأنا أصيغ السمع لصفير الهواء. شجعني هذا الصفير: كنت يتيماً والهواء يزمجر كشخصٍ يعاود البحث عن أهله المفقودين.

حتى وإن كنت متضايقاً، كنت أتلذذ في هذا العصيان كما لو أنه انتقام من سيلفستر فيتاليسيو. في الأعماق، كنت أرغب في أن يزداد الإعصار حدة كعقاب لهذيان والدنا. انتابتني الرغبة في العودة أدراجي، أتحدى بغطرسة سيلفستر وهو في نافذته التي كان يراقب منها الفوضى الكونية.

بين وقت وآخر، كانت هبات الريح تزداد غضباً، لدرجة أن باب المنزل القديم فُتح وحده. بالنسبة لي. كانت تلك إشارة: يد خفية كانت تدعوني لأتجاوز الخط الممنوع. صعدت الدرج الذي في مواجهتي ونظرت إلى مصطبة الحديقة التي امتلأت بمئات الأوراق التي تدور حول نفسها في رقصة مجنونة.

فجأة رأيت الجثة. جثة إنسان مطروح أرضاً. شعرت بدوار جعلني أفقد توازني. بحلقت عيناي، وأنا فارغ الصبر لأتحقق من انطباعي الأول. لكن، بحراً من الأوراق، حجب عني الرؤية فوراً. كانت ساقاي ترتجفان غير قادرتين على الحركة. بالتأكيد كنت مخطئاً، فهذا لم يكن أكثر من سراب. عصفة هواء أخرى وعادت الأوراق الميتة لتعاود الدوران بسرعة حول نفسها، ووضحت الرؤية من جديد، أكثر وضوحاً الآن، وأكثر واقعية. تأكدت من رؤية الجسد، ممدداً على الأرضية.

رحت أركض وأنا أصرخ كالممسوس. نافخاً للجهة المعاكسة.خنقت الريح صراخي، ولم يصبح شعوري بالوحشة ملموساً إلا ساعة دخلت البيت وقلت وأنا ألهث:

– هناك أحد ما، أحد ميت.

كان سيلفستر ونتونزي يقومان بلصق ذراع معزقة، ولم يكلفا نفسيهما بوقف عملهما. رفع أخي عينيه وهو خائر القوى وسأل:

– أحد ما؟

وبعجلة شديدة أعطيت تفاصيل ما رأيت. علّق أبي، رابط الجأش، بصوت منخفض:

– يا للريح اللعينة!

ثم وضع جانباً مطرقته وسأل:

– كيف كان لسانه؟

– لسانه؟

– هل كان خارج فمه؟

– بابا: كان شخصاً ميتاً، وكنت أقف بعيداً عنه. لم أر لسانه ولا فمه.

بحثت بنظري عن موافقة نتونزي على كلامي لكنه لم ينبس ببنت شفة.

مع ذلك، وأمام دليلي القاطع، أمر أبي قائلاً: نادِ لي زكريا.

خرج نتونزي راكضاً، ولم يتأخر بالعودة ومعه العسكري المتنكب أبداً بندقيته. بكلمتين، أمر والدي بالإسراع في التحرك: اذهب لترى ما «لم» يحدث هناك...

وقف زكريا وقفة استعداد، وخبط بقدمه، لكنه لم يطع فوراً. بقي ساكناً بانتظار تفويض أكثر صرامة: هل لي أن أتكلم؟

– تكلم.

– ما كان يجب على موانيتو رؤية الواقع الحقيقي.

– وافق سيلفستر قائلاً. دون شك. لكن ربما يكون أيضاً من أحد أولئك الأموات في ذاك البيت، وقد قام أحد الحيوانات بسحب جثته حتى الشرفة.

– هذا ممكن. بالأمس مساءً كانت أعداد كثيرة من الضباع تهيم في المنطقة.

– حسناً إذاً، إن كان هذا هو الحال، ادفنه. ادفن الجثة لكن لا تفعل ذلك أبداً تحت شجرة.

– لكن ألا تريد أن تعرف من يكون؟

– هذا الشخص الميت هو لا أحد. هيا إلى العمل، إن هبّت الريح فلسوف ألحق بك.

– ربما هو يعيش ها هنا، في أورشليم، ونحن لا نعرفه. خمّن نتونزي بحماس غير متوقع.

– أنت مجنون؟ إن كان هناك من جثة حقاً فلن يكون لأي شخص مات مؤخراً، بل لأحد المتوفين منذ زمن، سبق له وولد هكذا دون روح، ولا حياة.

– عفواً يا أبي، بالنسبة إليّ...

– كفى! لا أريد سماع شيء. سوف تحفر حفرة، وهذا الجسد، أو أياً كان، سيدفن في الأرض.

سرنا أنا وأخي وزكريا برتل واحد في موكب جنائزي. كانت أصوات سيلفستر مازالت تتناهى إلى سمعنا ملخصة ترتيباته النهائية:

– بعد ذلك، عندما تهدأ الريح، سوف أذهب إلى هناك للتحقق من الأمر.

سار العسكري أمامنا ممسكاً بمجرفة في كل يد. صعدنا درج البيت الكبير خلسة، مع شعوري بالراحة لإثبات رؤيتي الصحيحة. كانت الجهة التي فيها الجثة تقع عكس الضوء، ومغطاة بالأوراق. استولت علينا قوة خفية ونحن على عتبة المنزل، حتى اللحظة التي تمتم فيها زكريا:

– أنا ذاهب.

– لا تدخل زاكا! حذّره أخي قائلاً.

- لماذا؟

- لا أحب هذا الضوء.

وأشار إلى خيط من خيوط الشمس وهو يتسلل بين الألواح الخشبية.

نخر زكريا الهواء وهو جالس على درجات المدخل كما لو أنه كان يبحث عن رائحة مريبة.

- لا أشعر بأن هناك موتاً. قال بصوت عميق مما جعلنا نرتعد.

وعدنا لننظر إلى قعر الشرفة من جديد محاولين إبطال مفعول الضوء المنتشر من الخلف.

- إنه رجل. أكدّ العسكري قائلاً.

كانت الجثة ملقاة على ظهرها فوق أرضية الخشب كما لو كانت في نعش فُصّل سابقاً.

لم نكن نرى وجهه الذي كان يلتفت إلى الجهة المعاكسة. كان مربوطاً من الخلف، يغطي رأسه ما يشبه قطعة قماش.

- يبدو أنه من أحد الزنوج الغرباء. قال زاكا.

- كيف عرفت؟

لم يكن الجسد يحتضن الأرض كما تفعل باقي جثث السكان الأصليين. تلك العظام لم تكن تبحث عن حضن آخر في التربة، كان يوجد هناك، وبشكل واضح، تفاصيل الحذاء. لم يسبق لزكريا أن رأى شبيهاً له أبداً.

- الآن، يبدو كأنه رجل أبيض. أكدّ زاكا الذي كان لم يزل على الدرج. أعتقد بأن روح هذا الشخص قد بدأت بالتحلل.

أمرنا في البداية بحفر القبر، وعندما سننتهي من الحفرة، وتصبح جاهزة، سنعود لنأتي بالميت. في غضون ذلك سوف تتبدل أشعة ضوء الشرفة، ولن نعود لنصبح ألعوبة بيد الأرواح الشريرة.

ورحنا نحفر. قامت معاولنا بفتح السكن النهائي للغريب. لكن إليكم ما حدث: لم تجهز الحفرة أبداً. فما إن كنا نلامس القاع حتى تهب الريح وتذرو الرمال وتغطي الحفرة بالكامل. وهذا ما حصل معنا مرة، ومرتين، فثلاث.

في المرة الثالثة رمى زكريا معوله على الأرض كمن لسعه دبور وصرخ:

– لا أحب هذا العمل. أيها الأولاد تعالوا من هنا بسرعة. ودفعنا نحو ظل mafura[16]. سحب من جيبه قطعة قماش بيضاء وربطها حول الجذع. كانت يداه ترتعشان بشدة لدرجة كان نتونزي هو من تكلم:

– أنا أعرف بماذا تفكر زاكا. أنا أيضاً شعرت بالشيء ذاته.

– والتفت نحوي وقال: هذا ما حدث أثناء جنازة أمي.

– إنه السحر نفسه. ختم زكريا قائلاً.

بدأ حينئذ يروي لي ما حصل يوم دفن أمنا. «دفن» إنها ليست سوى طريقة في الكلام. ففي نهاية المطاف لم تكن الأرض كافية أبداً لدفن أم.

– «لا أريد حفار قبور.

---

[16]: Mafura: شجرة منتشرة بكثرة في كل إفريقيا المدارية. ينتجون من حبوبها الزيت والزبدة.

هذه كانت أوامر سيلفستر الذي صرخ كي يكون صوته مسموعاً من خلال صوت الريح. جرحت الرمال عينيه. ومع ذلك، لم يهتز له رمش أبداً، فقد حماهما الدمع.

– لا أريد حفار قبور. أنا وابني من سيحفر الحفرة، نحن من سيدفنها.

لكن الحفرة التي بدآ بحفرها لم تنته أبداً. حاول أبي ونتونزي مرات عدة، دون جدوى. فكانا ما يكادان يحفران الحفرة حتى تتغطى بالرمال. انضم زكريا وأبروكزيمادو إليهما، لكن النتيجة بقيت هي نفسها: كان لا يلبث الغبار المتطاير من جنون هبوب الرياح أن يعود ليردم الحفرة من جديد، وكان يتوجب على حفاري القبر، لإتمام هذا العمل، معاودة فتح وإغلاق المدفن إلى ما لا نهاية».

اليوم، وبعد ثمانية أعوام، عادت الأرض لترفض من جديد فتح بطنها كي تتلقى الجسد.

– لا أحد يتكلم. أمر زكريا قائلاً: أسمع أصواتاً.

اقترب الساعد بحذر شديد من المصطبة، أطل من بين الألواح الخشبية والتفت بوجهه المضطرب بعد ذلك نحونا. هنا، حيث كان في السابق يرقد الميت، لم يبق له أي أثر.

– الميت لم يعد هنا، ولا في أي مكان، ردد زكريا بصوت خافت.

انخفضت سرعة الرياح. مع ذلك، تابعت أوراق ميتة دورانها بثقة في الفراغ.

- سأذهب لآتي بسلاح، قال زكريا. وغادر راكضاً في الدرب.

شيئاً فشيئاً، انتشرت حالة نفسية جديدة بي حدّت من خوفي وجعلتني ألتزم الهدوء. نظرت إلى نتونزي الذي كان يرتجف كما عود القصب، وأمام ذهوله، رحت أمشي بحزم باتجاه البيت الكبير.

- أنت مجنون موانيتو؟ إلى أين تذهب؟

بصمت، صعدت إلى المصطبة وتلمسّت بحرص الألواح الخشبية القديمة كي لا تنهار وتدفع بجسدي لملاقاة القتيل المفقود. درت في الحظيرة بحثاً عن أثر، حتى اللحظة التي قررت فيها طرق باب المنزل. سأل أخي بصوت راجف:

- هل تنتظر من المتوفى المجيء ليفتح لك الباب؟

- ليس إلى هذا الحد!

- أنت مجنون، موانيتو، سأنادي والدي. قال أخي وهو يدور على عقبيه وينسحب فجأة.

بقيت وحدي في مواجهة الهاوية. فتحت الباب ببطء، وتفحصّت المدخل. كان عبارة عن غرفة واسعة وفارغة، تعبق برائحة الزمن المحفوظ. وبينما كان نظري يحاول التأقلم مع العتمة كنت أفكر: كيف، خلال سنوات طفولة طويلة، لم يستبد بي الفضول لأكتشف مكاناً ممنوعاً؟ يعود السبب في أني لم أمارس على الإطلاق طفولتي الحقيقية، فقد جعلني أبي أشيخ منذ ولادتي.

وعندئذ حصل الظهور: ظهرت امرأة وانبثقت من العدم. فُتحت فجوة عند قدميّ، وخيم نهر من الدخان حولي. عند رؤيتي لتلك المخلوقة، فاض العالم فجأة بحدود كنت أعرفها جيداً.

خلسة، وبعينين نصف مغلقتين، واجهت الغريبة. كانت بيضاء، ضخمة وترتدي بنطلوناً كالرجال، وقميصاً وجزمة طويلة. كان شعرها أملس، يختفي نصفه تحت شالٍ، ذاك الذي رأيناه على رأس الرجل الذي كان في عداد الأموات. وكذلك الجزمة نفسها. كان أنفها وشفتاها البارزتان بشكل سيء، بالترافق مع الفوارق الدقيقة لجسدها، قد أعطوها هيئة من خرج للتو من القبر.

كنت أرغب في الهرب، لكن ساقيّ كانتا كجذور أبدية. ودون أن أدير رأسي كان نظري يجول في الشارع الموحش بحثاً عن النجدة. لا شيء. لم يظهر لا نتونزي ولا زكريا. وحدها الظلال كانت تغطي المناظر الطبيعية المحيطة. وأنا مصاب بالدوار، شعرت بدمعة تزن أكثر من جسدي نفسه. عندئذ سمعت أولى كلمات تلك المرأة:

– هل تبكي؟

هززت رأسي بقوة، وفكرت في نفسي إن أنا كشفت عن هشاشتي فلن أستفيد إلا بتشجيع النية الشيطانية للظهور.

– عن ماذا تبحث يا بني؟

– أنا؟ عن لا شيء.

هل تكلمت؟ أم أن الكلمات كانت قد خرجت مني دون أن ألحظها؟ ذلك لأني وجدت نفسي فجأة مذهولاً تماماً، بقدمين عاريتين فوق فحم متوهج. وبشكل غير متوقع، لم أكن أعرف العيش. تحولت «الحياة» إلى لغة غير مفهومة.

- ما الذي يجري، هل أنت خائف مني؟

لم يتسبب الصوت الرقيق واللطيف إلا بازدياد حالتي غير الواقعية. مررت بيدي على عينيّ كي أمسح دموعي، وأرفع بعدئذ على مهل وجهي لتقييم هذا المخلوق. لكن دوماً بشكل خفي، خشية ألا تقتلع رؤيتها عينيّ إلى الأبد.

- أهذا أنت من كان يحفر حفرة في الحديقة قبل قليل؟

- نعم. مع آخرين. كنا كُثر.

- سمعت أصواتاً ونظرت. لماذا كنت تحفر حفرة؟

- لأجل لا أحد. أقصد، لأجل لا شيء.

استقر نظري من جديد على الشرفة، سعياً لاكتشاف ما حصل للجثة، فقد تناثرت الأوراق دون أن تترك أي أثر. لم يكن على الأرض أي إشارة تدل على أنه قد سُحب، مرّت الغريبة من قربي، شعرت للمرة الأولى برقة عطر أنثوي، ولم تلبث أن ابتعدت باتجاه المخرج. لاحظت الطريقة التي كانت تتحرك بها، بأناقة، دون هذا التمايل المضحك الذي كان نتونزي يقلد به المخلوقات الأنثوية.

- عذراً، هل أنت امرأة حقاً؟

رفعت الدخيلة عينيها المجروحتين من ألم قديم. أخذت من الوقت سحابة، ونزعت غمامة حزن وسألت:

– لماذا؟ ألا أبدو لك أني امرأة؟

– لا أعرف. لم يسبق لي أن شاهدت واحدة في السابق.

كانت هذه هي المرأة الأولى، ومعها تبخرت الأرض من تحت قدميّ. في الأعوام السابقة، شعرت بعشق وشغف نحو النساء، وفي كل مرة كنت أعشقهن، كان العالم يختفي من جديد من تحت قدميّ. شهد هذا اللقاء الأول عمق قوتهن الغامضة في داخلي.

عند شعوري باسترجاع قوتي، تقدمت في الغابة كالغزال. بقيت المرأة البيضاء، المثيرة للفضول، أمام الباب تنظر إليّ. التفت مرة أخيرة على أمل أن تكون قد اختفت، راغباً بألا يتعدى ذلك أن يكون أكثر منهذيان.

عندما التجأت إلى البيت، كان قلبي يطرق بقوة في صدري لدرجة توصلت بصعوبة للنطق بكلمة لحظة رأيت نتونزي:

– نتونزي أنت... أنت لن تصدقني.

– سبق ورأيت. قال وهو مضطرب مثلي.

– ماذا رأيت؟

– المرأة البيضاء.

– أحقاً رأيتها؟

– لا يمكن أن نقول أي شيء لوالدي.

في هذه الليلة زارتني أمي. كانـت تظهـر لـي في الأحـلام دومـاً دون وجه، لكنها ظهرت مـع صـوت الآن. وهـذا الصـوت كـان صـوت ذاك الظهور بانعطافاته وحلاوته. استيقظت وما زلت أشعر بالنعاس لكثرة ما كان هذا الحلم واقعياً. سمعت خطوات في الغرفة: لم يتمكن نتونزي من النوم، فالزيارات الليلية كانت قد انهالت عليه هو الآخر.

– نتونزينو، قل لي، هل كانت والدتي تشبه هذه؟

– كلا.

– لم تستطع النوم، لماذا؟

– عانيت من الأحلام.

– أنت أيضاً، حلمت بأمي؟

– هل تذكر قصة تلك الفتاة التي فقدت وجهها عندما وقعت مغرماً بها؟

– أذكر. وماذا يعني هذا؟

– ظهر لي وجهها في الحلم؟

انطلقت أصوات في الخارج جعلتنا نصمت ونهرع نحو النافذة. كـان هذا زكريا وهو يتحدث مع أبي. خمّنا من حركاته بـأن العسكري كـان ينقل له خبر الظهور. بقينا في مكاننا نراقب، ونحن نرى المرؤوس زكريا وهو يومئ بتمثيل حيّ ما الذي وقع وجرى في البيت المسكون. تغـيرت تعابير وجـه أبـي، وقـال وهـو مـذهول: سـوف نقـوم بزيارتـه، الأرض والسماوات تهتز في أورشليم.

فجأة، نهض سيلفستر واختفى في الليل. تبعناه عن بعد يملؤنا الفضول لاكتشاف ما الذي كان يدور في خلد هذا الرجل الذي كان يتقدم كحيوان جريح. اتجه سيلفستر فوراً إلى الشاحنة وهزّ أبروكزيمادو الذي كان يترنح من النعاس على المقعد الأمامي. ودون أي مقدمات قال:

– ما الذي جاءت تفعله هنا هذه البيضاء؟

– لا يوجد من وصل سواها. لماذا لا تسألني ما الذي جئت أفعله أنا أيضاً هنا؟

مدفوعاً بالعصبية، استدعى أبي زكريا بإشارة من يده. بدا وكأن سيلفستر يريد أن يوشوشه ببعض الكلمات، لكنه لم ينبس ببنت شفة. فجأة، راح يكيل الركلات لأبروكزيمادو بينما كان العسكري يحاول دون جدوى أن يمنع خالنا من أن يُصاب بأذى. بقي الثلاثة هنا يدورون مثل شفرات مكسورة لطاحونة تدور في الهواء. وكي ينهي ذلك، استند أبي على مقدمة السيارة وتنفس بعمق، كما لو كان يرغب في استعادة روحه. كان صوته كصوت المسيح على الصليب عندما سأل:

– لماذا خنتني يا أبروكزيمادو؟ لماذا؟

– لست متعاقداً معك.

– ألسنا من عائلة واحدة؟

– هذا ما أريد أن أسألك إياه.

كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد تجاوز أبروكزيمادو حدوده. بقي والدي صامتاً، يلهث كما جيزابيلا بعد

الهرولة. وهكذا، وهو شبه مرتعد، تأمل أبروكزيمادو الذي كان يُفرّغ من شاحنته مجموعة من الأشياء التافهة: منظار، مشاعل قوية تبدّد الليل، آلات تصوير، مظلات وحوامل.

– ما هذا؟ غزو؟

– لا شيء يستحق الذكر. تحب السيدة التقاط صور مالك الحزين.

– وعلاوة على ذلك فإنك ترد عليّ «لا شيء يستحق الذكر»؟ هل هناك أحد على الأرض يوجد ليصور مالك الحزين؟

لم يكن هذا إلا عذراً إضافياً لانزعاجه. في الحقيقة، وجود البرتغالية وحده كان اقتحاماً لا يطاق. شخص واحد - وهي امرأة فوق كل ذلك - تدمر كل أمة أورشليم. في أقل من لحظات ذهب كل ما بناه سيلفستر أدراج الرياح. في الأخير، كان يوجد هناك فعلاً عالم حيّ، وأحد مبعوثيه كان يسكن في قلب مملكته. ليس هناك وقت لنضيعه: على أبروكزيمادو حزم كل شيء ثانية، ومرافقة الدخيلة.

– أنت، يا صهري، اجلب ليهذه «الفانا»[17] إلى هنا!

ابتسم أبروكزيمادو، بطريقة غبية ومشوشة. كان يبدو كذلك عندما لا يجد الكلمات المناسبة لقولها. تأرجح جسده داخل ردائه ليستعيد الشجاعة ويعطي حجة:

– يا عزيزي سيلفستر نحن لسنا ملاكين.

---

[17]: صبية صغيرة. وهي صفة تعطى للمرأة المغناج. أو بمعنى: الغانية.

– نحن لسنا ماذا؟ حسناً إذن فأنا أملك كل ما يوجد هنا، أنا الكائن الوحيد الموجود في كل هذه المنطقة.

– لا أعرف، لا أعرف... أنت تعرف جيداً إن كان هذا صحيحاً فنحن من يجب علينا أن نغادر من هنا؟

– كيف ذلك؟

– المنزل الذي نشغله هو ملك للدولة.

– أي دولة؟ لا أرى هنا أي أثر لدولة.

– الدولة لا تُظهر نفسها أبداً يا صهري.

– لأجل هذا، ولأجل أسباب أخرى، غادرت هذا العالم حيث الدولة لم تعد موجودة فيه، لكنها تتدخل دوماً كي تأخذ ممتلكاتنا.

– تستطيع أن تذم الدولة، يا سيلفستر، لكنك موجود هنا بطريقة غير شرعية...

– إنها العاهرة التي وضعت في رأسك أن هذا غير شرعي...

من شدة الغضب انقطع صوته. كان يخرج مبحوحاً كقطعة قماش وهي تتمزق قسمين. لم يسبق لنا أبداً وسمعنا صوته بمثل هذا الجرْس. قام والدي بعدة خطوات باتجاه المنزل الكبير وبدأ يصرخ:

– أيتها العاهرة! عليك اللعنة!

كان يسير وهو يقذف بجسده كما لو كانت كلماته حجارة يرميها:

– اذهبي من هنا، أيتها الساقطة!

آلمتني رؤيته وهو يبذل كل هذا المجهود في الفراغ. كان والدي يريد أن يغلق العالم الخارجي على نفسه، لكن لم يكن هناك من أبواب يستطيع من خلالها أن يضع متراساً من الداخل.

كان الوقت فجراً عندما أيقظني أبي وأنا في سريري وهمس بأذني، بصوت هامس:

– لدي مهمة أوكلها إليك، يا طفلي.

– لدي ماذا يا أبي؟ سألت وأنا ما زلت شبه نائم.

– مهمة تجسس. أضاف قائلاً.

كانت المهمة بسيطة وشرحها لي بسطرين: سأذهب إلى المنزل الكبير، وأعبر خلال منخل نافذة البرتغالية. كان سيلفستر يريد أن يجد ضالته في الآثار المثيرة للشبهات لكشف المسارات السرية للمرأة الغريبة. سوف لن يُعهد إلى نتونزي إلا مهمة إلهاء هذه البرتغالية لتبقى بعيدة عن المنزل، زيادة على أني لا أخاف من الظلال ولا من الأشباح. أصلاً، كان قد سبق للبرتغالية وصرفت الأرواح المتألمة، فأشباح السكان الأصليين لا تستطيع التفاهم جيداً مع الغرباء. أكدّ قائلاً.

لاحقاً، في منتصف النهار، تكشفت ممتلكات المرأة بين يدي المرتعشتين. جلت بنظري ويديّ لساعات، بأوراق مارتا. شكلّت كل ورقة جناحاً سبّب لي الدوار أكثر مما سبب الارتفاع.

أوراق المـرأة

ما تحبه الذاكرة هو ابدي.
احبك مع الذاكرة، خالداً.

«أديلا برادو»

أنا امرأة، أنا مارتا، ولا أستطيع الكتابـة. في النهايـة، ربمـا يكـون غيابك مرحباً به. لأن دونه لا يمكن لي أبداً الحصول عليـك،ولا يمكـن لي التوصل إليك. توقفت عن أن يكون لي صوت خاص بي. إن جئـت الآن، مارسيلو، سوف أبقى دون صوت. هاجر صوتـي في جسـد لم يعـد لي. وعندما أصغي إلى صوتي لم أعد أعرف نفسي. وأنا في حالة عشق لا يسعني سوى الكتابة. هذا لا يعود إلى اليوم، فأنـا كنـت دائمـاً هكـذا، حتى في الأوقات التي كنت أنت فيها هنا.

أكتب كما يحرّر العصفور طيرانه: دون أوراق، دون فن الخط، فقـط باستخدام الضوء والسويداء. أكتب كلمات، على الرغم من كونها كلماتي لكنها لم تسكنني قط. أكتب دون أن يكـون لـدي شـيء لأقولـه. لأن لا شيء عندي لأقول عما كنا فيه، ولا عما أصبحنا عليه، لأنـي كما سكان أورشليم، لا أملك ذاكرة ولا ندم: لم يحمل بطنـي الحياة على الإطلاق، ودمي لم يُفتح أبداً على جسد آخر. بهذا الشكل أنا أشيخ: أتبخـر مـن نفسي، كوشاح منسي على مقعد كنيسة.

لم أحب سواك، مارسيلو. قادني الإخلاص لهـذا العشق إلى أقسى منفى: أبعدني هذا العشق عن القدرة عن الحب.الآن، بين كل الأسماء، لم يبق لي إلا اسمك. منه وحده يمكن لي أن أطلب ما سبق وطلبته منك في الأيام الماضية: أن تجعلني أولد. فأنا بحاجة شديدة لأن أولد! أولـد كـامرأة أخـرى، امـرأة بعيـدة عـني، بعيـدة عـن عصـري. أنـا مرهقـة مارسيلو، مرهقة لكن لست خاوية. الخواء يتضمن جوفـاً، وأنـا فقـدت جوفي.

لماذا لم تكتب لي أبداً؟ ليس عدم قراءتـك هـو مـا يجعلـني في أمسّ الحاجة إليك، إنما صوت السكّين وهي تمزق المغلف الذي يحتوي على رسالتك. هو شعوري بروحي تُداعَب من جديد، كما لو كـان أحـدهم في مكان ما، يقص حبل السرة. غلطتي: لم يكن هناك لا سكين ولا رسالة. ولادة لـ لا شيء ولـ لا أحد.

أرأيت كم أصبح طفلةً صغيرة عنـدما أكتـب إليـك؟ لهـذا السـبب لا أستطيع أن أكون شاعرة. يخرج الشاعر عظيماً من الغياب، كما لو كان الغياب معبده، يصبح أكبر من الكلمـة. هـذه ليسـت حـالتي، الغيـاب يتركني مغمورة، سجينة نفسي.

هذه معضلتي: لحظة تكون هنا لا يعود لي وجود، أصبح مجهولـة. عندما لا تكون هنا لم لا أعود أتعرف على نفسي، وجاهلة. أنا لا وجود

لي إلا بحضورك. الآن، عرفت. أنا لست أكثر من كلمة. اسم لا يضيء إلا بفمك.

هذا الصباح تأملت النيران المشتعلة من بعيد. من الجهة الأخرى من النهر، كانت مسافات شاسعة على وشك أن تهدر في غمضة عين. لم تكن الأرض هي من يتحول إلى لهب، لكن الهواء نفسه هو الذي يحترق، السماء بكاملها كانت تُلتهم من قبل الشياطين.

لاحقاً، عندما هدأ اللهب، لم يعد هناك سوى بحر من رماد أسود. بغياب الهواء، كانت جسيمات تتطاير كيعاسيب سوداء على حقول الـ Capim[18] المتفحمة. كان يمكن لهذا أن يصبح ديكوراً لنهاية العالم، لكن بالنسبة إليّ كان الأمر معكوساً: كان هذا ولادة الكون. اجتاحتني رغبة في أن أصرخ باسمك: مارسيلو!

هذه الصرخة، صرختي أنا، كانت تُسمع من بعيد. في هذا المكان، الصمت وحده هو ما كان يُسمع صداه بشكل قاطع. إن وُجد مكان أستطيع فيه الولادة من جديد، لكان هو هذا المكان، هنا، حيث أقصر لحظة كانت تشفي غليلي. أنا امرأة كما السافانا: أحترق كي أعيش، وأموت غرقاً كي أروي عطشي.

– ما هذا؟

---

[18] :Capim: وهي نوع من الأعشاب الطويلة.

في المحطة الأخيرة قبل وصولي إلى أورشليم، سألني أورلاندو (الذي يجب أن أتعود على مناداته بأبروكزيمادو) عندما أظهرت له اسمي على غلاف مجلتي:

– ما هذا؟

– ما هذه. صححت له قائلة.

كان يجب أن أقول له بأن هذا اسمي مكتوب على غلاف مجلتي. لكن لا. قلت هذه أنا، كما لو كانت حياتي كلها، وكياني كله قد اختزل إلى خمسة أحرف. هذا ما كنت عليه، مارسيلو: أنا كلمة، في الليل تكتبني، وفي النهار تمحوني. كل يوم هو عبارة عن ورقة تمزقها، أنا ورقة تنتظر يدك، الحرف الذي ينتظر أن تداعبه عيناك.

في أورشليم، ما أثار إعجابي فوراً كان غياب الكهرباء. لم يسبق لي أبداً في الماضي أن شعرت بالليل، لم يسبق له أن عانقني أبداً، عناقاً من الداخل لدرجة تحولت أنا نفسي إلى ليل.

جلست هذا المساء على المصطبة تحت السماء المتلئة نجوماً. هل قلت تحت السماء؟ لا، بل لأقل في السماء. كانت قبة السماء في متناول يدي، أتنفس ببطء خوفاً من إزعاج كوكبة النجوم.

كانت رائحة البترول التي تشعل المصباح هي المرساة الوحيدة التي تربطني بالأرض. كل ما عداه كان بخاراً غير مقروء، ذا رائحة غير معروفة، وملائكة تدور من حولي.

لا شيء يوجد قبلي، أنا أفتتح العالم، والأنوار، والظلال. وأكثر من ذلك: أصل الكلمات. هذه أنا من تجعلها أبدية، هذه أنا من ستقدمها هدية، مبتكرة من لغتي الخاصة.

كل هذا، مارسيلو، يذكرني بليالينا في ليزبون. كنت تنظر إليّ بينما كنت، وأنا على السرير، أطلي جسدي بمستحضرات التجميل. كنت تشتكي وتقول بأن هناك الكثير منها: مستحضر للوجه والرقبة واليدين وحول العينين. كان قد تم اختراعها كما لو كل جزء من جسدي موجود بشكل منفصل، وهم يقومون بتغذية جماله الخاص به. بالنسبة لبائعي مواد التجميل، لم يعد يكفي أن يكون لكل امرأة جسدها. كل واحدة منا يوجد لديها أكثر من جسد، متواجدين باتحاد مستقل. كنت هذا ما تقوله وأنت تحاول ردعي.

مسكونة بالخوف من الشيخوخة، تركت علاقتنا تشيخ. مشغولة كي أغدو جميلة، تركت الجمال الحقيقي الذي يتواجد فقط في النظرات التي تعري، يفر. امتلأ الغطاء تعاسة، وغطت البلية السرير. إليك الفرق: المرأة التي قابلتها أنت هنا في أفريقيا لم تكن جميلة إلا لأجلك. أما أنا، فقد كنت جميلة لأجل نفسي، أو لنقل: لأجل لا أحد.

هذا ما تملكه سوداوات البشرة ولا نملكه نحن على الإطلاق: إنهن يحتفظن دوماً بالجسد كاملاً، يسكنّ كل جزء من جسدهن، كل الجسد هو امرأة، وكل أوقاتهن هي أنثوية. ونحن، البيضاوات، نعيش في انتجاع غريب: أحياناً جسد وأحياناً روح. نرضى بالخطيئة كي نهرب

من الجحيم. نستنشق جناح الرغبة كي نعاود السقوط بعد ذلك في ثقل الإثم.

مذ وصلت إلى هنا، توقفت فجأة عن الرغبة في إيجادك. إنه لشعور غريب. أنا التي سافرتْ وهي تحلم بالحصول عليك ثانية. لكن وأنا في طريقي إلى أفريقيا، قام هذا الحلم بانعطافةٍ مفاجئة. ربما أكون قد انتظرت وقتاً طويلاً. أثناء هذا الانتظار، تعلمت أن أحب الألم الكامن في حنين السويداء. أتذكر أبيات شعر لشاعر يقول: «ما جئت إلى هذا العالم إلا لأجل الحسرة». وحده الغياب من سكن داخلي، أمام منظر هذه البيوت التي لا تبرهن إلا عن خلائها. كما هذا المنزل الذي أسكنه الآن.

ألم فاكهة كانت قد سقطت للتو، هذا ما أشعر به. الإعلان عن البذار، هذا ما أنتظره. كما ترى، عليّ أن أتعلم من الشجرة والتربة، من الزمن والأبدية.

– تشبهين الأرض. هنا يكمن جمالك.

هذا ما كنت تقوله. وعندما كنا نقبّل بعضنا، ينقطع نَفسي، وبين آهتين أسألك: في أي يوم ولدتَ؟ كنت تجيبني بصوت راجف: ولدت الآن. وتصعد يدك بين ساقي من جديد: أين ولدت؟ تجيب بصوت خافت: ولدت فيك يا حبي. هذا ما كنت تقوله. كنتَ شاعراً، مارسيلو، وكنتُ قصيدتك. ما كنت تكتبه إليّ، ما كنت تقصه علي، كان من الجمال بحيث كنت أتعرى كي أقرأ رسائلك. لا يمكن لي

قراءتك إلا وأنا عارية، فليست عيناي من يستضيفك إنما جسدي بكامله، سطراً سطراً، من جميع مسام بشرتي.

عندما كان أبروكزيمادو يسألني بشكل دائم ونحن في المدينة عمن أكون، كان ينتابني الإحساس بأني أبقى أتحدث الليل بطوله. حكيت كل شيء عنّا، تقريباً عنك، مارسيلو. بوصولي إلى نقطة معينة، ربما جراء التعب، شعرت بأن حكايتي الخاصة أدهشتني أنا بالذات. هنا تكمن فتنة الأسرار، خُلقت الأسرار كي تُكشف. كشفت عنها لأني لم أعد أتحمل العيش دون فتنة.

– أتدرين يا دونا مارتا: السفر للمحمية هو أمر خطير جداً.

لم أجب. لكن الحق يقال، لم يكن السفر يهمني إلا كي أجتاز الجحيم، كي أجعل روحي تمر عبر اللهب.

– تكلمي عن هذا المدعو مارسيلو، زوجك.

– زوج؟

كنت معتادة على ذلك: تشرح النساء لأنفسهن وهن يتكلمن عن رجالهن. حسناً، هذا أنت مارسيلو الذي شرح للآخرين، وحوّلتني كلماتك إلى مجرد كائن بسيط يمسك به صوت رجل واحد ووحيد.

– في السنة الماضية قام مارسيلو برحلة إلى أفريقيا.

عاد كمن يتوهم بأنه قد عاش بكامله في مكان هو اغتراب كامل عن السويداء. بقي هناك شهراً وعاد غريباً بالكامل. ربما لقاؤه بالأرض كان هو السبب الذي هزّ كيانه. كان قد قاتل كجندي في الموزامبيق في

سنوات سابقة. كان يعتقد بأنهم أرسلوه ليقتل في أرض غريبة. لكنه كان موجوداً كي يقتل أرضاً بعيدة. في هذه العملية الميتة، انتهى الأمر بمارسيلو إلى أن يولد كشخص آخر. لاحقاً، بعد خمسة عشر عاماً، كان يريد معاودة رؤية هذه الولادة وليس الأرض. ألححت عليه بعدم الذهاب إلى هناك. كان يراودني حدس غريب تجاه هذا السفر. لا يمكن لنا زيارة أي ذاكرة. والأخطر: هناك ذكريات لا نجدها سوى بالكلمات.

تكلمت عن كل هذا مارسيلو، لأن كل هذا كان يجعلني أتعذب كما لو كان ظفراً ينمو بشكل منحرف. كنت أحتاج لأن أتحدث، أن أقضم هذا الظفر حتى النخاع. لا تعرف كم جعلتني أموت، مارسيلو. رجعت من أفريقيا، لكن جزءاً منك لم يرجع أبداً. كنت تغادر البيت كل يوم وتتسكع في الطرقات كما لو كنت تجهل كل شيء عن مدينتك.

– هذه المدينة لم تعد لي؟

هذا ما كنت تقول. الأرض تعود لنا كشخص يمكن أن ننتمي إليه، دون أن نكون قد امتلكناه أبداً. بعد عدة أيام من عودتك، وجدت صورة فوتوغرافية في الجزء السفلي من الدرج الخاص بك. كانت صورة امرأة سوداء. شابة وجميلة، بعينيين عميقتين تتحديان الكاميرا. كانت هناك ملاحظات بخط صغير على ظهر الصورة: رقم هاتف. مكتوب بشكل مصغّر، وقد بدا وكأنه خط مشطوب. لكنه لم يكن غير هاوية حيث أعود لأسقط فيها في كل لحظة.

كان دافعي الأول هو أن أقوم بالاتصال. أعدت النظر في الأمر، ماذا يمكن لي أن أقول؟ وانتابني فجأة غضب لا يمكن السيطرة عليه. أدرت الصورة كما لو كنت أدير جثة لا نريد أن نرى وجهها.

- خائن، أتمنى لو تموت بمرض السيدا وبالقمل.

أردت أن أعاملك بقسوة مارسيلو، أردت أن أسجنك، وأربطك بسلاسل غضبي. لا يهم إن كان هناك حب أم لم يكن. في الليالي اللاحقة كان انتظاري أرقاً لا ينتهي. كنت أنتظرك لتأتي كي نتكلم، لكنك وصلت خاوياً جداً لتستمع. ستكون حالك أفضل في الغد. لكن في الغد، اتصلت بي من المطار لتقول بأنك مغادر إلى موزامبيق. للمرة الأولى يصبح فيها صوتي غريباً عني. قلت لك: «اذهب لتنام...» فقط هذه الكلمات. بينما في الحقيقة كنت أحب لو قلت لك: «اذهب لتنام مع نسائك السوداوات البشرة مرة واحدة وإلى الأبد...» يا إلهي، كم خجلت من غضبي، ومن الطريقة التي جعلتني فيها تافهة.

بقيت في ليزبون، منهكة من جزئي الذي ذهب معك. مفارَقة محزنة، كانت عشيقتك هي التي رافقتني أثناء غيابك. على طاولة السرير، كانت صورة تلك المرأة تحدق بي. كنا نحن الاثنتين نتبادل النظرات ليل نهار، كما لو كان هناك رابط غير مرئي يوحدنا منذ الأزل. أحياناً، كنت أتمتم لها بقراري:

- سوف ألحق به...

عندئذ كانت العشيقة السوداء تنصحني قائلة: «لا تذهبي!» اتركيه يغوص وحده في الوحل. كنت مقتنعة من تعذر ما يمكن إصلاحه: كان زوجي قد اختفى إلى الأبد، ضحية عمل من أعمال أكلة لحوم البشر، كما يحدث للمسافرين الذين يذهبون إلى أفريقيا المتوحشة. كان مارسيلو قد التُهم، مبتلعاً من فم ضخم، فمٌ بمقاس الكون كله. مبتلعاً من قبل ألغاز قديمة. من الآن فصاعداً، لم يعد هناك متوحشون إنما سكان محليون. ويمكن للسكان المحليين أن يكونوا جميلين. الرجال البيض البشرة، الذين كانوا في السابق جلادين ويخشون من أن يُلتهموا، يريدون الآن أن يتم امتصاصهم، ويتم التهامهم من قبل الجمال الأسود.

هذا ما كانت تقوله لي عشيقتك. كم مرة غفوت على صورة مع هذا المنافس الذي كان يقضّ مضجعي، وأنا أغمغم في كل مرة بين أسناني: نساء ملعونات! دون أن استسلم لظلم قدري. كرست نفسي طيلة سنوات لأدوات الزينة، للحمية الغذائية، للرياضة، كنت أعتقد بأن تلك هي الطريقة التي أستطيع فيها الاستمرار في نيل إعجابك. لم أفهم إلا الآن أن الإغراء في مكان آخر. دون شك في نظرة. وغدت نظرتي النارية خاملة منذ زمن.

وأنا أتأمل الحرائق في السافانا، أصابني حنين لهذا التبادل الوهاج، لانعكاس انبهاري بمارسيلو. الانبهار، بكل ما تعني الكلمة، يجب عليه أن يعمي، أن يزيل الضوء. وفي الأخير، كنت أتطلع إلى قتامة. كنت أعرف هذا الهذيان الذي سبق أن شعرت به عندما تعاطيت

المورفين، الذي يجعلنا مدمنين. الحب هو مورفين. يمكن لنا تسويقه مغلفاً تحت اسم: **آمورفين**[19].

تقول المجلات «النسوية» بأنهم يبيعون وصفات وأسراراً وتقنيات، كي يعشق المرء أكثر وأفضل. في البداية، ركبت موجة هذا الهذيان. كنت أريد استعادة مارسيلو وكنت منفتحة على أية خرافة كانت. اليوم أعرف: فمن الحب، عدم المعرفة هو ما يهمني، ترك الجسد بمعزل عن التفكير،في حالة من الاسترخاء التام. مجرد امرأة في المظهر، تحت لافتة: بهيمة، حيوان متوحش، حِمم.

السماء بكاملها تناديني مارسيلو. تقول لي «سوف أعد النجوم» وتلمس كل بقعة من بقع النمّش التي على جسدي. تزود أصابعها كتفيّ بالنقط والفواصل، وتنتقل لظهري وصدري. كان جسدي صفحة سماء مارسيلو، ولم أتمكن من الطيران بعيداً والتخلي عن هذا الخدر في لائحة النجوم. لم أكن أشعر قط بالارتياح في ممارسة الجنس. كان، فلنقل، منطقة غريبة، لغة مجهولة. كان خجلي أكبر من مجرد حياء، كنت مترجمة صماء، غير قادرة على تحويل الرغبة إلى حركات تعبر عما في داخلي. كنت السنّ المسّوس في فم أفعى.

---

[19]: وتأتي من كلمة حب بالفرنسية amour: أي طيف الحب .Amour fine (المترجم)

وأعود إلى طاولة السرير خاصتي كي أنظر مواجهة في وجه عشيقتك السوداء. نظرتها تلك، التي أثناء التقاط الصورة، هي التي غاصت في عينيّ زوجي. نظرة مضيئة كما نور مدخل منزل. ربما يكون هذا ما يسمى بالنظرة الباهرة، ربما هذا هو الجنس الذي كان مارسيلو يرغب فيه دوماً. إنه ليس الجنس في النهاية، إنما أن يشعر بأنه مرغوب، وإن في صورة زائفة موجزة.

تحت السماء الأفريقية، عدت لأصبح امرأة من جديد. الأرض، الحياة، والمياه لها صفة أنثوية. إنما ليست السماء[20]، فللسماء صفة ذكورية. أشعر بأن السماء تلمسني بكل أصابعها. أغفو تحت تأثير مداعبات مارسيلو، وأسمع من بعيد، التناغم البرازيلي لـ شيكو سيزار:

«ce você olha para mim eu me derretosuave, neve num vulcao....[21]»

أريد العيش في مدينة يحلم سكانها بالمطر. في عالم حيث المطر هو السعادة الكبرى، وحيث نُمطر جميعاً.

هذه الليلة أنهيت طقسي المعتاد: خلعت ملابسي كي أقرأ رسائلك القديمة مارسيلو. يكتب حبيبي بعمق بالغ بشكلٍ أشعر معه بذراعه أثناء

---

[20]: Le ciel : السماء في اللغة الفرنسية اسم مذكر. (المترجم)

[21]: Chico César: مغني برازيلي، أشهر أغنياته «ماما أفريقيا» وهذا مقطع من أغنية شهيرة له تقول: «إن نظرت إليّ، أذُبُ ببطء، كثلج في بركان...».

قراءتي وهي تلمس جسدي، كما لو كان ثوبي يُفتح وتتساقط ثيابي تحت قدميّ.

- أنت شاعر، مارسيلو.

- لا تقولي هذا أبداً.

- ولماذا؟

- القصيدة هي عبارة عن مرض قاتل.

كان مارسيلو يغفو فوراً بعد ممارسة الجنس. يثني وسادته بين ساقيه ويغط في النوم، وأبقى أنا وحيدة، ساهرة، أجتر الوقت. في البداية كنت أرى في تصرف مارسيلو علامة على الأنانية غير المحتملة. ثم، وبعد زمن طويل، فهمت. لا ينظر الرجال إلى النساء اللواتي مارسوا الجنس معهن للتو لأنهم يخافون. يخافون مما يمكن أن يجدوه في أعماق عيونهن.

أمــر بالإخــلاء

لم أعد خائفة من نفسي، الوداع.

«أندريا برادو »

أحرقتُ أوراق مارتا يديّ. أعدت ترتيبها بطريقة لا يُستدل من خلالها بأني قد انتهكت حرمة الحميمية التي تشملها. عدت إلى بيتي وروحي مثقلة. نحن نخشى الله لأنه موجود، ونخشى أيضاً الشيطان أكثر لأن لا وجود له. ما زاد من رعبي حالياً لم يكن الله ولا الشيطان. كنت قلقاً، نعم، قلق من رد فعل سبيلفستر عندما سأقول له إني لم أجد في غرفة البرتغالية سوى بعض الرسائل الغرامية.

كان عجوزي ها هنا، واقفاً على الباب بانتظاري، ويداه على وركيه، وصوته مشحون بالقلق:

– تقرير! أريد تقريراً. ما الذي وجدت ضمن حاجيات الـ tuga[22]

– لا شيء سوى الأوراق. فقط.

– وماذا كُتب في هذه الأوراق؟

– أنسيت بأني لا أعرف القراءة؟

---

[22]: Tuga : تدل هذه الكلمة في الأصل على جندي في الجيش البرتغالي، لكن تجاوزاً، أصبحت تدل على أي شخص أبيض البشرة.

- هل جلبت بعضاً من هذه الأوراق معك؟

- كلا. في المرة القادمة...

لم يدعني أكمل جملتي. غادر المطبخ كي يعود من جديد ساحباً نتونزي من ذراعه.

- اذهبا كلاكما عند البرتغالية وانقلا لها أمري.

- أي أمر يا أبيَ؟ سأل نتونزي.

- وهل تجرؤ أن تسأل؟

كان الأمر بأن نجعلها تعود للمدينة. وبأن نكون مختصرين في كلامنا وفظين. يجب على «التوغا» أن تتلقى الرسالة دون أي تسوية.

- صرخ قائلاً: أريد هذه المرأة بعيداً، خارجاً، وبلا عودة.

نظرت إلى نتونزي، وهو جامد، وكأن أبي يقوم بتكريمه. في أعماقه، لا بد وأنه كان يغلي من الغيظ. لكنه لم يتفوه بحرف، ولم يعترض على شيء. بقينا على ذي الحال في انتظار استعادة سيلفستر خطابه. جعلنا صمت أبيَ صامتين نحن الاثنين. وهكذا كنّا، مذعنين ومثبطين. ونحن في منتصف الطريق سألت نتونزي: هل ستطرد البرتغالية؟ كيف ستقول لها ذلك؟

قام نتونزي بإشارة نفي برأسه. كان قطبا المستحيل يتلامسان لديه: فهو لا يستطيع أن يطيع، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يتجاوز الأمر. كي ينتهي من هذا الإشكال قال:

- اذهب وتحدث إليها.

وأدار ظهره. تابعت طريقي متصلباً كمن يمشي في موكب جنازة باتجاه البيت الكبير. وجدت الدخيلة جالسة على الدرج مع محفظة عند قدميها. ألقت عليّ التحية بحرارة،وحدقت في السماء كأنها على وشك الطيران. كنت آمل أن أسمعها تقول أشياء تشبه تلك الرقة التي زارتني في الأحلام. بيد أنها بقيت صامتة، بينما كانت تسحب من محفظتها ما عرفت ماهيته لاحقاً، والذي كان عبارة عن آلة تصوير. أخذت لي صورة، وهي تتأمل جوانباً من روحي المجهولة حتى لنفسي. ثم، سحبت من الجَيب جهازاً معدنياً صغيراً، وضعته على أذنها ثم أعادته إلى مكانه من جديد.

– ما هذا؟

شرحت لي بأنه جهاز هاتف محمول ولماذا يُستخدم. على أي حال، في أورشليم، لم تكن لهذا الجهاز أية فائدة.

– قالت وهي تشير إلى الجهاز: دونه، أشعر بأني ضائعة. يا إلهي، كم أنا بحاجة للتحدث مع أحد...

غشي عينيها حزن عميق. بدت على وشك الانخراط في البكاء. لكنها أمسكت نفسها، ويداها تلاطفان عينيها. وبعد فترة أصبحت بعيدة. بدت لي بأنها تردد اسم مارسيلو، إنما برقة شديدة وبصمت بشكل كانت تبدو فيه بالأحرى كأنها تقيم صلاة لأجل الموتى. وببطء، عادت لترتب كل شيء في محفظتها. في النهاية سألتْ:

– أين بالعادة يمكن لمالك الحزين أن يمر هنا؟

– يوجد الكثير منه في السبخات، قلت.

– هل تأخذني إلى هناك عندما يصبح الطقس معتدل الحرارة؟

أجبت بنعم بإشارة من رأسي. لم أحدثها عن التماسيح التي كانت تراقب شواطئ البحيرات. كنت أخشى أن تتراجع عن قرارها بالتنزه. في هذه اللحظة، بدأت بنشر الكريم على جسدها. مدفوعاً بالفضول، فاجأتها بسؤالي:

– هل تريدين أن أذهب لأجلب لك دلواً من الماء؟

– الماء؟ ولماذا؟

– ألست على وشك الاغتسال؟

فجأة انكسر الحزن داخلها: انفجرت البرتغالية بالضحك. تغتسل؟ إنها تدهن مستحضر الواقي الشمسي، هذا ما كانت تفعله. فكرت أيضاً بأنها أمراض لربما كانت قد أُصيبت بها. لكن لا. قالت المرأة بأن الشمس مسمّمة في أيامنا هذه.

– ليس هنا يا سيدتي، ليس في أورشليم.

استندت البرتغالية على عارضة خشبية، أغلقت عينيها وراحت تدندن. من جديد، فرّ العالم مني. لم يسبق لي قط أن سمعت لحناً عذباً من شفاه بشرية. كنت قد سمعت العصافير، نسمات الهواء والأنهار، لكن لا شيء من هذه الأصوات كان يشبه هذه النغمة. دون شك، وكي أهرب من هذه الهدهدة، حاولت أن أفهم:

– اعذريني، لكن هل أنت عاهرة أيضاً؟

- ماذا؟

- عاهرة، عدت لأقول بصعوبة.

اعترتها الدهشة في البداية، ثم وهي مستمتعة، حنت المرأة رأسها كما لو كانت أفكارها تثقل عليها، وفي النهاية أجابتني وهي تتنهد:

- ربما أكون، من يدري؟

- يقول أبي بأن كل النساء عاهرات...

بدت لي وكأنها تبتسم. ثم، نظرت إليّ بحدة وهي تنهض وبعينين نصف مغلقتين هتفت:

- أنت تشبه أمك.

حدث في داخلي ما يشبه الفيضان، انتشرت رقة صوتها وغطّت روحي بالكامل. احتجت لبعض الوقت لأتساءل: هل تعرف هذه الغريبة دوردالما؟ متى وأين التقت المرأتان؟

- أطلب منك العفو، لكن سيدتي...

- ناديني مارتا.

- نعم سيدتي.

- أنا أعرف قصة عائلتك لكن لم يسبق لي أبداً أن قابلت دوردالما. وأنت، هل تعرف والدتك؟

طأطأت رأسي بالبطء الذي سمح لي فيه الحزن ليصطدم بصدري.

- هل تذكرها؟

- لا أعرف. يقول الجميع أن لا.

كنت أريد أن أطلب منها بأن تغني ثانية. لأنه في هذه اللحظة استولى عليّ شبه يقين بأن مارتا لم تكن مجرد زائرة: إنها مبعوثة. كان زكريا قد خمّن قدومها. افترضت في هذه اللحظة ما يلي: ربما مارتا هي أمي الثانية، جاءت كي تعيدني إلى البيت. ودوردالما، أمي الأولى، كان ذاك البيت.

كانت الظلال قد انخفضت للتو عندما رافقت مارتا إلى بحيرة مالك الحزين. ساعدتها في تهيئة أدوات التصوير خاصتها، وولجت في الطرقات الأقل انحداراً كي ننزل إلى الخط الساحلي. من وقت لآخر، كانت تقف في منتصف الطريق، وترفع يديها إلى رقبتها لتجمع شعرها، كما كي تتحاشى أن يغشى بصرها، ومن ثم تحدق من جديد في القبة الزرقاء. تذكرت أبروكزيمادو وهو يقول: «من يبغِ الأبدية ينظر إلى السماء، ومن يرِد اللحظة ينظر إلى الغيوم». كانت الزائرة تريد كل شيء، سماءً وغيوماً، عصافير وأبدية.

– يا للضوء الساطع، كانت تردد بابتهاج.

– ألا تخشين بأن تكون سامة؟

– لا تتصور كم أنا بحاجة إلى هذا الضياء الآن...

كانت تحكي كما لو أنها تصلي. بالنسبة إليّ كان النور الساطع هو ذاك الذي ينتشر من لفتاتها. لم يسبق لي أن رأيت في مكان آخر شعراً أملسَ وبراقاً بهذا الشكل. لكنها كانت تتحدث عن شيء كان موجوداً

على الدوام ولم أكن قد لاحظته قط: الضوء الذي ينتشر ليس من أشعة الشمس لكن من الأماكن نفسها.

– هناك، شمسنا لا تحكي.

– أين هو «هناك» مدام مارتا؟

– هناك في أوروبا. هنا أفريقيا. هنا الشمس تئن، توشوش، تصرخ.

– صلّحت لها بلطف: مع ذلك، الشمس تبقى هي الشمس دوماً.

– أنت مخطئ. هناك، الشمس حجرة. هنا الشمس ثمرة.

كانت كلماتها غريبة حتى ولو كانت تُقال باللغة نفسها. لغة مارتا لها أصول أخرى، جنس آخر، وملمس آخر. مجرد سماعها كان يشكل بالنسبة إليّ نوعاً من الهجرة من أورشليم.

في لحظة ما طلبت مني البرتغالية بأن ألا ألتفت: خلعت قميصها وتركت تنورتها تسقط ثم ذهبت لتسبح في ملابسها الداخلية. وأنا أدير ظهري إلى النهر، رأيت نتونزي يختبئ في الدغل. بإشارة منه أوحى إليّ بأني أغشّه. من مخبئه كان أخي يلتهم بعينيه ويستمتع. وكانت تلك أول مرة أرى فيها وجه نتونزي يختفي في اللهب.

للحال تكهن أبي بأننا لم نتبع تعليماته. وأمام دهشتنا، لم يغضب. هل كان يتفهم أسبابنا التي يمكن الدفاع عنها، وهل سيعذر تحولنا، كمجرد غيوم تغطي أشعة الشمس؟ ذهب ليرتدي ثيابه بشكل لائق، بنفس ربطة العنق الحمراء التي كان يضعها أثناء زياراته لجيزابيلا،

وذات الحذاء الأسود، ونفس قبعة اللباد. أمسك كل واحد منا بيد وجرّنا حتى المنزل المسكون. طرق الباب وما إن ظهرت البرتغالية حتى قال بلهجة من يريد أن يحارب:

- للمرة الأولى يعصى أولادي أوامري...

نظرت إليه المرأة بسكينة وانتظرت أن يتابع. غيّر سيلفستر من نبرة صوته، مصححاً من عدوانيته الأولية:

- أطلب منك الإذن. بالنسبة إليّ ولولديّ الشرعيين.

- ادخلوا. ليس لدي كراسٍ.

- لن نبقى، سيدتي.

- أدعى مارتا.

- أنا لا أنادي امرأة باسمها.

- كيف تناديها إذن؟

- ليس لدي الوقت كي أناديك على الإطلاق. لأنك سوف ترحلين من هنا.

- اسمي أيها السيد ماتوس فينتورا هو كاسمك: نوع من الداء الولادي المنشأ...

عند سماعه لاسمه القديم، شعر والدي كمن تلقى ضربة سوط. شدّت أصابعه الممتدة كما قوس نشاب على يدي.

- لا أدري من الذي قال لك، لكن هذه غلطة، سيدتي، لا يوجد من يدعى فينتورا هنا.

- سأرحل، لا تقلق. السبب الذي جئت من أجله إلى أفريقيا قد انتهى.

- وما الذي أتى بك إلى هنا، هل لي أن أعرف؟

- جئت للبحث عن زوجي.

- أسألك سيدتي، هل أتيت من آخر الدنيا كي تبحثي عن زوجك؟

- نعم، هل ترى بأن هذا قليل؟

- لا تذهب امرأة للبحث عن زوجها. المرأة تكتفي بالانتظار.

- إذن، إن كان الأمر على هذه الحال، فأنا لست امرأة.

وأنا أشعر باليأس، نظرت إلى أخي. صرّحت الغريبة بأنها ليست امرأة! هل كانت تقول الحقيقة مكدرّة بذلك الشعور الأمومي الذي أوحته لي؟

- قبل أن أسافر استعلمت عن قصتك. أكدت مارتا قائلة.

- لا يوجد أي قصة، أنا موجود هنا لإجازة قصيرة، هذا المكان هو ملجئي الحصري...

- أنا أعرف قصتك...

- القصة الوحيدة يا سيدتي العزيزة، هي قصة رحيلك، وعودتك إلى المكان الذي أتيت منه.

- أنت لا تعرفني، لا يوجد إلا الزوج من يستطيع أن يحرك المرأة... في الحياة، هناك أنواع أخرى من الحب...

هذه المرة، رفع أبي يده وبشكل حازم كي يقاطعها. إن كان هناك شيء يشعر نحوه بالحساسية فهي قصص الحب. الحب، هو المنطقة التي لا يمكن السيطرة عليها. وهو قد قام بإنشاء زاوية يمكن أن يحكمها بالطاعة.

- هذه المحادثة ستستمر طويلاً. وأنا كبير في السن يا سيدتي. كل لحظة ضائعة تعني لي فقدان حياة بأكملها.

- ما جئت لتقوله لي إذن، قد وصل.

- لا شيء آخر، قلتِ بأنك هنا للبحث عن أحدهم. إذن بوسعك الرحيل لأنه لا يوجد أحد هنا...

- عزيزي فينتورا، أستطيع أن أقول لك شيئاً واحداً: لست الوحيد الذي حدث وابتعد عن العالم

- أنا لا أفهم...

- وإن قلت لك بأن كلانا هنا للسبب نفسه؟

من المؤلم أن يكون المرء شاهداً. هي امرأة، امرأة بيضاء البشرة، وكانت تمارس السلطة على عجوزي، كاشفة هشاشته كأب وكرجل أمام ولديه.

استأذن سيلفستر وانسحب. لاحقاً، شرح لنا بأن أعصابه في حالة غليان يفيض بالفعل، كحمم بركان. عندما أنهى محادثته علّق قائلاً:

- النساء كالحروب: يحولون الرجال إلى حيوانات.

بعد المواجهة مع الغريبة لم ينم أبي فوراً. كان يتلوى من الكوابيس، وكنا نسمعه بين هتافات غير مفهومة ينادي إما أمي أو الأتان:

– آلمينها! جيزابيلا!

في اليوم التالي كان محموماً. كنت وأخي نقف حول سريره. لم يكن سيلفستر ليتعرف علينا حتى.

– جيزابيلا؟

– بابا، هذا نحن، أولادك.

نظر إلينا بتعاطف، وابتسامة ثابتة على وجهه، بنظرة ضعيفة كما لو أنه لم يسبق أن رآنا على الإطلاق. بعد فترة، وضع يده على قلبه وبدا كأنه يدعم صوته كي يخرج. وهو يؤنبنا قائلاً:

– أتريدون، ألا تريدون؟

– نحن لا نفهم. قال أخي.

– هل تريدون الاعتناء بي؟ هذا ما تريدونه، رؤيتي منهاراً، ودفني وأنا أعاني من هذا الضعف؟ حسناً إذن، لن أمنحكم هذه السعادة...

– لكن يا أبي نحن نرغب فقط في مساعدتك...

– اخرجا من غرفتي ولا تعودا أبداً، حتى لأجل حمل جثتي...

خلال أيام، بقي أبي ينازع في غرفته، وكان خادمه الأمين، زكريا كالاش، يظل طوال الوقت إلى جانبه.

جاءتنا تلك الأيام من العناية الإلهية كي تقربنا من مارتا. كانت تتحول أكثر فأكثر إلى والدة بالنسبة إليّ. بينما كان نتونزي يحلم بها كامرأة. ظهر الشبق واضحاً عند أخي: كان يحلم بأنها عارية، فيخلع ثيابه بانفعال ذكوري، لكن الثياب الداخلية للمصورة الفوتوغرافية كانت

تفشل على أرض الواقع. كان لطفها هو ما أحبه فيها. تكتب، منحنية كل يوم فوق أوراقها، تُصلّح من خطها. مثلي، كانت مارتا غريبة عن العالم. كانت تكتب ذكريات، وكنت ألتزم الصمت.

في الليل، كان أخي يتباهى بالتقدم الذي يحرزه في قلب مارتا. كان يشبه أحد الجنرالات وهو يتلو تعليماته فوق الأراضي التي غزاها. كان قد رأى نهديها، فاجأ حميميتها برؤيتها بالجرم المشهود، ورآها عارية بالكامل وهي تغتسل. سوف لن يتأخر بالاستيلاء على جسدها. متحمساً من هذه اللحظة الذهبية العظيمة انتصب أخي على سريره وصرخ:

– إما أن يكون الله موجوداً، وإما أنه سيخُلق للتو!

هذه الفقرات كانت كقصص الصيادين: لا يمكن أن يقصها المرء بشكل جيد إلا إن بالغ أو كذب فيها. مع ذلك، في كل واحة من قصصه كنت أشعر بنفسي منزعجاً، مجروحاً ومُخاناً. على الرغم من معرفتي بأن كل هذا عبارة عن رغبات أكثر منها حقيقة، كانت أكاذيب نتونزي تشحنني غضباً. للمرة الأولى كانت هناك امرأة في حياتي، ودوردالما المتوفاة هي من أرسلت هذه المرأة كي تعتني بما تبقى من طفولتي. شيئاً فشيئاً، أصبحت الغريبة أمي، بما يشبه الدورة الثانية للوجود.

قصص أخي الشهوانية كانت عبارة عن هذيان، لكن الحقيقة هي أنه في اليوم الثالث من ظهر أحد الأيام، رأيت نتونزي وهو يضع رأسه

على ركبتي مارتا. هذه الحميمية أثارت شكوكي: هل باقي الرومانسية في قصص أخي مع الغريبة كان صحيحاً؟

– أنا متعب، اعترف نتونزي، متمدداً بالكامل على مارتا.

– قالت البرتغالية وهي تداعب جبهة أخي: هذا ليس من التعب. إنه الحزن. تشتاق أحداً ما. مرضك يدعى السويداء.

– والدتنا لم تكن على قيد الحياة منذ زمن، لكنها مع ذلك، هي لم تمت على الإطلاق في أعماق أخي. أحياناً، كان يريد أن يصرخ من الألم، لكن الحياة خذلته في الصراخ. للحال، حذرتّه البرتغالية: يجب على نتونزي أن يقيم الحِداد، يرَوض اللدغة المتوحشة للسويداء.

– لديك كل هذا المكان، وهو مناسب جداً للبكاء...

– بماذا يفيد البكاء بما أنه ليس لدي أحد ليسمعني؟

– ابكِ يا عزيزي، سأقدم لك كتفي.

شاعراً بالغيرة، ابتعدت تاركاً خلفي المشهد الحزين لنتونزي ينتشر على الدخيلة. كرهت للمرة الأولى أخي. بكيت في غرفتي لشعوري بالخيانة منه ومن ومارتا.

مما زاد الطين بلّة، شفاء أبي، وقد غادر غرفته بعد أسبوع من ملازمته السرير. جلس على الكرسي في الشرفة كي يلتقط أنفاسه، كما لو كان المرض لم يكن على الإطلاق إلا مجرد تعب طفيف.

– سألته: هل تشعر بالتحسن؟

– اليوم استيقظت حيّاً. أجابني.

أمر بأن يظهر نتونزي. كان يريد أن يفحص عيوننا، ليرى فيها أين كنا من النوم. جرى استعراض وجوهنا تحت أنظار امتحانه المعيب.

– أنت يا نتونزي، استيقظت متأخراً. حتى أنك لم تقدم التحية للنجم.

– نمت بشكل سيء.

– أعرف ما الذي أبعد عنك النوم.

بأجفان مغلقة، انتظرت ما سوف يعلنه. تكهنّت بالعاصفة، أو إني لم أكن أعرف تماماً سيلفستر.

– حسناً، أنا أحذرك: إن رأيتك تغازل هذه البرتغالية...

– لكن يا أبي...

– هذه الأمور لا يجب أن تحدث، ولا يبدو إلا وأنها قد حدثت. لا تقل لي بعد ذلك بأني لم أحذرك.

ساعدت العجوز ليعود ليرتاح. اتجهت بعدئذ إلى الباحة حيث كانت البرتغالية بانتظاري. كانت تنتظر أن أساعدها في تسلق شجرة. ترددت. فكرت بأن المرأة كانت تريد أن تعيد ذكرى الطفولة. لكن لم يكن الأمر كذلك. كانت فقط تريد أن تعرف إن كان هاتفها يستطيع التقاط المكالمات من منطقة أعلى. هرع أخي ليساعدها في تسلق الأغصان. فهمت بأنه كان يشتهي ساقي المرأة البيضاء. انسحبت وأنا عاجز عن حضور هذا المشهد المهين.

لاحقاً، ونحن حول الطاولة ننهي العشاء بصمت، صرخ العجوز كمن يشهر سلاحه:

– اليوم انتكست.

– هل مرضت من جديد؟

– بسببك. إذاً، أتترك هذه الغانية تصعد إلى شجرة؟

– وماذا في ذلك يا أبي؟

– ماذا في ذلك؟ هل نسيت بأني... بأني شجرة.

– بابا، أنت لا تتكلم بجدية.

– هذه المرأة قامت بالتسلق عليّ، كانت تسحقني بقدميها، ارتكز كل ثقلها على كتفي.

وصمت. تلك كانت الجرائم. وحدهما يداه كانتا تتراقصان في الفراغ بيأس. نهض بصعوبة، عندما حاولت مساعدته، رفع سبابته تحت أنوفنا.

– غداً تنتهي.

– ما الذي تنتهي.

– غداً، ستنتهي بطاقة إقامة تلك الغانية. غداً هو آخر يوم لها.

الطامة الكبرى جاءت في عتمة الليل: أعلن نتونزي بأنه سوف يهرب مع الغريبة. برأيه، كان كل ما بينهما مشتركاً، ومخططاً له في أصغر تفصيل من تفاصيله.

– سوف تصحبني مارتا إلى أوروبا. هناك توجد بلاد يمكن أن ندخل ونخرج منها.

المغادرة والوصول: هذا ما يشكل المكان. لماذا لا نعيش في أي مكان. جمدتّني فكرة البقاء وحيداً في المساحات الشاسعة لأورشيم.

– سآتي معكما، أعلنت بصوت حاد جداً.

– كلا، لا تستطيع.

– لا أستطيع؟ ولماذا؟

– لا يقبلون بالأطفال، بمن هم في سنك في أوروبا.

وقص عليّ ما كان يقوله خالنا، بأن في تلك البلاد لا يحتاج المرء حتى أن يعمل: الثراء كان تحت تصرفه، يكفي أن يقوم بتعبئة الاستمارات الصحيحة.

– سوف أتجول في أوروبا، شابكاً ذراعي بذراع المرأة البيضاء.

– لا أعتقد يا أخي. هذه «النانا» استحوذت عليك. هل تذكر حكاية ذاك العشق الذي كنت تقصه عليّ؟ إذن حسناً، فأنت أعمى من جديد.

لم تكن احتمالية ذهابه هي ما آلمني، بل مغادرته مع مارتا، هو ما أهانني أكثر. بسبب ذلك، جافى النوم عيني. وأنا ألقي بنظرة إلى البيت الكبير، رأيت مصباح الليل لم يزل مضاءاً. سأذهب لأرى مارتا وأتفاهم معها دون لف أو دوران.

– أنا غاضب منك!

– مني؟

– لماذا اخترت نتونزي؟

– ما الذي تقوله؟

– أنا أعرف كل شيء، سوف تهربين مع أخي. ستتركانني هنا.

أرجعت مارتا رأسها إلى الخلف وابتسمت. طلبت مني الاقتراب، فرفضت.

– أنا على وشك الرحيل غداً. ألا تريد التنزه معي؟

– أريد أن أذهب من هنا، معك، نهائياً... ومع نتونزي.

– نتونزي لن يأتي معي، يمكنك أن تكون مطمئناً. سوف يصل أبروكزيمادو غداً مع البنزين الضروري وسنغادر نحن الاثنين. فقط خالك وأنا، ولا أحد آخر.

– أتعدينني؟

– أعدك.

أخذتني البرتغالية من يدي وقادتني حتى النافذة. بقيت تنظر إلى الليل كما لو كانت السماء كلها مجرد نجمة لها وحدها.

– هل ترى هذه النجوم؟ هل تعرف أسماءها؟

– النجوم لا اسم لها.

– لها أسماء، لكن نحن من لا يعرف.

– قال لي والدي بأنهم في المدينة يطلقون الأسماء على النجوم من الخوف...

– خوف؟

– الخوف من الشعور بأن السماء لا تخصهم. لكن لا أعتقد ذلك، علاوة على أني أعرف من الذي قام بتصنيع النجوم.

– إنه الله، أليس كذلك؟

– كلا. بل زكريا ببندقيته.

ابتسمت البرتغالية. مررت أصابعها بين خصلات شعري وأمسكت يدها وهي على وجنتي. شعرت برغبة لانهائية لألمس بشفتي جسد مارتا. غير أني أدركت وقتئذ بأني لم أكن أعرف التقبيل. وعدم الكفاءة تلك جرحتني كما الإعلان عن مرض عضال. عندما رأت مارتا الظلال تكسو بشرتي قالت:

– تأخر الوقت الآن، اذهب لتنام.

عدت إلى غرفتي، وكلي رغبة واستعداد للتسلل تحت الأغطية، وإذ بي، أجد نفسي وجهاً لوجه أمام سيلفستر ونتونزي وهما يتشاجران أمام الممر. وأنا أدخل كان عجوزي يؤكد:

– انتهى النقاش!

– بابا، أطلب منك...

– قلت ما لدي!

– أرجوك يا أبي...

– أنا أبوك، وما أقوم به هو لمصلحتك.

– أنت لست والدي.

– ماذا قلت؟

– أنت مجرد وحش!

حدّقت بخوف في وجه سيلفستر: كانت التجاعيد تفيض على وجهه، والأوردة الخبيثة تتقاطع عند عنقه. كان يفتح ويغلق فمه أكثر مما كانت الكلمات تتطلب. بالنسبة إلى مجنون، الحديث دوماً قليل. هذا يعني الذهاب إلى ما وراء لغة شخص ما. انتظرت الانفجار الذي كان يحدث دوماً عندما يكون رأس أبي مشتعلاً. لكن لا. مضت لحظة، كبت فيها سيلفستر غيظه. حتى أنه كان يبدو قد رضخ وقبل بأسباب نتونزي. هذا الاستسلام شكّل حدثاً فريداً: فوالدي عنيد مثله مثل إبرة البوصلة. لكن في النهاية سيواظب على عناده. رفع ذقنه كصورة الملك في أوراق اللعب وأنهى، متجبراً:

– لم أسمع شيئاً.

– إذن حسناً، هذه المرة ستستمر في عدم السماع. ها أنا قد قلت كل شيء، كل ما كنت أكبته في قلبي...

– نحن لا نسمع شيئاً، ادّعى والدي وهو ينظر إليّ.

– أنت كنت عكس الوالد الحقيقي. الأب يمنح أولاده الحياة، وأنت ضحيت بحياتنا لأجل جنونك.

– أتريد العيش في هذا العالم القذر؟

– أريد أن أعيش يا أبي. فقط أن أعيش. لكن الآن فات الأوان لأسألك...

– أعرف تماماً من الذي وضع هذه الأفكار في رأسك. لكن في الغد سينتهي كل شيء... مرة واحدة وإلى الأبد.

– أتعرف ماذا؟ لفترة طويلة، بقيت أعتقد بأنك قتلت أمي. لكني أعرف الآن أن العكس هو الصحيح: هي التي قتلتك.

– اخرس أو أكسر فمك.

– أنت ميت، سيلفستر فيتاليسيو. تصدر منك رائحة العفن، حتى زكريا، الساكن هنا، لا يستطيع أن يتحمل رائحتك.

ارتفعت يد سيلفستر ومضت في الهواء لتفجّر وجه نتونزي. تدفق الدم في عروقي ورميت نفسي على أبي. تدّخل البرتغالية المفاجئ الذي جاء من العدم عقّد العراك. بدأت أقدام وأجساد تجتاز الغرفة على شكل رقصة مثيرة للضحك، حتى وقع الثلاثة وهم متشابكون أرضاً. نهضوا، وراح كل واحد منهم ينفض الغبار عن ثيابه ويعيد ترتيبها. كانت مارتا أول من بدأ في الكلام:

– انتبه، لا أحد هنا يرغب في ضرب امرأة، أليس كذلك يا سيد ماتوس فينتورا؟

للحظات، علّق سيلفستر حركته. ويده مرفوعة فوق رأسه، كما لو كان شلل مفاجئ قد تركها في حالة جمود. اقتربت البرتغالية بشكل أمومي:

– ماتوس...

– سبق وقلت لك بألا تناديني بهذا الاسم.

– لا يمكننا أن ننسى كل شيء، طالما ليس هناك من رحلة طويلة...

وافترقنا دون أن نشك بالحدث المزمع عقده هذه الليلة. إطار عجلات سيارة البرتغالية سوف تتقطع، وتتحول إلى مجرد بلاستيك سيكون جيداً فقط لصنع مقلاع. في الصباح التالي، استيقظت السيارة مشلولة، دون إطارات على الأرض المحروقة للسافانا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الأوراق الثانية

في ليلة قمر شاحب وزهر الجيرانيوم ...
جاء بفمه ويديه المدهشين
يعزف المزمار في الحديقة
كنت في بداية يأسي
ولا أرى أمامي سوى طريقين:
إما أن أصبح مجنونة، أوقديسة.
أنا التي ترمي وتشنّع
ما هو غير طبيعي كالدم والعروق
أخذت أبكي النهار بطوله
بشَعر منكوش
وجسد مهدود من التردد
عنما سيأتي، لأنه لا بد سيأتي،
كيف لي أن أظهر في الشرفة دون صبا؟
القمر، الجيرانيوم، وهو، سيبقون هم أنفسهم
بين الأشياء، وحدها المرأة تشيخ
كيف سأفتح النافذة دون أن أكون مجنونة؟
كيف لي أن أغلقها دون أن أكون قديسة؟

«أديلا برادو»

عندما أعلنت في ليزبون بأني ذاهبة إلى أفريقيا لأستعيد زوجي، خرجت عائلتي عن جمود تحفظها المعتاد، حتى وصل الأمر بأبي أن يقول من حدّة النقاش:

– ابنتي، لهذا الهذيان اسم: إنه مرض القرون!

كنت أبكي بالفعل لكن لم ألحظ دموعي إلا عندها. تصالحت والدتي مع الأمر. على الأقل كررت شكوكها:

– لا يمكن لشيء أن يقوم بإصلاح زواج، ما عدا الحب.

– ومن قال لك بأنه لا يوجد حب؟

– هذا أيضاً أكثر خطورة: الحب ليس له من خلاص.

في اليوم التالي استشرت الجرائد، وتصفحت الإعلانات. قبل أن أذهب إلى أفريقيا سوف أتصرف بشكل تأتي فيه أفريقيا إليّ، في مدينة أقل ما يُقال عنها إنها الأكثر أفريقية في العالم. كنت أبحث عن مارسيلو دون أن أغادر ليزبون. متسلحة بهذه القناعة، وأمام صفحات الإعلانات الصغيرة، توقف أصبعي على اسم البروفيسور بامبو مالينغا. إلى جانب صورة العرّاف كان هناك سرد لقائمة مهاراته: «يُحضر

الشخص المحبوب، يساعد في إيجاد الشخص المفقود...» وفي النهاية أضافوا «ويستطيع الزبون الدفع ببطاقة الائتمان». ربما ببطاقة اللاائتمان في حالتي.

في اليوم التالي قطعت الشوارع الضيقة لمدينة آمادورا مع حقيبة محشوة بأشياء مطلوبة في الإعلان: «صورة، سبع شمعات سوداء وثلاث بيضاء، زجاجة نبيذ أو مشروب كحولي».

الرجل الذي فتح لي الباب كان شبه عملاق. وزاد قفطانه الملون من ضخامة حجم بدنه. عندما قدّمت نفسي، كنت مترددة من أن أناديه «بروفيسور»:

– أنا من تحدثت إليك بالهاتف بالأمس.

كان بامبو قادماً من أفريقيا أخرى لكنه لم يُظهر ذلك: «الأفريقيون، قال، كلهم من البانتو، كلهم متشابهون، يستخدمون نفس المعرفة، ونفس الأقدار». تصنّعت بتصديق ذلك، بينما كنت أتقدم عبر التماثيل الخشبية والأقمشة المعلقة على الجدران. كانت الشقة ضيقة وبذلت جهدي كي لا أسير على أجساد حيوانات حمار الوحش والنمور الأفريقية التي كانت تغطي الأرض. يجب علينا ألاّ ندعس على الحيوانات، على الرغم من كونها ميتة.

بعد أن قدّم إليّ مقعداً دائرياً، تأكد العرّاف من الأشياء التي حملتها معي ثم نبهني:

– ينقص قطعة ثياب من الزوج. كنت قد قلت لك بالأمس في الهاتف المحمول بأني بحاجة إلى قطعة ملابس حميمية.

– داخلية؟ كررت، دون روح.

كنت ابتسم داخلياً، فكل ملابس مارسيلو كانت بالنسبة إليّ حميمية، كانت كلها قد لامست جسده، كلها مرّت عبر أصابعي المغتبطة.

– عودي غداً يا سيدتي مع المواد الكاملة. اقترح العرّاف برقة.

في اليوم التالي أفرغت خزانة مارسيلو في حقيبة، وعبرت طرقات ليزبون بهذا الحمْل. لم أصل إلى آمادورا. ففي منتصف الطريق توقفت قرب النهر ورميت بالثياب في الماء كما لو كنت أفرغها على الأرض بالقرب من العرّاف. بقيت أنظر إليها وهي تطفو، وفجأة انتابني شعور بأن هذا مارسيلو الذي كان يبحر فوق مياه نهر «تاجة».

شعرت في تلك اللحظة بأني معافاة. تكون الملابس في البداية كمعانقة، وهي تستقبل المولود. بعد ذلك نُلبسها للأموات كما لو أنهم ذاهبون في رحلة. البروفيسور بامبو نفسه كان بعيداً عن تصور موهبتي بالعَرافة: كانت ثياب مارسيلو تبحر كفأل للمّ شملنا. في مكان ما في أفريقيا، كان هناك نهر سوف يعيد لي محبوبي.

ما كدت أصل أفريقيا حتى بدا لي المكان واسعاً جداً لاستقبالي. جئت لأجد شخصاً ما. لكن منذ وصولي لم أتوقف عن التوهان. في

الفندق، وبعد أن استقريت، تحققت كم كانت معرفتي بهذا العالم هشة: خمسة أرقام مكتوبة على عجل خلف صورة فوتوغرافية. كان هذا الرقم هو الجسر الوحيد الذي يمكن له أن يقودني إلى مارسيلو. لا يوجد أصدقاء، ولا معارف، ولا حتى أناس مجهولون. كنت وحيدة، لم يسبق لي من قبل أن كنت وحيدة بهذا الشكل. شعرت أصابعي بهذه الوحدة عندما طلبت رقم الهاتف ومن ثم أحجمت، لتعود من جديد فتطلبه، حتى أجابني صوت رخيم من الجانب الآخر:

– من يتكلم؟

استعصى صوتي على الخروج، كنت غير قادرة على قول أي شيء. كان سؤال غريمتي عبثياً: من يتكلم؟ بما أني لم أكن قد تلفظت حرفاً بعد. كان من الأنسب أن تسأل: من الذي لا يتكلم؟ بعد ثوانٍ أخرى أصرّ الصوت:

– هنا نوسي، من معي؟

نوسي. هل هذا اسمها. الأخرى كانت بالنسبة إليّ حتى الآن مجرد وجه جامد. الآن، أصبحت صوتاً واسماً. أعادت رعشةٌ إليّ الصوت: كشفت عن كل شيء بصراحة كما لو كنت غير قادرة على التعبير إلا دون تفكير. بقيت المرأة للحظة صامتة، ومن ثم، قررت برباطة جأش أن تأتي إلى الفندق. توجهت بعد ساعة واحدة نحو المشرب، قرب المسبح. كانت شابة، ترتدي ثوباً أبيض، كلون ثياب لاعبي التنس. فكرت بأني سوف ألتقي بهيئة ملكية، لكن عوضاً عن ذلك، رأيت

أمامي امرأة شابة مهزومة، ترتعش أصابعها كما لو كانت السيجارة التي بين يديها ثقيلة زيادة عن الحد.

- مارسيلو هجرني...

شعور غريب: عشيقة زوجي تعترف لي بأنه قد تركها. فجأة، لم أعد تلك المرأة التي تعرضت للخيانة. ونحن، كلتا المجهولتين، أصبحنا من الأقرباء القدامى، نتقاسم هجراناً واحداً:

- مارسيلو يعاشر امرأة متزوجة.

- كان كذلك من قبل.

- لا، هنا؟

- كلا، هناك، وهذه أنا، زوجته. ومن تكون تلك المرأة؟

لم أعرف ذلك أبداً. على أي حال، مارسيلو لم يعد معها الآن أيضاً. ولا أحد يعرف مكانه.

جمعت رماد سيجارتها في راحة يدها. تساقط الرماد جعلني أفهم ما لم تكن قد قالته لي. تحججتُ بعذر كي أذهب إلى غرفتي. «دقيقة واحدة» قلت لها كي أبرر ذهابي. لكن خلال هذه اللحظات القصيرة، بكيت دموع حياة بأكملها.

عدت بعد أن تمالكت نفسي. لاحظت نوسي فوراً عينيّ المعذبتين.

- لنترك مارسيلو، لنترك الرجال...

- لا أحد منهم يستحق أحزان امرأة.

- حتى ولا واحد من الاثنين.

وبقينا نتحدث في هذا «اللاشيء» الذي كانت النساء تعرف كيفية الحفاظ على مفرداته. شعوري بوحدة تلك المرأة الشبيه بطفلة آلمني. اعتبرتني من المقربات، وفي لحظات، اشتكت لي ما عانته من كونها عشيقة رجل أبيض. في الأماكن العامة، وفي نظرات الإدانة: كانت عاهرة! وعلى العكس، كيف شجعها بعض من أفراد أسرتها على مغادرة البلد، وكيفية الاستفادة من الغريب. بينما كانت نوسي تتكلم، عدت مرة أخرى إلى تصور ما كنت سأقوله، وأي غضب سينفجر داخلي، إن رأيتها تدخل إلى المشرب مع مارسيلو خاصتي؟ في الحقيقة، لم أكن أشعر في هذه اللحظة أكثر من مشاعر التضامن مع تلك المرأة. في كل مرة كانوا يشتمونها، كانوا في المقابل يعذبونني.

– والآن نوسي، ماذا تفعلين؟

كي تحصل على عمل، ارتمت بين ذراعي تاجر، وهو رجل أعمال. يدعى أورلاندو ماكارا، كان مديرها في النهار وعشيقها في الليل. أثناء مقابلة العمل، وصل أورلاندو متأخراً. يعرج كما عقرب ساعة، وبعد أن قاسها من الأعلى للأسفل، قال بابتسامة ماكرة:

– لا أحتاج حتى للنظر إلى ورقة سيرتك الذاتية. ستبقين كمضيفة استقبال.

– مضيفة استقبال؟

– كي تستقبليني أنا بالذات.

حصلت على العمل مستقيلة من نفسها. في الحقيقة، في أعماقها كانت قد اتخذت قراراً. سوف تفترق عن الاثنين كثمرة تم تقسيمها: سيكون قلبها اللب، وروحها النواة. ستسلّم اللب لشهوات هذا المدير، كما لمدراء آخرين. لكنها ستحتفظ ببذرتها الخاصة.

قضيت نوماً قلقاً طيلة الليل، وفي الصباح الباكر، استدعيت من جديد خدمات خطيب نوسي. أو لنقل مديرها في العمل. وصل متأخراً، بيد أنه كان يعرج بطريقة بدا معها عرجه أقرب لرجاء كي يعذر المرء عاهته. أو نوعاً من اللطف تجاه الأرض التي كان يمشي عليها؟ كانت نوسي ترافقه، لكن هذه المرة بقيت بعيدة جداً ومتحفظة حتى كدت لا أتعرف إلا بصعوبة على فتاة الأمس. ذهبتُ مباشرة إلى الموضوع:

– خذني إلى المكان الذي تركت فيه مارسيلو.

انتظرت ردة الفعل السلبية لأورلاندو. بأن يقول مثلاً بأن لا مكان هناك للرجال، ناهيك عن النساء... وزيادة على ذلك امرأة بيضاء، مع كل الاحترام. أصرّيت أن يقودني إلى المحمية.

– زوجك، يا سيدتي العزيزة، زوجك لم يعد هناك...

– أعرف.

أظهر أورلاندو ماكارا صعوبة ذلك. وفهمت بأن الأمر يتعلق بالمال. وتمّت الصفقة: سوف أذهب معه حتى مدخل المحمية، وسوف يتركني

في المكان الذي ترك فيه مارسيلو. بعد ذلك، لن يكون لأورلانـدو علاقـة بأي شيء.

– لماذا لا تقول لها كل شيء أورلاندو؟

لم يتوقف تـدخل نوسـي عـن مفاجـأتي. كانـت تـدافع لمصلحتي، كاشـفة بـأن عائلـة أورلانـدو تعـيش في المحميـة وبالتأكيـد سـوف يستقبلونني.

– عائلة؟ هذه عائلة؟

– إنهم غريبو الأطوار. لكنهم أناس طيبون.

– لا تتحدثي معهم، فهم كلهم مجانين. أضاف أورلاندو.

بعد فترة من التردد، رضخ أخيراً. سرد عليّ ما يعـادل محيطـاً مـن النصائح: يجب تحاشي الاحتكاك مع العائلة الـتي تقطـن في المعسكر. ومحاولة فهم طبيعة ومزاج كل من السكان الأربعة.

– مثلاً، أنا، هناك، لست أورلاندو.

– وكيف ذلك؟

– أنـا أدعـى أبروكزيمـادو. هكـذا يعرفـونني هنـاك: أنـا الخـال أبروكزيمادو.

كانت موافقتي على الكذبـة هـي الشـرط الأساسـي كـي يقـودني إلى هناك: إذا ما سألوني في المحميـة كيـف وصـلت إلى هنـا، يجـب علـيّ تحاشي ذكر أورلاندو، وأقول بأني جئت وحدي.

وصل أورلاندو باكراً إلى الفندق. صعدت إلى شاحنته القديمة. كان الطريق طويلاً، أطول طريق كنت قد قمت به في حياتي. كانت الشاحنة بحالة يرثى لها بحيث استمر السفر لثلاثة أيام. كان بي رغبة في تجريب شيء ما لا يكون دوماً في متناول أيدينا، ألا وهو أن أقود عربة متداعية هكذا فوق طرقات تقطع الأنفاس كهذه.

- أورلاندو، دعني أقود ولو قليلاً.

- حاولي أن تتعودي على مناداتي أبروكزيمادو.

سمح لي بالقيادة لكن فقط طالما ما زلنا في محيط المدينة. وهكذا قدت الشاحنة في الطرقات الضيقة في ضواحي المدينة. لم تلفت نظري كثيراً الطرقات التي كانت تبدو لي مزدحمة جداً وممتلئة بالقاذورات. خمنت الطريق بفضل مسار رتلين من الأشخاص يسيران بمحاذاة الطرق المنخفضة.هنا لا يسير الناس على الأرصفة بل يسيرون في الطريق كما لو كان هذا مكانهم الطبيعي.

تساءلت إن كان باستطاعتي القيادة ضمن هذه الفوضى، بعد ذلك فهمت بأني لست أنا من كان يقود بل كانت يدا مارسيلو هما اللتان تقودانني، وأنا قد أُصبت منذ زمن بالعمى من الداخل والخارج. عند رؤية صور الطرقات الأفريقية، لا يمكن أن نفهم وجودها إلا بوجود من يقطعها.

أعدت المقود إلى أورلاندو وغيرت مكاني بكل ثقة: هناك فرق بسيط بين أن نقود أو نُقاد. في زمن ما أردت أن أسافر حول العالم. الآن لم أعد أرغب في السفر على الإطلاق إلا دون عالم.

ما إن غادرنا المدينة حتى انهارت السماء. لم يسبق أن رأيت في حياتي انهماراً بهذا الشكل. كان يجب علينا التوقف لأن الطريق لم تكن آمنة. فجأة، بدا لي وكأني رأيت ملابس مارسيلو تعبر مجرى مياه الأمطار، وفكرت: «نهر التاجة فاض على أرض مدارية وحبيبي ينتظرني في بعض الشواطئ القريبة».

كنت أفكر بأني أعرف ماذا يعني أن تمطر، لكن في هذه اللحظات، رحت أراجع معرفتي شاعرة بالخشية من أنه كان الأجدر بنا استئجار مركب بدلاً من سيارة. مع ذلك، ما إن انتهى انهمار المطر، حتى نتج عنه فيض من نور، حاد، كثيف، ومسبب للعمى. نشأ الماء والضوء بصورة غير واضحة تقريباً. كلاهما بشكل زائد عن الحد، كلاهما كانا يؤكدان قلة شأني اللامتناهية، كما لو كان هناك آلاف من الشموس، وأعداد لا تحصى من مصادر الضوء في الداخل والخارج مني. ها هو جانبي الشمسي، الذي لم يسبق له الظهور قط في السابق. بهتت كل الألوان، تحول الطيف بالكامل إلى غطاء من البياض.

كان مارسيلو يرتدي دوماً لوناً أبيض كهذا، ربما هو هنا على مرمى نظر، أعرف، نعم، أشعر بأن مارسيلو موجود هنا، على مرمى كلمة. لم

أكـن أراه بالتحديـد بسـبب انعكـاس الضـوء، وانتشـار وضـوح الرؤيـة الفوري.

في وقت لاحق قابلت مجموعة من النساء. كن يسبحن في فسحة مـن المياه غير العميقة. في الأسفل، كانـت نسـاء أخريـات يغسـلن ملابـس. أوقفت السيارة واقتربت. عندما شاهدنني قمن بتغطية أنفسـهن بقمـاش رُبط بسرعة حول خصرهن. كانت نهودهن جافـة تتـدلى فـوق بطـونهن. بالتأكيد لم يكنّ من نوع النساء اللواتي ترك مارسيلو نفسه يثمل بهنّ.

بقيت مكاني أتأملهن. كن يضحكن كما لـو كـن يعـرفن سـرّي. هـل يعلمن بوضعي كـامرأة تعرضـت للخيانـة؟ أيـن هـو الوضـع الاجتمـاعي للنساء اللواتي يتعرضن دون توقف للخيانـة مـن قِبـل قـدر خـائن كـان يجمعنا؟ من ثم، أخذن طريقهن وهن يحملنه صفائحهن وأحمالهن فوق رؤوسهن. لم أفهم إلا حينها الأناقة التي هـن قـادرات علـى تشـكيلها. كانت خطواتهن الرشيقة كـالغزلان تلغـي الثقـل الـذي يحملنـه. تطفـو أوراكهن كما راقصات الباليه وهن يتقدمن فوق مسـرح لا نهـائي. إنهـن ضمن مشهد أبدي، بالتحديد لأن ما من أحد نظر إليهن علـى الإطـلاق في أي وقت مضى.حمولتهن على رؤوسهن، كن يقطعن الحدود مـا بـين السماء والأرض. وفكرت: لا تنقل المرأة الماء، بل هي تحمل كل الأنهار في نهديها. تابع مارسيلو هذا المصدر في داخل نفسه.

فجأة، سقطت قطعٌ من ثياب، بـدت لـي مألوفـة، مـن يـد إحـدى النساء الغسـالات. كانـت قمصـاناً بيضـاء بياضـاً لم يكـن غريبـاً عـني.

شلّني عرق بارد: إنها ثياب مارسيلو. مضطربة، نزلت الشط راكضة وأنا أتعثر وارتعبت النسوة من اقترابي الذي في غير محله. رحن يصرخن بلغتهن المحلية، جمعن الثياب من الماء وهربن من الجهة المقابلة للشاطئ.

في اليوم التالي من السفر استيقظنا باكراً. نظرت إلى الشمس وهي على وشك الشروق، وإلى الغبار، فبدا المنظر كقطعة من الكوكب الأرضي تنهض بترفع. أفريقيا هي القارة الأكثر شهوانية. أكره أن يكون لدي هذه الكليشة. خرجت من السيارة وجلست في خلفية الشاحنة. هذا الصمت لا يشبه ذاك الهدوء الذي كنت قد اختبرته سابقاً. لم يكن من نوع ذاك الغياب الذي نستعجل لملئه خوفاً من الفراغ. إنه يقظة الداخل. هذا ما شعرت به: كنت مأخوذة بالصمت. فكرت، ليس هناك ما هو قبلي، ومارسيلو لم يولد بعد، وأنا جئت كي أشهد ولادته في هذا العالم.

- أنا أول المخلوقات. أعلنت بصوت عالٍ، وأنا أُعيد فتح عينيّ أمام دهشة أبروكزيمادو.

النور، الظلال، المشهد بكامله، بدوا وكأنهم قد خلقوا للتو. والكلمات أيضاً بالمناسبة: كنت على وشك ارتدائهم كما الأطفال في أيام الآحاد يملؤون ساحات القرى الصغيرة.

- انظري، سيدة مارتا. انظري ما رأيت. قال أبروكزيمادو وهو يعرض في يده فيلماً لآلة تصوير.

– هل كان هذا لزوجي؟

– نعم، لقد توقفنا هنا كي نرتاح.

فجأة خيّم الظلام على شعوري بالخَلق. في النهاية، لا شيء هو بداية. خلال حياتي كل شيء كان عبارة عن نزاع، في مرحلته النهائية. ها أنا تلك التي كانت موجودة مسبقاً. جئت للبحث عن زوجي. هذا إن كان يحق لنا أن نسمي الرجل زوجاً في حال هروبه مع امرأة أخرى. ربما يكون هذا المكان بداية للعالم، لكنه يمثل نهايتي.

من جديد هناك نساء. إنما نساء أخريات، لكن بالنسبة إليّ لا شيء يميزهن عن السابقات. كن يقطعن الطريق نصف عاريات. كان قد سبق لي ولمارسيلو أن تحدثنا عن عري الأفريقيين. فالجسد الأسود انغمس فجأة ضمن تجارة الشهوة المقبولة اجتماعياً. اجتاحت أجساد نساء ورجال سود البشرة فجأة كل المجلات والصحف والتلفزيون وعروض الموضة. أجساد جميلة، مصقولة بسمو، بتبختر، وبإثارة. وتساءلت: كيف لم يسبق لنا أن رأيناهم على الإطلاق؟

كيف عبرت المرأة الأفريقية من موضوع الانتوغرافيا[23] إلى صور لأغلفة مجلات الموضة، إلى إعلانات المواد التجميلية، إلى منصات عروض آخر صيحات الموضة. مارسيلو، كنت أراه بوضوح، يتلذذ بتأمل

---

[23]: En thographique : دراسة وصفية للأعراق البشرية. (المترجم)

تلك الصور. فارَ غضب عميق في داخلي. بالتأكيد، غزو الشهوانية السوداء كان البرهان على أن أصول الجمال قد أصبحت أقل تعصباً. إلا أن عري المرأة السوداء قادني إلى جسدي الخاص. بتفكيري في الطريقة التي كنت أرى فيها جسدي استخلصت بأني لم أكن أعرف كيف أكون عارية. ووصلت إلى حقيقة مفادها بأن ليس كثرة الثياب هي التي كانت تغطيني بل الخجل. كان الأمر هكذا منذ حواء، منذ الخطيئة الأولى. بالنسبة إليّ لم تكن أفريقيا عبارة عن قارة، بل كانت الرعب من شهوانيتي. شيء واحد بدا مؤكداً: إن كنت أريد استرجاع مارسيلو يجب عليّ ترك أفريقيا تنتشر في داخل أعماقي. يجب أن أجعل العري الأفريقي يولد في داخلي.

عاينت المنطقة المحيطة بينما كنت في وضعية القرفصاء. كانت آلاف من النمل تجتاز الأرض، في طابور طويل لا نهاية له. سمعتهم يتكلمون على أن نساء هذه المنطقة يأكلن الرمل الأحمر. وهن أحياء، كن يلتهمن نفس التراب الذي سوف، يُلتهمن من قبله في المستقبل.

رفعت لباسي الداخلي وأنا أنهض. في النهاية، سوف أمسك نفسي. ستنتظر مثانتي أرضاً أخرى. أنتظر تراباً مستوياً، لا يكون مخربشاً من حشرات جائعة.

عدنا إلى الشاحنة. كان الطريق كأفعى تتماوج عند منحنيات الطريق. كان الطريق حيّاً، وفمه الهائل يلتهمني.

تقدمت السيارة في السافانا تفكك مضمون المسار، فقد استقامت غيمة من الغبار كما جناحي نسر أفريقي. غطى الغبار وجهي، عينيّ، وثيابي. تحولت إلى أرض، مدفونة خارج التراب. هل سأكون دون أن أعلم على وشك أن أصبح امرأة أفريقية كتلك التي تركها مارسيلو تخلب لبّه؟

الجنـون

عندما لم تعد الجولة التي هي لنا ،
جولتنا
تائهة في الصمت والتخلي
يصبح حتى صوت البحر منفى
والنور المنتشر حولنا قضبان.

صوفيا دي ميللو أندرسن

ما الذي تفعله هنا؟

تدحرجت الأوراق على الأرض. اعتقدت أنها ستتساقط بخفة، بصوت كأجنحة الفراشة، لكن على العكس، سقطت ككتلة واحدة جاعلة أصوات الزيز تصمت حول البيت.

- أتقرأ رسائلي؟

- لا أعرف القراءة، دونا مارتا.

- إذن ما الذي تفعله بهذه الأوراق التي بين يديك؟

- هذا لأني لم يسبق لي أبداً أن رأيت...

- لم تكن قد رأيت ماذا؟

- أوراقاً.

انحنت مارتا كي تلملم الأوراق. تحققت منها واحدة واحدة، كما لو كانت كل ورقة تخبئ داخلها ثروة لا تقدر.

العجلات المعطلة لسيارة أبروكزيمادو جعلت والدي يجن جنونه. على الشرفة، كان سيلفستر، أشعث الشعر، يندب:

- أنا محاط بالخونة والجبناء.

كانت قائمة الخونة طويلة: ابنه البكر لا يحترمه، وصهره كان قد عبر إلى الطرف الآخر، أحدهم مسّ علبته وماله، وحتى زكريا انقلب إلى العصيان.

– لم يعد ينقصني إلا أنت، يا بني لم يعد ينقصني إلا أن تهجرني.

تقدم خطوة كي يلمسني، استدرت وأنا أقوم بحركة كما لو كنت أقوم بترتيب نعالٍ خفيّ، وبقيت هكذا، مطأطأ الرأس، حتى ابتعد نحو مكان استراحته المعتاد. لم ترتفع عيناي عن الأرض واعياً بأنه سوف يقرأ مشاعري المتضاربة.

– تعال إلى هنا، موانيتو، أنا مشتاق إلى الصمت.

جالساً في كنبته، أغلق عينيه وترك ذراعيه تسقطان كما لو كانتا لا تخصانه. أثار بي سيلفستر شيئاً من الحزن. بيد أني لم أستطع منع نفسي من التفكير بأنه قد ضرب أخي بهاتين الذراعين، ومن يدري، ربما هاتان الذراعان قامتا بخنق دوردالما، أمي الحبيبة.

– لا أشعر بشيء البتة، ما الذي يجري موانيتو؟

كان الصمت معْبَراً. والمتاع ضروري للإقدام على السفر. في هذه اللحظات كان سيلفستر فارغاً. وأنا أفيض ألماً وشكّاً. كيف لي أن أزخرف صمتاً مع كل هذا الطنين في رأسي؟ وأنا أنهض بسرعة، انحنيت باحترام، عندما صرت قرب كنبته وابتعدت.

– لا تتركني يا بني، لم يسبق وأن كنت يائساً بهذا الشكل.

لم أذهب إليه. بقيت في الزاوية، مختبئاً بالجدار الداعم. سمعت الصوت الخافت لصدره وقد بدا وكأنه سينخرط في البكاء. فجأة، فجّرت

الدهشة المشهد: كان أبي يهمهم بلحنٍ للمرة الأولى، وخلال الأحد عشر عاماً من حياتي، سمعت أبي يغني. كان مقطعاً غنائياً حزيناً، وكان صوته مثل جدول صغير مؤلف فقط من السديم. شبكت ذراعي حول ركبتيّ. غنّى أبي، وأكمل بغنائه المخطط الإلهي لإبعاد السحب الداكنة.

كنت أركّز، وجسدي كله في حالة من الإصغاء، كما لو كنت أعرف بأن هذه كانت المرة الأولى والأخيرة التي سوف يغني سيلفستر فيها.

– يسعدني سماعك يا صهري.

انتفضت تقريباً من الخوف عند وصول أبروكزيمادو. وكان خوف أبي مضاعفاً أيضاً، خجلاً لأنه تم الإمساك به متلبساً وهو يمارس أغانٍ تقليدية.

– لقد خرجت وحدها، بالرغم عني.

– ما زلت أذكر أحياناً كورال كنيستنا، كنت المايسترو، سيلفستر، كنت تمارس ذلك بشكل جيد جداً...

– سأعترف لك بأمر يا صهري. لا يوجد شيء لا أندم عليه.

أكثر من غياب الناس، والحب والأصدقاء، كان غياب الموسيقى هو ما يحزّ في نفسه. قال بأنه في وسط الليل، وهو بين الأغطية والشراشف، يدندن بالمِخفات[24]. حينئذ كانت الأصوات الأخرى تنبثق لديه بدقة مدوزنة لدرجة بأن الله وحده يستطيع سماعها.

– لهذا السبب لا أترك الأولاد يطوفون حول الغرفة في الليل.

---

[24]: المِخفات: أداة لخفت صوت آلة موسيقية. (المترجم)

– في النهاية أنت تعصي، يا عزيزي سيلفستر..

وتابع اعترافه بأنه في أحيان كثيرة انتابته رغبة في أن يطلب من أبروكزيمادو جلب آلة الأوكورديون خاصته من المدينة. اعترف سيلفستر بكل ذلك وكانت يداه ترتجفان بطريقة جعلت الآخر يقلق عليه.

– هل أنت بخير، يا صهري؟

نهض سيلفستر كي يضبط أعصابه. أرخى كتفيه، شدَ حزامه، سعل وأعلن:

– أنا بخير نعم، كان هذا أمراً عابراً.

– هذا أفضل يا صهري العزيز، لأني جئت لأحدثك بأمر غير عابر.

– تقديمك للأمر بهذا الشكل يدل على أنه ليس بالشيء الجيد...

– كما سبق وقلت لك، لقد أعادوا لي الخدمة في «la Faune»[25] الآن مع مسؤوليات جديدة...

سحب أبي من جيبه علبة سجائره، وبدأ طقسه الطويل المتضمن لفّ سيجارة. رفع رأسه وواجه من جديد زائره:

– إنه المكان الذي يناسبك جيداً، أبروكزيمادو، إدارة الحيوانات...

– وكوني بهذا المركز الجديد جئت لأخبرك بأمر مزعج. يا عزيزي سيلفستر يجب أن تغادر من هنا.

– أين يعني من هنا؟

---

[25]: منطقة خدمة الحيوانات البرية في أفريقيا تحديداً. تشبه المحمية. (المترجم)

– هناك مشروع تطوير قد اعتُمد في هذه المنطقة. عملية التنازل قد تم خصخصتها.

– لا أفهم هذه اللغة. اشرح لي بشكل أفضل.

– خدمات مؤسسة «la Faune» قد أعطت هذا التنازل إلى أجانب خاصين. يجب أن ترحل من هنا.

– أنت تمزح بالتأكيد. عندما سيأتي هذا القطاع الخاص الأجنبي إلى هنا، فليتفضلوا للحديث معي.

– يجب عليك المغادرة قبل ذلك.

– شيء مضحك. كنت أنتظر أن يحلّ الله في القدس، لكن في النهاية، القطاع الخاص هم من وصل.

– هكذا هو العالم...

– الأجانب ذوو الشركات الخاصة هم الله الجديد، من يدري؟

– من يدري؟

– إنه لغريب كم يتغير الناس.

راح سيلفستر يعيد حساباته: في البداية كان أبروكزيمادو أشبه بأخيه، وهو مئة في المئة صهره، ومئة في المئة من العائلة، من حيث التعاطف والمساعدة المتبادلة. ثم توقفت هذه المساعدة وتحول ذهابه وعودته إلى تجارة مدفوعة مسبقاً. في الآونة الأخيرة، وصل أبروكزيمادو كممثل حكومة، قائلاً بأن الدولة تريد إخراجه من هنا. الآن، كان يقارنه برأس ورقة مالية بنكية، تعلن بأن الأجانب الذين دون اسم ولا وجه هم المالكون الجدد.

– لا تنس يا صهري، في الخارج يوجد عالم. وهذا العالم قد تغير. إنها العولمة...

– وإن رفضت الرحيل؟ هل سيطردونني بالقوة؟

– هذا لا. الجهات الدولية المانحة حريصة على حقوق الإنسان. هناك خطة لإعادة الإسكان بالنسبة للسكان المحليين.

– أنا إذن من المجموعات المحلية؟

– من الأفضل لك أن تكون كذلك يا صهري. فهذا أفضل بكثير من أن تكون سيلفستر فيتاليسيو.

– إذن حسناً، بما أني من المجموعات، فأنت لم تعد صهري.

– ختم سيلفستر كلامه ملّوحاً بإصبعه: فليعلم الموظفون، وصهري السابق، بأن الماشية هي من يعيدونها إلى مكانها من جديد. وأنه هو، سيلفستر فيتاليسيو، المعروف سابقاً تحت اسم ماتوس فينتورا، سيموت هنا، قرب نهر كوكوانا الذي فيه بالذات تعمدت. هل فهمت أيها الموظف؟ وولداي هما من سيقومان بدفني.

– ولدآك؟ ولداك قررا مسبقاً المجيء معي. سوف تبقى وحدك.

– زكريا لن يتركني...

– تحدثت مع زكريا. وهو جاهز.

رفع عجوزي رأسه، بنظرة فارغة، مترنحاً. كنت أعرف، سوف يبحث من جديد في نفسه عن اعتدال لضبط النفس.

– هل انتهت الأخبار الجديدة يا صهري؟

– ليس لدي من جديد لأضيفه. الآن، أنا ذاهب.

– قبل أن تذهب يا صديقي ألا قل لي: ما اسمك؟

– ما هذه المزحة، سيلفستر؟

– سوف أريك شيئاً، أيها الغريب العزيز. لا تنزعج إن ناديتك هكذا، فأنا كنت دوماً أفضل الغرباء على الأصدقاء...

وبينما هو يتكلم، نهض وأدخل يديه في جيبيه وسحب رزمة من الأوراق النقدية وقام بتكويمها على الأرض عند قدميه.

– دائماً ما فضلت الأصدقاء على أفراد العائلة. أنت الآن لك الأفضلية في أن تكون صديقاً.

انحنى وقام بيده اليسار بتشكيل صَدفة بينما كان يشعل عود ثقاب بيده اليمنى.

– ما الذي تنوي فعله سيلفستر؟ أنت مجنون؟

– سوف أدخن مالي.

– هذا المال سيلفستر، هو لأجل دفعِ ثمن بضائعي...

– هذا ما كان.

وهو يشهد طقس الهلوسة، ابتعد أبروكزيمادو وكاد يرتكز عليّ وهو يدور نحو الزاوية. بقيت ساكناً أراقب الشرفة. من هنا، رأيت عجوزي يعود إلى مكانه على الكنبة العتيقة متنهداً بصوت عالٍ، ونطق بالكلمات غير المتوقعة على الإطلاق:

– لم يعد هناك الكثير من الوقت، آلينها، لم يعد هناك الكثير من الوقت.

كان بدني ما زال مقشعراً عندما اختفيت ووليت هارباً كظل بين الشجيرات. ما إن وصلت إلى مكان آمن، حتى اندفعت في سباق محموم.

– ما الذي تهرب منه، موانيتو؟

كان زكريا جالساً على باب الترسانة، وسلاحه في يده كما لو أنه كان جاهزاً للإطلاق.

دخلت بسرعة وَجلست قرب العسكري، شعرت بأنه كان يريد أن يقول لي شيئاً. لكنه بقي لفترة صامتاً لا ينبس بحرف بينما كان يرسم على الرمل بفوهة بندقيته. ركّزت انتباهي على الخربشات التي تثلم الأرض، وفهمت فجأة بأن زكريا كان يكتب. واهتزّت روحي عند قراءة ما كان قد حفره: دورزدالما.

– أمي؟

– لا تنس أيها الصغير، أنت لا تعرف القراءة. كيف عرفت، هل حزرت؟

فهمت أن الوقت قد فات للإنكار، فزكريا كان صياداً ووقعت في الفخ الذي نصبه لي.

– أعرف أكثر من ذلك أيها الصغير. أعرف أين تخبئ الأوراق التي كتبتها.

من المؤكد أنه سيذهب ليقول كل شيء لمعلمه والدي، سيلفستر. ولن يتأخر الأمر حتى نصبح أنا ونتونزي من ضمن المجموعات المنبوذة.

– لا تخشَ شيئاً. أنا أيضاً كنت قد كذبت بشأن الكلمات والأوراق.

محا اسم أمي بكعب قدمه. التهمت حبات الرمال الأحرف واحداً فواحداً كما لو كانت الأرض تبتلع دوردالما من جديد. بعدئذ، قصّ عليّ زكريا ما حدث معه عندما كان في فرقة قوات المستعمر الخاصة. كان البريد يصل، وكان الوحيد الذي لم يكن يكتب له أحد. تم استبعاده بشكل ممنهج. شاعراً بثقل عِرقه: ليس ذاك الذي يخص لون بشرته، لكن كونه من هؤلاء الذين يبقون دوماً خارج الفرح.

– لم يصادف أن كتبت لي امرأة أبداً. بالنسبة لي، بدأ العيش في أورشليم حتى قبل وصولي إلى هنا...

كان نصف دزينة من الجنود البرتغاليين لا يعرف القراءة، فاختاروه كي يفك حروف الرسائل ذات المصدر البرتغالي. كانت تلك ساعته. جالساً على السرير العالي من أنواع تلك الأسرة التي بطابقين في الغرفة، وعيون البيض الشرهة تتأمله كما لو كان نبياً مهماً.

لكن فخره السريع الزوال لم يكن يُقارن بالانتشاء الذي كان يشعر به أولئك الذين كانوا يتسلمون الرسائل. كانت غيرة زكريا لا يحدها حد. من الجهة الأخرى للعالم كانت تصل نساء وعشق ودعم. حتى أسماء البطاقات البريدية أثارت غيرته: «aérogramme» رسالة بالبريد الجوي بالنسبة إليه كانت تقريباً اسم عصفور. جاءته عندئذ فكرة أن ينتحل شخصية أحد البرتغاليين. وهكذا استطاع زكريا كالاش أن يربح عرّابة حرب، بانتحال هوية.

– ها هي، إنها ها هنا، ماريا إدواردا...

وأظهر لي صورة امرأة ببشرة فاتحة، وشعر مسدل على عينيها مع حلقين في أذنيها. ابتسمت بيني وبين نفسي، فعرابتي التي دون حرب، مارتا، كانت دون شك أكثر بياضاً من تلك المرأة ذات العينين الحزينتين. لم يلحظ زكريا أني شردت قليلاً. أعاد العسكري ترتيب الصورة في جيبه بينما كان يشرح بأنه لا يفترق عن هذا الطلسم الورقي أبداً.

– إنها حماية ضد الرصاص.

تبادل زكريا وعرّابته الرسائل لأشهر عديدة. حتى، عند نهاية الحرب، اعترف لها العسكري بأنه قد غشّ بهويته الحقيقية. أجابت بدورها: هي أيضاً قد قامت بتغيير اسمها، وعمرها ومكان سكنها. مارتا إدواردا لم تكن في الواحد والعشرين من العمر، وهي من المطلوب منهن أن يكنّ كاتبات لدعم الأمل في المحاربين المنهكين.

– كل واحد منا كان كذبة، لكن كلانا كنا حقيقيين. هل تفهم موانيتو.

في صباح اليوم التالي كان الضجيج هائلاً في أورشليم. مرة أخرى استدعانا سيلفستر على الفور، وكان زكريا المنهك وغير الواثق هو الذي وزّع علينا الإعلان وجعلنا نصطف قرب الصليب الكبير. كنا نحن أنفسنا كالعادة. لكن هذه المرة مع ذلك، كان معنا امرأة. هذه المرأة الصلبة التي كانت بقربي بدت نصف مندهشة ونصف متوجسة. تتدلى فوق صدرها آلة التصوير تزاحم بها البندقية التي كان زكريا يحملها على كتفه.

– ما الذي سيحصل؟ سألت مارتا كمتفرج متحمس.

لم يكن لدي الوقت لأجيب. لأننا سمعنا ضجيجاً غريباً يشبه سرباً من طير الحجل الخائف. وحدث الظهور المهيب لسيلفستر: محاكياً سيارة، كان يقلد أصواتاً متقطعة من صفارات الإنذار. كانت ساحة المسرح بسيطة: وصول السلطة. قام بالتقليد كما لو أنهم يفتحون له أبواب سيارة متخيلة، نزل بغطرسة، تسلق أحد المدرجات المتخيلة وأعلن:

– سيداتي وسادتي. موضوع هذا الاجتماع ذو أهمية قصوى. وصلتني تقارير إنذار من قوى الدفاع والأمن.

التزمنا الصمت. إلى جانبي بدت مارتا متحمسة وتمتمت: «رائع، إنه ممثل من الجحيم!».

جال ببصره بسرعة على الحاضرين، وقع نظر المحقق المتكلم على أخي، ولم تنتظر ذراع الاتهام أن وقفت عنده:

– أنت، أيها المواطن الشاب!

– أنا؟ سأل نتونزي، مندهشاً.

– يقولون بأنك تنام هناك، في بيتها، بيت البرتغالية.

– هذا ليس صحيحاً.

– هل سبق لك أن قمت بمضاجعة هذه العاهرة؟

– ما هذا يا أبي؟

– لا تنادني يا أبي.

الصرخة غير المنضبطة جعلتنا نلتصق بالزاوية. من شدة خوفي عدت لأتفحصه، ومن جديد عادت التجاعيد لتملأ وجهه وعروق خبيثة

عبرت عنقه. كان يفتح ويغلق فمه بشدة بحيث لم تكن تسعفه الكلمات. بالنسبة لمجنون، الحديث دوماً قليل. الذي كان يقصده يتجاوز أي لغة. عينا نتونزي المفتوحتان على وسعيهما تعلقتا بعينيّ، ونحن نبحث عن معنى لما نشهده.

– من هذه اللحظة، لا يوجد «بابا» ولا أي أب ينتمي إليكم. منذ اللحظة أنا السلطة. أو الأفضل، أنا الرئيس.

متظاهراً بأنه ينزل عن مدرج، لامس أقدامنا، وحدق في كل واحد منا. وقف أمام البرتغالية، قدّم تحياته وخلع عنها آلتها التصوير.

– مصادرة. سوف تعود إليك عند خروجك من الإقليم يا سيدتي. دون أفلام بالطبع. سوف أعهد بها إلى وزير الداخلية خاصتي. ووضع الجهاز بين يدي زكريا.

تظاهرت السيدة أيضاً بأنها تحتج. لكن بنظرة بسيطة، منعها أبروكزيمادو من الكلام. عاد سيلفستر إلى المدرج، وشرب كأس ماء وكشط حلقه قبل أن يتابع:

– أورشليم هي أمة ناشئة مستقلة وأنا الرئيس فيها. أنا الرئيس الوطني.

ولتحسين البنود، راح يختال أيضاً لإضفاء المزيد من الألقاب على نفسه:

– وللمزيد، وكما يدل على ذلك لقبي، أنا الرئيس فيتاليسيو، الرئيس مدى الحياة...

استقرت نظرته المبحلقة عليّ. لكن عوضاً عن دعمه، حدقت بالذبابة التي كانت تحوم حول لحيته. كانت بالنسبة إليّ نفس ذبابة كل مرة وكأنها تكمل طريقاً قديماً: كانت تتجول على وجنته اليسرى، وتصعد على جبهته منتظرة ظاهر يده الذي سيجعلها تطير في الهواء. نعم، والدي كان قد تحول. في السابق، كنت أشك بألا يكون لدي أب على الإطلاق. الآن، أصبحت أرغب في أن أصبح يتيماً.

– إنه لمؤسف، أن الشبيبة، التي هي نسغ الأمة، تكون بهذا الفساد ونحن الذين وضعنا فيها الكثير من الآمال.

نظرت مرة أخرى في وجه نتونزي بحثاً عن تواطؤ. على عكس مارتا، بدا أخي مرعوباً. زكريا وأبروكزيمادو كان لهما وجه قلِق. هذه الخِشية زادت من خشيتي عندما أعلن سيلفستر من جديد قراره النهائي:

– لأسباب أمنية سيفرض حظر تجول إجباري في كل أراضي الأمة الوطنية. والقانون الحربي سيُطبق كردٍ على ما يُدعى ـ وهو يحدق بعينيّ مارتا ـ «تدخل القوى الاستعمارية» كل شيء سيكون مباشرة تحت إشراف الرئيس. ويُنفذ بمساعدة ساعده الأيمن، الوزير زكريا كالاش.

في السراب المهيب للضوء الذي كانت يحيط مشيته بهالة، التفت كي يختم قائلاً:

– نقطة انتهى...

أمـر بالقتـل

نهضت من جثتي

ذهبت أبحث عن نفسي.

بييرغرين

ذهبـت إلى تلـك الـتي تنـام في بـلاد الرياح.

«أليجاندرا بيزارنيك»

تكون الحقيقة محزنة عندما تكون فريدة. وتكون أكثر حزناً أيضاً عندما يكون قبحها ليس من نوع رسائل زكريا الجوية، التي هي عبارة عن تناغم الكذب. حالياً، في أورشليم، كانت الحقيقة هي أن والدنا قد أصبح مجنوناً. ولم يكن ذلك كذباً مباركاً ومنقذاً. إنما كمن سكنه الشيطان.

– سوف أحكي معه، قالت مارتا، وهي تلحظ القلق العام.

بحسب نتونزي، لم تكن تلك فكرة جيدة، بينما شجّعها أبروكزيمادو، على الرغم من كل شيء، أن تقوم بزيارة إلى العجوز الحادّ الطباع في غرفته.

– أوقفنا صوت العجوز الأجش:

– هل طلبتم إذناً للإصغاء؟

– نعم. تحدثت مع الوزير زكريا.

لعبت مارتا الدور ببراعة إلى أبعد ما كان سيلفستر يتوقع. خليط من المفاجأة وعدم الثقة شوش وجه أبي. فتحت الغريبة الموضوع من دون مواربة:

– جئت أقول لكم بأني سوف أتبع تعليماتكم يا صاحب السعادة.

– ستغادرين أورشليم؟ كيف؟

– سأذهب سيراً على الأقدام حتى الباب الرئيسي، وهذا يعني نحو عشرين كيلومتراً. بعد ذلك سأجد أحداً يساعدني في الطريق.

– حسناً إذن، لديك الإذن الفوري.

– لكن المشكلة هي الطريق في المحمية. فهو ليس آمناً. أطلب إن كان بإمكان وزير حربيتكم مرافقتي حتى البوابة.

– لا أعرف، سأفكر بالأمر، في الحقيقة، أنا لن يعجبني تركك وحيدة مع زكريا.

– لماذا؟

– لم أعد أثق به.

– وبعد توقف قليل أضاف: فقدت الثقة بالجميع.

اقتربت البرتغالية بشعور شبه أمومي. بدت يدها وكأنها ستلمس كتف عجوزنا، لكنها تابعت قائلة:

– يا عزيزي سيلفستر، هل تدري ما يلزم هنا؟

– هنا، لسنا بحاجة لشيء. ولا لأي شخص.

- طقس الوداع، هذا ما ينقص هنا.

- نعم، ينقص وداعك.

- أنت لم تقل كلمة الوداع للمتوفاة. هذا ما يعذبك، هذا الغياب للحِداد يتركك ضيق الصدر.

- لا أسمح لك بالحديث في هذه المواضيع، أنا رئيس أورشليم، ولست بحاجة إلى نصائح قادمة من الغرب.

- هذا ما تعلمته هنا، معكم، في أفريقيا. يجب أن تموت دوردالما بسلام، أن تموت نهائياً.

- ارحلي من القصر الرئاسي قبل أن يجعلني الغضب أتصرف بطريقة أخرى.

أمسكتُ البرتغالية من يدها وجعلتها تسرع في الخروج من الغرفة. كنت أعرف حدود والدي في حالته العادية، إنما في هذه الحالة، كان الجنون سيجعله غير قابلٍ للتكهن. قبل أن تغادر، تراجعت مارتا خطوة وواجهت من جديد وجه سيلفستر الساخط:

- قل فقط شيئاً واحداً. لقد رحلت، أليس هذا صحيحاً؟

- كيف؟

- رحلت دوردالما في الحافلة. غادرت المنزل...

- من قال لك؟

- أعرف ذلك، فأنا امرأة.

– يمكنك أن تغير بندقيتك عزيزي زكريا.

– لكن يا سيلفستر، هل حقاً كي أقتل؟

– تقتل، وبشكل قاطع.

كان يجب على زكريا أن يشعر بالفرح لتكليفه بمهمة بهذا الحجم. قتل الحيوانات لم تكن بالمهمة التي تليق بجندي أقسم اليمين. تسّلم الله شهادته عندما خلق الإنسان، والحيوانات هي مخلوقات دونية. الكائن البشري هو من يستحق براءة الاختراع. إنه لا يتحدى القوة الإلهية إلا بتمزيق المرء لآخر صفحة من الكتاب المقدس.

لا يفهم المرء الشعور الذي انتاب الجندي عندما تلقّى الأمر بقتل البرتغالية. يبدو لي أنه تلقاه هادئ الأعصاب. وهذا ما كان، بوجه غامض وخطى مكبوتة، غادر زكريا وبندقيته تتدلى من على كتفه، أمام حالة الخَدر التي كنت فيها. نظرت إلى والدي جالساً كما ملك على عرشه الجديد. كان من غير الممكن أن أرتمي تحت قدميه كي أتباكى وأطلب رحمته. كان قراراً لا رجعة فيه: مارتا أمي في الآونة الخيرة، ستُقتل دون أن أستطيع فعل شيء. أين يمكن أن يكون نتونزي؟ هرعت إلى غرفته، إلى المطبخ، في الردهة. لم يكن هناك من أثر لأخي. وخالي أبروكزيمادو لم يكن قد عاد بعد من الجانب الآخر للعالم. انهرت على الأرض، ساجداً وخاوياً، بانتظار طلقة البندقية التي لا مفر منها. هل سأعود لأصبح يتيماً مرة أخرى؟

على أي حال لا شيء من هذا قد حدث. بالتأكيد لم يكن الجندي قد ذهب بعيداً؛ فبعد بضع دقائق عاد، وملأ ظله مدخل بيتنا.

– ما الذي حصل؟

– لقد فشلت.

– كلام معسول. هيا عد إلى هناك وقم بما أمرتك به.

– لا أستطيع.

– ألست جندياً؟

– لم أعد سوى زكريا كالاش.

– كلام معسول. أصرّ والدي على القول. الأمر الذي أعطيتك إياه...

– لا تغضب سيلفستر، لكن، حتى الله، ليس بوسعه أن يأمرني.

– هيا اغرب عن وجهي. عد إلى الوراء أنت أيضاً، لم تعودوا أولادي.

كانت جيزابيلا هي المخلوق الوحيد الذي يستحق عاطفته. وهو، سيلفستر فيتاليسيو، سوف يرسلنا جميعاً إلى الإسطبل، وبالمقابل، فسوف يأتي بمحبوبته إلى البيت. وقراره كان فاصلاً ولا رجعة عنه.

رافقت زكريا حتى الترسانة، بينما كان نتونزي يذهب للبحث عن الغريبة. ونحن في الطريق كان العسكري يشكو دون توقف عارضاً توبته كما لو كان يطلب منا الغفران:

- ساهمت في قتل طفولتكما.وكان يكرر قائلاً: نصف ما قمت بفعله كان زائفاً، أما الباقي فهو كذب.

كانت الرماية هي الشيء الوحيد السليم والثمين الذي بقي لديه. توخي الدقة التي كان يداري بها موت الحيوانات.

جالساً على درجة الباب، طلبت منه أن ينسى ضغينته. لم يجب. رفع بنطلونه وأظهر قدميه بتباهٍ:

- هل ترى؟ لم تعد الطلقات تثبت في مكانها.

وسقطت طلقة دون صعوبة على الأرض.

- إنها تتحدث إليّ.

- من؟

- الطلقات. تقول لي بأن الحرب قد انتهت وبأنها لن تعود أبداً.

- ألست أنت القائل بأن الحروب لن تنتهي أبداً؟

- ربما كل ما عرفه بلدنا لم يكن حرباً، قال زكريا بتحسر.

- كيف لي أن أعرف؟ عشت دائماً هنا، بعيداً عن الجميع...

- ابق بعيداً، بعيداً عن الحروب، هذا ما أريده أنا أيضاً. أنا ذاهب. من الآن فصاعداً كان السلام موجوداً في الجهة الأخرى، فما الذي كان يبقيه هنا؟ حتى وإن فهمت، كان من الصعب عليّ أن أقبل أسبابه.

- لماذا لم تغادر من هنا قط؟

– بسبب سيلفستر.

– كنت دوماً مطيعاً له كابنٍ له.

– أجاب: الأمر أسوأ من ذلك أيضاً.

أسوأ؟ كان يطيع فقط كما يستطيع الابن أن يطيع أباه، هكذا عبرّ لي قائلاً بحذر غامض.

– أجبته: أنا لا أفهم، زاكا.

– سأقص عليك قصة، أمراً حصل معي حقيقة...

كان ذلك أثناء الحرب على الاستعمار، على الدرب نحو الشمال، بالقرب من الحدود. بما أن فريق الجيش الذي كان ينتمي إليه زكريا تأخر في الوصول إلى المعسكر، فقد قضى الليل بالقرب من نهر. كان الجنود قد جلبوا معهم نساء وأطفالاً كانوا قد أسروهم بالقرب من القرية، في منتصف الليل، راح أحد الأطفال يبكي. محاسب التجهيزات الذي كان يقود الفصيل نادى على زكريا وقال له:

– اذهب وقم بجولة مع هذا الرضيع.

– لا تطلب مني أن أقوم بذلك، إن سمحت.

– الصغير لا يسكت.

– لا بد وأنه مريض.

– لا يمكننا المخاطرة.

– لا ترسلني أنا، أطلب منك ذلك.

– ألا تدري ما الذي تعنيه كلمة «هذا أمر»؟ أم تريدني أن أتحدث بلغتك اللعينة؟

ودار المحاسب على عقبيه.

وصول نتونزي وضع حداً لنهاية قصة زكريا. لم يكن قد وجد البرتغالية. بالمقابل، قال إنه قد تهيأ له سماع صوت محرك شاحنة أبروكزيمادو. كانت تلك العربة هي التي ستقود مارتا إلى مصيرها.

نظرت إلى وجه زكريا الحزين. انتظرت أن يُنهي حكايته التي انقطعت. لكن العسكري بدا وكأنه قد نسي الحكاية.

– وهل أطعت الأمر، زاكا؟

– كيف؟

– هل أطعت أمر هذا المحاسب؟

– كلاِ، لم يكن قد أطاع. أخذ الولد بعيداً وطلب من عائلة في الجوار أن تُؤويه. كان يمر بين وقت وآخر كي يعطيهم المال، وحصة يومية من طعام الجنود.

– أنا من أعطى اسماً لهذا الوليد.

توقف زاكا هنا. نهض، سقطت الرصاصات وهي ترن على الاسمنت.

– يمكنك الاحتفاظ بها كذكرى مني...

أغلق باب غرفته وتركنا نجتر المخارج الممكنة لحادثة الحرب هذه. كان هناك رسالة في هذه القصة وكنت أريد من نتونزي أن يساعدني في الكشف عنها. لكن أخي كان مستعجلاً ونزل الشاطئ وهو يركض.

– سنذهب إلى هناك موانيتو، قال وهو يشركني معه.

اندفعت خلفه. كان نتونزي دون شك شرهاً لمعرفة ما حمل قريبنا معه من المدينة هذه المرة. لكن لم يكن هذا سبب انفعاله الشديد. متجاوزين البيت، رأينا أبروكزيمادو وسيلفستر يتناقشان في صالة تحت ضوء مصباح الليل الخفيف. ثم ونحن نلتف حول الشاحنة، فتح نتونزي الباب وجلس في مقعد السائق. ناداني من نافذة السيارة وهو يبتلع كلماته:

– المفاتيح هنا! موانيتو ابتعد كي لا أدهسك.

لم أنتظر: بعد ثانية من ذلك كنت جالساً في المقعد المجاور، مشجعاً أخي على الهرب.

– سنهرب كلانا، وندشن الغبار على الطرقات المجهولة حتى دخولنا المنتصر إلى المدينة.

– يمكنك القيادة؟ نتونزي؟

كان السؤال سخيفاً. ما إن أدار مفتاح التشغيل، حتى كان خالي وأبي على الباب، والدهشة تعلو وجهيهما. قامت الشاحنة بقفزة، فزاد أخي السرعة إلى آخرها وانطلقنا في الظلمة. المصابيح الأمامية المضاءة

كانت تعمي أكثر مما كانت تضيء. مرّت الشاحنة بالقرب من المنزل المسكون بسرعة مسببة الدوار، ورأينا مارتا تفتح الباب وتتقدم نحونا.

– لا تتركها تشبثت انتباهنا، ناشدت نتونزي قائلاً.

ذهبت كلماتي سدى. كانت عينا أخي لا تغادران المرآة العاكسة، ووقع الحادث فجأة.شعرنا بالاصطدام الرهيب، كما لو كان العالم قد انشق إلى اثنين. كنا قد دمرنا للتو الصليب الذي في الساحة الصغيرة. الإشارة التي كانت تأمل الترحيب بالله تطايرت في الهواء ووقعت بشكل عجائبي تحت أقدام مارتا. تباطأت السيارة لكنها لم تقف. على العكس، ارتفعت الشاحنة البالية الشبيهة بالجاموس الهائج، ومن جديد رفعت الغبار واندفعت تحت دوار السرعة. عاد نتونزي ليصرخ: الكابح، أين الكابح اللعين...

من قوة الصدمة، قامت الشاحنة القديمة باحتضان شجرة باوباب ضخمة، كما لو كانت الطبيعة قد قامت بابتلاع كل آليات العالم. غمرتنا سحابة من دخان. كانت البرتغالية أول الواصلين، وكانت هي من ساعدنا على الخروج من الشاحنة. بقي أبي في الخلف، قرب المذبح المهان، وصرخ:

– كان من الأفضل لو متما، أيها الولدان. ما فعلتماه هنا، في المبنى المقدس، هو إهانة لله...

لم يعرنا أبروكزيمادو أدنى اهتمام وهو متلون بلون أرجواني، تحرى الأضرار التي على هيكل الشاحنة، فتح بطن السيارة، تفحص شرايينها، وأحنى رأسه:

– من الآن فصاعداً لن يخرج أحد من هنا.

عدنا إلى المعسكر بعد أن تركنا مارتا في البيت الكبير. بقي أبي لفترة أخرى بالقرب من المذبح المدمّر، وكان الصمت يتدفق حتى في عينيّ أخي المسبلتين. فجأة، بخروجه من العتمة، وصل العجوز إلى ارتفاعنا، عبر من بيننا دافعاً إيانا ومعلناً:

– سأذهب لقتلها!

دخل إلى المنزل وعاد فخرج بعد بضع دقائق وبندقية في يده.

– سأذهب أنا بنفسي لقتلها.

تدّخل الجندي زكريا، وسدّ الطريق أمام والدي. شوهت ضحكة متجهمة تقاطيع وجه سيلفستر:

– ما هذا يا زكريا؟

– سوف لن تمر، سيلفستر.

– أنت يا زكريا... آه، هذا صحيح، أنت لم تعد زكريا. حسناً إذن، سأصحح: أنت أرنستو سوبرا، أيها الوغد، أنت خنتني...

تقدم خطوة ناحية زكريا، وجّه سلاحه نحو كتفه ودفعه نحو الحائط:

– أتذكر هذا الطلق الناري في الكتف؟

كنا ذاهلين: فجأة، ساد الذعر على وجه العسكري. حاول التسلل، لكن فوهة البندقية جمّدته في مكانه.

– أتذكر حقاً؟

ظهر أمامنا خيط من الدماء: كان الجرح القديم قد فُتح من جديد. والطلقة القديمة أصابت من جديد الجندي. ساد صمت ثقيل، وتظاهر أبروكزيمادو أيضاً بأنه يريد التدخل:

– سيلفستر، حباً بالله!

– أيها المهرج بقدم واحدة.

حينئذ حدث ـ على ما تسعفني الذاكرة ـ ما كنت غير قادر على تصديقه تماماً. بصفاء مفاجئ، تقدم أخي خطوة وأكدّ قائلاً:

– أعطني السلاح يا أبي، أنا سأذهب إلى هناك.

– أنت؟

– أعطني السلاح، أنا سأقتل البرتغالية.

– أنت؟

– ألم تطلب مني تعلم القتل؟ حسناً إذن، سأقتل.

دار سيلفستر حول ابنه محاولاً فك لغز المفاجأة، وهو ينضح شكاً.

– زكريا!

- سيلفستر؟

- ستذهب معه. أريد تقريراً...

- لا تُدخل إرنستو بالأمر. سأذهب وحدي.

وكما في حلم بحركات بطيئة، وضع أبي سلاحه بين يدي ابنه. وبرمشة عين، اختفى نتونزي في الظلام. سمعنا الخطوات الواثقة تختفي، تبتلعها الرمال. ثم، مضى وقت، وسمعنا الطلق الناري. اجتاحتني نوبة من البكاء المتشنج، فجاء تهديد سيلفستر فورياً:

- دمعة أخرى وأركلك خارجاً.

اختنقت العبرات في صدري، كانت يداي ترتجفان كما لو أن زلزالاً يجتاحني داخلياً:

- اخرس!

- لا... لا أستطيع!

- ابق واقفاً وغنِّ!

وقفت باستعداد. لكن صدري الذي ما زال طافحاً كان يلهث.

- غنِّ!

- لكن يا أبي، ماذا أغني؟

- حسناً، غنِّ النشيد الوطني!

- عفواً يا أبي، لكن... نشيد أي وطن؟

نظر إليّ سيلفستر، مرعوباً من سؤالي. مندهشاً من منطقه الساذج، راح ذقنه يرتجف.وطني الوحيد كان ذاك الذي بقي بعيداً، في البيت الذي ولدت فيه. وعَلمه كان أعمى، أصماً وأبكم.

كانت العينان الحزينتان لأخي تتفحصان الغرفة، وبنوازع لا أعرفها، جعلني أرتجف عندما اعترف قائلاً:

– هذه الليلة كان دور «النانا» وغداً سأقتله هو.

– نتونزي، أرجوك، ضع هذا السلاح جانباً.

لكنه عانق سلاحه ونام بعمق. لم أنم هذا المساء، وأنا أعاني من الخوف. ألقيت نظرة نحو البيت المسكون، لم يكن هناك أثر لأي ضوء. أُنجز العمل. نظرت إلى السماء كي أغير أفكاري، فتحول خوفي إلى رعب. في قبة السماء، لم يبق أي نجم. بعد أن كانت النجوم تسير كلها ببطء، ونورها متوهج. على الحائط المسوّد حيث حفر نتونزي أيامه كانت النجوم قد سقطت بالفعل. الآن، لم تعد تبزغ النجوم لا على أرض ولا في سماء أورشليم. أغلقت النافذة فجأة. كان عالمنا يتفتت مثل ضُمّة من تراب جاف.

كان بعد الظهر يقترب من نهايته ولم يكن قد غادر أحدنا المنزل، عندما انفجرت فجأة الكآبة بدويّ هائل. وصلتنا الرائحة في البداية:

هناك جسد ميت، مُلتهم من الحرارة العالية، ممضوغ من الشمس. أرسلني أبي لأرى. هل هي البرتغالية التي بدأ جسدها بالتفسخ؟

- هل انتشرت الرائحة، هكذا بهذه السرعة؟ هيا زكريا اذهب لتدفن «التوغا».

كان من الأفضل ألا تتفسخ في الزاوية وتجذب إليها السمّور الكبير. خرج زكريا ولحقت به، متجاوزاً خوفي، وتبعت أثره. كنت ذاهباً لأواجه الموت، قابضاً عليّ بحقيقته المرعبة. كانت النسور التي تحوم في السماء تقودنا في الخلف. كان نتونزي قد سحب الجسد قريباً من المنزل. والجسد كان هنا محاطاً بالعصافير الشرهة، تتشاجر فيما بينها وتنحرف بقفزات مضحكة، بشراستها المتبادلة. عند اقتراب زكريا، فُتحت الدائرة ووقعت عيناي على المشهد: الأتان جيزابيلا، العشيقة المخلصة لوالدي، كانت تستلقي مقطّعة الأوصال من النسور.

الكتاب الثالث

الوحي والعودة
الإله الذي أحدثكم عنه
هو ليس إله الرفق
إنه أبكم. إنه وحيد. ويعرف
عظمة الإنسان
كما نذالته
ويتأمل على مر الزمان
الكائن الذي صنعه وفقاً لذلك».

«هيلدا هيلست»

الوداع

باسم غيابك

بنيت بجنوني بيتاً كبيراً ابيض

وكنت ابكيك فيه على امتداد

الجدران.

«صوفيا دي ماللو أندرسن»

رؤية جسد الأتان المقطع حرمني من النوم طيلة الليل. كنت غير قادر على تخيل كمية الدماء التي يمكن أن يحملها مخلوق مُفرّى. بدا وكأن الأتان قد تحولت إلى نهر من الماء المتوهج، ينبثق من قلب أوسع من الأرض.

في اليوم التالي ذهب أبي وحده ليدفن جيزابيلا. باكراً في الصباح، انهمك بالعمل والمجرفة بين يديه، ومن بعيد، حاولنا تقديم خدماتنا.

– لا أريد أحداً هنا. كان يصرخ.

لم نكن نجرؤ في الأصل على الذهاب إليه. كانت نظرته نظرة انتقام. قام زكريا بجولة حول منزلنا وسلاحه في يده، يراقب والدي.

– لا أحد يقترب منه، حذرنا الجندي قائلاً.

كان يتكلم كما لو كان الأمر يخص كلباً مسعوراً. على الرغم من التحذيرات، قررت الاقتراب من المكان الذي يسهر فيه سيلفستر على الأتان المتوفاة. كان الليل قد أرخى سدوله الآن، وتوقفت يده ورفشه عن العمل. سرت بالاحترام اللائق بالمناسبة، وسعلت سعالاً خفيفاً قبل أن أسأل:

– ألا تأتي لتنام يا أبي؟

– أود البقاء هنا.

– كل الليل؟

أومأ برأسه. جلست بحرص على مسافة منه. بقيت صامتاً لمعرفتي بأن ليس هناك كلمة أخرى يمكن أن تُقال، لكن واعياً في الوقت ذاته بأن أي صمت لن يكون ممكناً لا اليوم، ولا بعد اليوم. من بعيد، كانت تتناهى إلى سمعنا الضربات المعدنية التي كان يقوم بها أبروكزيمادو وهو يصلح هيكل سيارته. كان أخي يساعده، مستعينين بشعاع من ضوء.

كان أبي صورة عن حزن الحِداد. متهالك، وحيد، لا يثق بأي شخص ولا بأي أحد. تمتم دون أن يرفع رأسه:

– أعطني يدك يا ولدي.

اعتقدت بأني لم أسمع جيداً. بقيت هادئ الأعصاب، تجمدني الدهشة، إلى أن التمس سيلفستر من جديد قائلاً:

– لا تتركني هنا وحيداً.

استلقيت ونمت على أصوات ضربات المطارق الآتية من الكراج المرتجل. كان يدل هذا الإيقاع بالنسبة إليّ على نهاية أورشليم. لهذا السبب دون شك جاءني كابوس أربك نومي. اجتاحني هذيان، كلما كنت أطرده كان يعود ليسكنني: من مكان قريب جداً، تَوسطت أفعى بيني وبين والدي. كانت تكمن خامدة، كما لو أنها نائمة، وعجوزي نائم بالقرب منها، متمدد بجانبها، يتأملها وفي عينيه نشوة.

– تعال يا ولدي، تعال ودعها تلدغك.

الأفعى ليست حيواناً: إنها عضلة ذات أسنان، إنها أم أربع وأربعين، مُقعدة، مع بطن وسط العنق. كيف يمكن لسيلفستر أن يقيم علاقة مع حيوان زاحف كهذا؟

– أجعلها تلدغني؟

– ها أنا قد لُدغت.

– لا أصدقك يا أبي.

– انظر إلى يدي كم هي منتفخة، وبلون مختلف بالكامل. يدي، يا عزيزي موانيتو، تنتمي الآن إلى سلالة الأموات.

كانت يداً دون ذراع، دون عروق ولا شرايين. قطعة من جسد دون والدين أو أقارب.

– أنا شبيه هذه اليد.

وُلد عن غير قصد، وعاش دون رغبة، وسيموت دون مقدمات ودون سابق إنذار.

بدأت الأفعى تلتف ببطء من حولي بشهوانية، مغادرة جمودها. قاومت وأنا أبتعد بهدوء.

– لا تفعل ذلك، موانيتو.

وشرح لي بأن هذه الأفعى ليست غير الزمن. لسنوات طويلة بقي يقاوم سحر الأفعى. هذا المساء، استسلم، مهزوماً.

– ألا تسمع الأجراس؟

كانت تلك أصوات المطارق وهي تضرب هيكل الشاحنة. لكني لم أعارضه. كان اهتمامي ينصبّ على مكان آخر: كانت الأفعى تحدق بي، دون أن تكون قد حسمت أمرها بغرز أنيابها فيّ. بدت كأنها منّومة مغناطيسياً، عاجزة عن الالتزام بطبيعتها الخاصة.

– إنها ليست بحاجة حتى أن تلدغني، أكدّ سيلفستر. فمادتها السمّية تعبر عينيها.

كانت هذه حاله معها هو الآخر: بينما كانت عينا الأفعى تنغرزان في عينيه، طفا كل ماضيه على شفتيه. هذا الثعبان لم يلدغه حتى. جرى السّم قبل الأوان إلى أمعائه، وراح الزمن يتعفن داخل جسده. أخيراً، عندما انغرزت الأسنان الدقيقة فيه، لم يعد سيلفستر يرى المخلوق السمّي: فهي لم تعد أكثر من ذكرى ماضية، غير واضحة، وثقيلة. تنزلق بين شجيرات الورد وبين الصخور. وهكذا راحت الذكريات الأخرى تتسلل، زاحفة ولزجة كما الثعابين. تبطئ، بشكل شبه أبدي، مثل تيار جارف للأنهار.

– الزمن سمٌّ، موانيتو. كلما تذكرت أكثر، كلما قلّ شعوري بأني حيّ.

– هل تتذكر من جديد أمي؟

– لم أقتل دوردالما. أقسم على ذلك، يا ولدي.

– أنا أصدقك يا أبي.

– لقد قتلت نفسها بنفسها.

يعتقد الناس بأنهم ينتحرون. لكن الأمر لا يكون كذلك على الإطلاق. دوردالما لم تكن تعلم، المسكينة. لم تزل تعتقد بأن باستطاعة المرء حذفها

من الوجود. بالإجمال، ليس هناك سوى انتحار حقيقي واحد: ألا يكون لدينا اسم، وأن نفتقر للمعرفة عن ذاتنا وعن الآخرين. البقاء بعيدين عن متناول القتلى وعن ذكريات الآخرين.

– أنا قُتلت أكثر بكثير من دوردالما.

نعم هو، سيلفستر فيتاليسيو، كان قد انتحر، وضع حداً لحياته حتى قبل أن يموت. فهو قد كنس الأمكنة، وأبعد الأحياء، ومحا الزمن. سرق أبي حتى أسماء الأموات. في الأخير، لم يعد الأحياء إلا مجرد حفاري قبور من عظام: هم قبل كل شيء الرعاة للمتوفين. لا وجود لسلفٍ ليس مضموناً في الجانب الآخر من الضوء، هناك دوماً أحد ما ليوقظه. في حالة والدي كلا. الزمن لم يصل إليه قط. العالم بدأ في نفسه، وستنتهي البشرية فيه، دون أن تمر بالأسلاف.

– بابا، هذا الثعبان، هو أيضاً سيفتح لي أبواب الماضي؟

لم يتفوه سيلفستر بكلمة. على العكس، فقد بدأ يزحف كما وضعية الصياد. قتلُ الثعبان القاتل هو قاعدة الشرف. حتى بالنسبة للمسرنم. أتراه هذا هو المبدأ الذي قاد والدي ليهرع نحو الثعبان ويضربه بالعصا ضربة قاتلة؟

هل يتمدد الثعبان؟ حسناً إذاً، فهذا الثعبان بالذات انتشر كالظل، غائباً عن الوعي إلى الأبد. حركته المفاجئة جعلت العجوز سيلفستر يئن، وقد قُضمت مفاصله.

– ماتت عظامي...

كان سيلفستر يطالب باندثار هيكله العظمي الخاص به. لكن، في حالتي، كانت العظام هي العنصر الوحيد الحيّ بي.

في صباح اليوم التالي جاؤوا لإيقاظي. كنت قد غفوت من الإنهاك على بُعد بضعة أمتار من قبر جيزابيلا. بجانبي، كان سيلفستر ما يزال نائماً، منكمشاً على نفسه. وبينما كنت أنهض، قام خالي بهزٍّ صهره بطرف قدمه. تدحرج جسد سيلفستر كما لو أنه قد فارق الحياة. كيف يمكنه أن يغرق في النوم بكل هذا العمق؟ لماذا كان هناك زَبد أبيض وسميك يسيل من فمه؟ لم يطل الأمر حتى عُرف السبب: كان هناك خطان أحمران من الدم ينبثقان من جرح صغير في ذراعه.

– لقد تعرض للدغ. سيلفستر قد لُدغ!

قلقاً، نادى خالي على زكريا وأخي. هرعا مع سكين، شقّ الجندي ذراع أبي بطرفة عين، وكما مصّاص الدماء، انحنى كي يمص الجرح الدامي.

– لا تفعل هذا! اعترضت بشدة. لا تفعل شيئاً، كل هذا ليس سوى حلم!

نظروا إليّ باستغراب، واشتبه زكريا في كلامي بنوع من المرض العقلي، وراح يتفحصني بحثاً عن لدغة تفسّر سبب اضطرابي، وعندما لم يجد شيئاً، قاموا بنقل سيلفستر وهو نصف واعٍ. بدا أبي بين ذراعي زكريا كطفل أصغر مني سناً. وقعت الكلمات من بين شفتيه كما فضلات الطعام، حبات أرزٍ على لثته العجوز.

– دوردالما، دوردالما، الله لم يأت، وأنت لا ترحلين...

تركوني وحيداً مع سيلفستر بينما كانوا يجهزون لإسعافه.

– ها أنا ذا. تنهد قائلاً.

ومرر بيديه ببطء، على ذراعيه، مؤكداً شدة هذيانه، دبقاً، كما لو أنه عاد ليس إلى الغبار بل إلى الصلصال.

– بابا، ابقَ هادئاً في الظل.

– سوف أموت موانيتو، أنا محاط بالكثير من الظلال، هذا لا يمكن له أن يتأخر.

– لا تقل هذا يا أبي. لقد تمّ تلقيحك.

– أطلب منك يا ولدي: ألا تريد الموت معي؟ الشعور بالوحدة، هو أكثر ما نخشاه في الموت، تابع قائلاً.

الوحدة ولا شيء غيرها. كانت نظراته ملتبسة وخاوية. فجأة، انتابني الخوف: لم يعد لوالدي وجه. تحول إلى مجرد عينين، بحيرات دون ضفاف، حيث يتم إنتاج قلقنا.

– هذا دمي الذي يجعل دمك يجري، هل تعلم؟

كلمات كان لها وقع الحكمة. حياته كما كان يقول نتونزي لم تجعلني أعيش أبداً. الغريب في الأمر هو أنه بدا وكأني أموت في موته.

– انظر. قال وهو يمد لي يده. إنهما ثقبان، كأنهما غير مرئيين، ومع ذلك، ها هي حياة بأكملها تنسلّ منهما.

هل كان سيلفستر يحتضر؟ باستثناء نظرته العمياء، الجامدة، كان وجهه لا يعكس طالع النهاية. إلا أن الأكثر إثارة للقلق كانت يده: فقد تغير لونها وتضاعف حجمها. الدم الذي يسيل من الرباط الذي وضعوه له وينقط على الأرض كانيرعب زكريا. أخذ أبروكزيمادو الأمر على عاتقه وأعلن قائلاً:

- سنغتنم هذه الفرصة لننقله إلى المدينة.

حمل زكريا سيلفستر بين يديه. لكن لم يكن من الضروري حمله. كان فقط ثملاً، محروماً من الجسد. يتعرق كما الينبوع، ومن وقت لآخر، كان يهتز من عزم الرجفة.

- يجب أن يذهب هذا الرجل إلى المستشفى.

كانت أوامر خالي موجزة وسريعة. سنذهب جميعاً، سنغادر جميعاً أورشليم قبل أن يستعيد أبي وعيه.

- موانيتو، هيا اذهب لتجلب متاعك. اركض.

ذهبت إلى غرفتي وأنا على أتم الاستعداد لقلبها رأساً على عقب. لكن فجأة تذكرت: ما الذي أملكه؟ كانت أملاكي الوحيدة تُختصر بأوراق اللعب وبرزمة من الأوراق المالية المدفونة في البستان. قررت أن أترك كل هذه الذكريات في مكانها. ستشكل جزءاً من المكان. الأوراق التي خربشت فوقها كانت جزءاً يسيراً من ذاتي التي كنت قد دفنتها في التربة. زرعت نفسي بالكلمات.

- نتونزي، ألن تأخذ حقيبتك؟

- لن آخذ غير الخارطة. وسأترك الباقي.

خرج نتونزي. لم أستطع أن أقاوم الرغبة في إلقاء نظرة على الحقيبة. كانت فارغة، ما عدا قطعة من الورق المقوى المغطى بقماش ومغلق بحبال رفيعة. فككتها، وإذ بعشرات الأوراق تتساقط منها وفوق كل واحدة، كان أخي قد رسم وجوه نساء. كانت عشرات الوجوه، وكلها مختلفة عن بعضها. على زاوية كل ورقة كان قد كتب: «صورة أمي دوردالما». التقطت الرسومات، ووضعتها في جيبي ولذت بالفرار حتى دون أن أنظر إلى الغرفة. ونحن في سن الطفولة نعتقد بأننا لن ننفصل أبداً عن المكان. نعتقد دوماً بأننا سنعود. لا يمكن أن نصدق أبداً بأن هذه هي المرة الأخيرة.

كنت أول من أخذ له مكاناً في الشاحنة. جلس نتونزي بالقرب مني، في الخلف. ظهر زكريا بصورة لم نكن قد رأيناه فيها أبداً. كان يرتدي اللباس المدني للمرة الأولى، ويحمل حقيبة ظهر على كتفيه.

- ألا تحمل إلا هذه يا زكريا؟

- سأعود لاحقاً. الآن نحن على عجلة من أمرنا.

ذهب أبروكزيمادو وزكريا لجلب والدي. كنت أعتقد بأنه سوف يقاوم وهو يرفض بشدة. لكن لا. وصل سيلفستر بخطوات طفل وانقياد تابع. جلس في الأمام وقام بذلك بشكل يشارك فيه مقعده مع البرتغالية.

لهثت الشاحنة في البداية ومن ثم انطلقت ببطء، قاطعة بوابة المعسكر وتاركة وراءها سحابة من غبار ودخان.

جالساً في القمة فوق الأمتعة، كان نتونزي يهلل، ممسكاً كتفيّ بيديه:

– ذاهبون إلى المدينة، يا أخي الصغير، لا أستطيع أن أصدق...

أدرت رأسي: سوف لن يتأخر أخي عن الإجهاش في البكاء فرحاً، وللحظة، لم أرغب إلا في عواطفي غير النظيفة، وهي تمتزج بين السعادة والحنين. قمت بحركة إلى اللقاء، دون أن يخطر ببالي بأن ما من أحد في الجانب الآخر. المخلوق الوحيد الذي كان قد بقي في أورشليم لم يكن بشرياً ولا حياً: إنه جيزابيلا، فليرحمها الله.

– إلى من تقول إلى اللقاء؟

لم أحر جواباً. أنا لا أفصلُ نفسي عن جيزابيلا. أنا آخذ عطلة من نفسي، فقد بقيت طفولتي في الطرف الآخر. لحظة البدء بهذا السفر، توقفت عن كوني طفلاً. بقي موانيتو في أورشليم، وأصبح يلزمني اسم آخر، وتعميد آخر.

استحوذ عليّ المشهد فجأة: بغياب الهواء، والذي تحول إلى مجرد نسيم تطلقه شاحنتنا العجوز، كانت الأشجار من حولنا تنفصل عن الأرض وتمارس طيرانها كما مالك حزين أخضر أخرق.

– انظر يا أخي! إنه مالك الحزين.

لم يسمعني لا نتونزي ولا زكريا. جاءتني عندئذ الفكرة بأن أقوم بتصوير هذا الطيران النباتي. رغبة غريبة: للمرة الأولى لم أعد أكتفي برؤية العالم، أريد الآن رؤية الطريقة التي كنت أنظر فيها إليه.

متكئاً على سقف السيارة، نهضت كي أطلب آلة التصوير من مارتا. وأنا واقف، حدقت في الطريق كما لو أنه، وهو يغيب تحت عجلات الشاحنة، يقطعني إلى نصفين، فاصلاً الفرح عن الحزن.

ألقيت نظرة إلى المقعد الأمامي، فأصابتني الدهشة: كان أبي والبرتغالية يداً بيد، يتشاركان كلاهما حديثاً عن حنين أبكم. لم تأتني الشجاعة بمقاطعة هذا الحوار الصامت. عدت لأجلس، مثل كركوبة بين الكراكيب، بقية من بين البقايا المغبرّة.

مضى يومان بين استراحاتنا القصيرة وهدير محركات العربة. في نهاية اليوم الثاني للسفر، مهدهداً من تأرجح السيارة، لم أعد أنتبه حتى للطريق. أيقظتني صفعات أخي على عجل. كنا نجتاز أول مدينة صغيرة. مبهوراً، رأيت حينئذ الطرقات تمتلئ بالناس. أثملني كل شيء. هذا الجيشان المديني، السيارات، الإعلانات، الباعة المتجولون، الدراجات، الأطفال الذين في مثل سني، والنساء: مجموعات، وباقات، وزوابع، يمتلئن بالثياب، والألوان، مغلفات بإزار كما لو كنّ يَظهرن من الألغاز. أمي، دوردالما: كنت أراها في كل جسد، وكل وجه، وكل قهقهة.

– بابا، انظر إلى الناس.

– أي ناس؟ لا أرى أحداً.

– ألا ترى المنازل، السيارات، والناس؟

– لا شيء إطلاقاً. ألم يسبق وقلت لكم بأن كل شيء قد مات، فارغاً؟

هل يتظاهر بالعمى؟ أم إنه أصبح كذلك بسبب لدغة الأفعى؟ بينما كان سيلفستر يتكور على نفسه في المقعد، راحت مارتا تلوح بهاتفها المحمول خارج النافذة، وتوجهه في اتجاهات مختلفة.

– ماذا تفعلين، دونا مارتا؟ سأل زكريا.

– أنظرُ إن كان لدي شبكة، أجابت.

أجبروها على إدخال ذراعها. بيد أنها وعلى طول الطريق كانت ذراع مارتا تدور كهوائي الدّورية. كانت السويداء هي من يقود يدها بحثاً عن إشارة من البرتغال، عمن يعانقها، عن كلمة تختلسها من الجغرافيا.

– ومتى سنصل، زاكا؟

– وصلنا منذ زمن طويل.

– وصلنا إلى المدينة؟

– هذه هي المدينة.

وصلنا دون أن تلفت انتباهي نهاية العالم الريفي.لم يكن هناك حدود واضحة.فقط مجرد انتقال في الكثافة، فوضى تتكثف: لا شيء

أكثر من ذلك. في مقصورة السيارة وبإيماءات جنائزية من رأسه كان أبي يئن:

– كل شيء قد مات، كل شيء قد مات.

هناك من مات ودُفن كما جيزابيلا. لكن المدن كانت تموت وتتفسخ تحت أبصارنا، منزوعة الأحشاء. تنشر الرائحة الكريهة في داخلنا. المدن تتفسخ في داخلنا. هذا ما كان يقوله سيلفستر.

عند مدخل المستشفى القديم، رفض والدي النزول من السيارة.

– لماذا تريدون قتلي؟

– ما هذا الكلام، يا صهري؟

– إنها مقبرة، أعرف ذلك جيداً.

ذهبت جهود العائلة لجعله يترك السيارة أدراج الرياح. جلس أبروكزيمادو على الرصيف، ورأسه بين يديه، وزكريا يفتش عن كيفية إخراجنا من الورطة. بما أن العجوز سيلفستر لم يكن قد مات بعد، فقد فقدت الحالة وضعيتها الطارئة. ليس لدينا غير الذهاب إلى المنزل. سوف نرسل في طلب الجارة إزميرالدا، التي كانت ممرضة كي تساعدني في البيت.

– لنذهب إلى بيتنا، بالتأكيدّ. أكدّ مرة أخرى نتونزي بحماس.

كان وقع الكلمة غريباً على أذني. ضمن هذا النطاق، كان الجميع في حالة عودة، إلا أنا. المنزل الذي ولدت فيه لم يكن بيتي على

الإطلاق. أطلال أورشليم كانت هي بيتي الوحيد. بقربي، بدا زكريا وكأنه سمع خشيتي الصامتة:

– سوف ترى بأنك ما زلت تذكر المكان الذي ولدت فيه.

وأنا أتأمل واجهة المنزل، تأكدت بأن لا شيء هنا له صدى في نفسي. بدا وكأن الأمر نفسه قد حدث مع سيلفستر. فتح أبروكزيمادو الأقفال المتعددة التي كانت تغلق أبواب البوابات. أثناء هذه العملية، احتفظ أبي بعينيه مخفضتين كسجين أمام زنزانته القادمة.

– إنها مفتوحة، أعلن أبروكزيمادو. ادخل أنت أولاً سيلفستر. أعيش أنا هنا، ومعي المفاتيح. لكن أنت مالك البيت.

دون أن يتفوه بكلمة، أومأ سيلفستر بحركات فقط، بأن لا أحد، ما عدا هو وأنا، سنعبر هذا الباب. تبعته محمياً بظله، لا نسحق إلا الغبار الذي كان قد سبق ووُطئ.

– بدايةً، الأوامر، قال لي وهو يملأ رئتيه بالهواء.

وبعينين مغلقتين راح يتشمم رائحة، كانت غير موجودة بالنسبة إليّ،تُشعل الذكريات في قلبه.بقي واقفاً وسط الغرفة، وصدره منفوخ.

– إنه كما الفاكهة. ندخله بأنفنا.

ثم كانت الأصابع. لم يعد لديه غير اليد التي كانت الأفعى قد تجنبتها. هذه الأصابع نفسها بدأت تربت على الأثاث والجدران والنوافذ. كما لو أنه كان يتعرف على جسده الخاص بعد فترة طويلة من السبات.

أعترف: حاولت القيام بجهد دون جدوى، فالبيت الذي ولدت فيه بقي بالنسبة لي غريباً. لا غرفة، ولا غرضاً، جعلاني أتذكر سنواتي الثلاث الأولى.

– قل يا ولدي، أنا مت بالفعل. وهذا نعشي أليس كذلك؟

ساعدته ليستلقي على الأريكة. طلب الصمت وتركت البيت يحكي معه. وبينما بدا وكأنه قد استسلم للنوم، استيقظ منتفضاً كي يسحب الرباط الذي يلف يده.

– انظر يا ولدي! ناداني ويده ممدودة باتجاهي.

لم يكن هناك من جرح. ولا انتفاخ، ولا أي أثر. طلب مني أخذ الرباط إلى المطبخ وحرقه. لم أكن قد وجدت بعد طريق المر حتى سمعت صوته من جديد:

– لا أريد ممرضة ولا أية غريبة في هذا البيت. وأقل من ذلك الجيران.

للمرة الأولى كان سيلفستر يعترف بوجود الآخرين فيما وراء مسكننا الصغير.

– يسكن الشيطان دوماً بين الجيران.

وقف زكريا جانباً. بقينا جميعاً في المنزل القديم. كان أبروكزيمادو يشغل غرفة والديّ، والتي كان ينام فيها مع نوسي. وشارك أبي نتونزي غرفته. وأنا تشاركت بغرفتي مع مارتا.

– هذا فقط لبعض الوقت، قال أبروكزيمادو.

كان هناك ستارة تفصل بين السريرين، حفاظاً على الحميمية.

عند وصولنا، كانت نوسي لم تزل بعد في عملها. في المساء، عندما عادت إلى المنزل، استلقت مارتا وتظاهرت بالنوم. أيقظتها نوسي بلمسة على شعرها. تعانقتا وبكتا بأسى، الواحدة على كتف الأخرى.عندما تمكنتا من الكلام، قالت الفتاة الشابة:

– لقد كذبت عليك، مارتا.

– كنت أعرف.

– كنت تعرفين؟ منذ متى؟

– منذ أن رأيتك في المرة الأولى.

– كان مريضاً، مريضاً جداً. لم يكن يرغب في أن يراه أحد. زيادة على أني قد جئت متأخرة جداً. لو كنت قد رأيته في أيامه الأخيرة لما كنت بالتأكيد قد تعرفت عليه...

– أين دفنوه؟

– من هنا. في مقبرة على مقربة من هنا.

أدارت أصابع الغريبة خاتماً من الفضة في أصبع نوسي. ودون أن تسأل، كانت مارتا تعرف بأنه كان هدية من مارسيلو.

– أتدرين يا نوسي؟ بقائي هناك في المحمية جعلني أشعر بحال أفضل.

شرحت البرتغالية: الذهاب إلى أورشليم كان يعني بطريقة ما الذهاب للقاء مارسيلو. كان السفر مرمماً للنفس مثله مثل نوم عميق.

باشتراكي بهذه الخدعة بنهاية العالم، تعلمت الموت دون حداد والرحيل دون فراق.

– أتعلمين يا نوسي، لقد رأيت نساءً يغسلن ثياب مارسيلو.

– هذا غير ممكن...

– أعرف، لكن بالنسبة إليّ هذه القمصان كانت قمصانه...

كل الثياب الطافية في التيار المائي لا زالت تخص مارسيلو. حتى مادة أنهار العالم كلها، ستكون مؤلفة من ذكريات تعاند الزمن. لكن أنهار البرتغالية كانت قد غدت على نحو متزايد أنهار أفريقيا: المزيد من الرمال بدلاً من المياه، والمزيد من الغضب الأرضي بدلاً من السيول العذبة واللطيفة.

– غداً سنذهب معاً إلى المقبرة.

في صباح اليوم التالي تركوني في البيت كي أعتني بوالدي. نهض سيلفستر في وقت متأخر، ناداني وما زال جالساً في سريره. عندما حضرت، كان يعاين جسده. كان هذا هو حاله منذ زمن: يجب الانتظار بعض الوقت قبل أن يبدأ أبي الكلام:

– أنت تشغل لي بالي، موانيتو.

– ولم يا أبي؟

– أنت يا ولدي، ولدت بقلب كبير ولست قادراً على أن تكره بقلب كهذا. وكي تكون محبوباً، يحتاج هذا العالم إلى الكثير من الكراهية.

– اعذرني يا أبي، لم أفهم شيئاً.

- انس الأمر. إليك ما أريده منك: إن أرادوا نقلي من هنا، إلى المدينة، لا تتركهم يقومون بذلك يا بني، أتعدني؟

- أعدك يا بابا.

وأوضح بأن الأفعى لم تصب يده فقط بالضرر، بل هي لدغته في كل جزء من جسده. كل المناظر المحيطة تؤذيه، المدينة بحد ذاتها تجعله يتألم، بؤس الشوارع يؤذيه أكثر من دمه الملوث.

- هل رأيت كيف أن الترف المخزي يتكئ على البؤس.

- كذبت وقلت: نعم

- لهذا لا أريد الخروج.

وهبته أورشليم النسيان. وأعاد إليه سمّ الأفعى الزمن. والمدينة جعلته أعمى.

- ألا ترغب في الخروج مثلما يفعل أخوك نتونزي؟

- كلا.

- لماذا؟

- هنا لا يوجد أنهار.

- لماذا لا تفعل مثل نتونزي، الذي لا يثبت في مكان، ودوماً من التلال إلى الوديان.

- لا أعرف كيف أمشي... لا أعرف كيف أسير هنا.

- يا ولدي، أشعر بالذنب لذلك. أنت عجوز جداً. عجوز مثلي.

نهضت وذهبت أمام المرآة. كنت طفلاً وجسدي كان لا يزال ينمو. مع ذلك فوالدي كان محقاً: كان التعب يثقل عليّ. وصلتني الشيخوخة دون أن أستحقها. كنت ذاوياً على الرغم من سني الحادي عشر. مستهلكاً من الهذيان الأبوي. صحيح، كان أبي محقاً، فالذي لم يسبق له أبداً أن كان طفلاً، لا يحتاج مطلقاً إلى الزمن كي يشيخ.

– خبأت عنك أمراً ما، هناك في أورشليم.

– خبأت عني العالم بأسره.

– هناك شيء لم أفصح لك عنه.

– بابا، لنترك أورشليم في حالها، نحن هنا الآن...

– في يوم ما سوف تعود إلى هناك.

– إلى أورشليم؟

– نعم، فتلك هي أرضك، ديدنك. أتعلم يا بني؟ هذا المكان مملوء بالمعجزات.

– لم يسبق لي أن رأيت أي واحدة.

هي متناهية الصغر بحيث لا يمكن للمرء أن يدرك بأنها تحصل.

كنا قد وصلنا إلى المدينة منذ ثلاثة أيام، وسيلفستر لم يفتح حتى الستائر. كان البيت ملاذه الجديد، أورشليمه الجديدة. لا أعرف كيف نجحت مارتا ونوسي، بعد ظهر هذا اليوم، في جعل أبي يخرج. اعتقدن بأن رؤية قبر زوجته سيجعله يشعر بالراحة. رافقتهم وأنا أحمل الأزهار، مختتماً الموكب الذي كان يسير على الأقدام باتجاه المقبرة.

ونحن واقفون بمحاذاة قبر أمي، بقي سيلفستر هادئ الأعصاب، خاوياً وغريباً عن كل شيء. وضعت مارتا بين يديه باقة الأزهار وطلبت منه وضعها على القبر. كان أبي عاجزاً عن الإمساك حتى بالأزهار. بسقوطها على الأرض، تناثرت الزهور. في هذه الأثناء انضم خالي إلينا. كشف عن رأسه وتريث في مكانه، باحترام وعينين مغلقتين.

- أريد رؤية الشجرة. قال سيلفستر كاسراً الصمت.

- هيا بنا، أجاب أبروكزيمادو. سآخذك لترى الشجرة.

واتجهنا نحو الأرض البور التي قرب بيتنا. كان هناك شجرة «كاسواريانا»[26] وحيدة، سامقة تجابه السماء. وقع سيلفستر على ركبتيه بالقرب من الجذر القديم. ودعاني ليجعلني أرى القمة:

- هذه الشجرة يا ولدي، هذه الشجرة هي روح دوردالما.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

---

[26]: Casuariana: كاسواريانا، أو ذيل الحصان، الصنوبر الأسترالي. شجرة استوائية توجد في أستراليا وجنوب شرق آسيا، وسواحل إندونيسيا وماليزيا...

إنها عبارة عن رصاصة

كي أجتاز معك قفار العالم
كي نجابه معاً رعب الموت
كي نرى الحقيقة ولا نعود نشعر بالخوف
وراء خطواتك مشيت.
لأجلك، غادرت مملكتي وسري الخاص بي
ليلي الحثيث وصمتي
لؤلؤتي المستديرة وشرفها
مرآتي، حياتي، وصورتي
وهجرت بساتين الجنان
في الخارج في الضوء دون وشاح ليوم عمل شاق
دون مرآة، رأيت نفسي عارية
والسهوب كانت بالنسبة لنا الزمن
أيضاً فقد ألبستني بلفتاتك
وتعلمت العيش في مهب الريح.

«صوفيا دي ماللو أندرسن»

نحن مخلوقات نهارية، لكن الليل هو الذي يحدد مكاننا. ووحده بيت طفولتنا يُؤوي بشكل حسن ليالينا. كنت قد ولدت في المكان الذي نسكنه حالياً، لكن بيتي لم يكن هذا، فليس هنا هو المكان الذي يغلبني فيه النوم بحنان. كل شيء في هذا السكن كان غريباً عني. مع ذلك، يبدو أن نومي قد أدرك شيئاً مألوفاً في هذا الهدوء. لهذا دون شك حلمت ذات مساء. حلمت كما لم أحلم في أي وقت مضى، بأني قد وقعت في هوة عميقة وعبرت بحاراً ووابلاً مدراراً من أمطار غزيرة. حلمت بأن أورشليم تغرق. في البداية هطل المطر على الرمل ومن ثم على الأشجار. وفي المطر نفسه أصبح المعسكر قاع النهر، وحتى الكرة الأرضية أصبحت عاجزة عن احتواء كمية المياه تلك.

انزلقت أوراقي من مخبئها ووصلت إلى سطح الأرض كي تطفو بعدئذ على وجه المياه الصاخبة للنهر. اقتربت من الشاطئ كي أُلملمها وما إن أصبحت بين يديّ، إليكم ما حدث فجأة: تحولت الأوراق إلى ثياب. كانت الثياب المبللة لملوك، لخدم وسيدات. كل عاهل من أولئك الملوك

الذين على ورقة اللعب تقدم نحوي، وقدم لي معطفه.تابعوا نـزولهم إلى النهر وهم عراة تماماً، حتى اختفائهم في المياه الراكدة.

كانت ثيابهم وهي بين ذراعيّ ثقيلة جداً بشكل ارتأيت معه أن أقوم بعصرها بغية تنشيفها. لكن، عندما جفّت، وقعت رسائل منها، وراحت كل واحدة.تدّوم على السطح وتندفع نحو التيار. حين سقطت آخر رسالة، تبخرت الثياب، واختفت.

– مارسيلو

كانت تلك مارتا، التي كانت قد وصلت لتوها إلى الشاطئ. وكما لو انبثقت من السحاب، لحقت بالتيار بحثاً عن أثر الرسائل. كانت تصرخ باسم مارسيلو بينما قدماها تشقان الماء بصعوبة، واختفت فيما وراء منحنى النهر.

عند عودتي إلى المنزل، استقصى العجوز سيلفستر عن البرتغالية بقلق غريب. أظهرت له الضباب في مجرى النهر. قفز واقفاً، وارتمى خارج جسده، كما لو أنه قد وُلد للمرة الثانية.

– أنا ذاهب إلى هناك. صاح قائلاً.

– إلى أين، بابا؟

لم يحر جواباً. رأيته يبتعد، مترنحاً باتجاه الوادي، وغاب في كثافة الشجيرات. مضت فترة وكنت شبه نائم، مهدهداً بالغناء اللطيف للسُبَد[27]. فجأة صدر حفيف في الغابة جعلني أقفز. كان أبي والبرتغالية يقتربان وهما متكئان واحدهما على الآخر. كان كلاهما مبللين. هرعت لمساعدتهما، كان سيلفستر يحتاج للمساعدة أكثر من الغريبة، يتنفس بصعوبة، كما لو أنه يبتلع السماء برشفات. كانت البرتغالية هي من تكلم:

– والدك أنقذني.

ما كنت غير قادرٍ على تخيله كان شجاعة سيلفستر. كيف رمى بنفسه في النهر الهائج، كيف خاض ضد التيار وإرادة الموت كي ينقذها من الغرق.

– كنت أرغب في الموت في نهر، نهر ينبع من بلدي ويصب في نهاية العالم.

هكذا تحدثت البرتغالية، وعيناها مثبتتان على النافذة

– ثم أضافت: الآن دعني. أريد البقاء وحدي مع والدك.

خرجت وأنا مصاب بحزن غريب. عندما نظرت من النافذة، رأيت أمي تنحني على زوجها العجوز، أمي وقد عادت من السماوات والأنهار حيث بقيت فيها كل حياتها. طرقت على زجاج النافذة، منادياً تقريباً دون صوت: ماما!

---

[27] جنس طير من رتبة الجواثم يصطاد الحشرات ليلاً. (المترجم)

لمستني يد أنثوية وقبل أن ألتفت، غطّ جسد عصفور كتفيّ. لنت، وذبت، ولم أقاوم حتى عندما شعرت بأني مخطوف، وقدماي تنفصلان عن الأرض، والأرض تفقد من ارتفاعها، تتصغر هناك في الأسفل، مثل بالون مثقوب.

رفعت رأسي نحو صنبور المغسلة كما لو كان باستطاعة الماء وحده أن يخلصني من حلمي. دون أن أغتسل، نظرت إلى الشارع حيث تتدفق المدينة. لماذا أحلم بمارتا منذ اجتياحها المنزل الكبير في أورشليم؟ الحقيقة هي أن المرأة قد اجتاحتني كما الشمس تملأ بيوتنا. لم يكن هناك من وسيلة للابتعاد أو لمنع هذا الفيضان، وليس هناك من ستائر كي أردّ هذا الضياء.

كان التفسير دون شك مختلفاً، فالمرأة ربما كانت في داخلي حتى قبل وصولها إلى أورشليم. أو ربما كان نتونزي على حق عندما حذّرني قائلاً: لا أحد يُعلّم المياه، هي كالنساء، تعرف أشياء هكذا بالفطرة. شيء لا يمكن تفسيره، أيضاً يجب أخذ الحذر من مخلوقين: المرأة والمياه. فهما بالتأكيد تحذير من حلم.

بعد زيارته المقبرة لم يعد سيلفستر هو نفسه. أصبح مجرد إنسان آلي دون روح ولا صوت. اعتقدنا أيضاً بأن ذلك يعود إلى عقبولة لدغة

الأفعى، لكن المرضة نحّت هذا التفسير جانباً. كان سيلفستر قد نُفي من داخل نفسه، أبعدته أورشليم عن العالم، والمدينة سلبته من نفسه.

اقترح أبروكزيمادو قائلاً بأن طرقات الحي صغيرة، والحركة فيها شديدة. لماذا لا أذهب مع أبي لأرى إن كان يُغيّر من أفكاره. اليوم أصبحت أعرف: لا يوجد طريق صغير. كل الطرقات تخبئ قصصاً لانهائية، تخفي جميعها أسراراً لا يمكن سبرها.

ذات يوم، ونحن نتنزه، شعرت بأبي يدفعني برفق ليدلني على الاتجاه. مررنا أمام كنيسة مشيخية في الوقت الذي كان يُقام فيها القداس. سمعنا الجوقة ترتل، وصوت بيانو أخنّ. توقف سيلفستر واجتاح وميض عينيه. جلس على درج المدخل ويداه مفتوحتان على قلبه.

– اتركني هنا موانيتو.

لم يكن قد تكلم منذ زمن طويل بحيث أصبح صوته تقريباً غير مسموع. وهنا، في هذه الزاوية المنعزلة والباردة بقي لساعات صامتاً وجامداً. لم يتحرك حتى عندما انتهى القداس، وغادر كل الناس. بعض الأشخاص، الأكبر منه سناً، مرّوا بالقرب منه وسلّموا عليه. فلم يرد السلام على أيٍ منهم. كان الشارع مظلماً ومقفراً عندما ألححت عليه قائلاً:

– بابا، هيا نعُد، إن سمحت.

- أنا باقٍ هنا.

- لقد حلّ الليل، لنعد إلى البيت.

- أنا باقٍ لأعيش هنا.

كنت أعرف عناد أبي. عدت وحدي وأخبرت أخي وأبروكزيمادو عن قرار العجوز. أجاب خالي:

- لنترك رجلنا ينام هذا المساء هناك.

- تحت السماء العارية؟

- منذ زمن طويل وهو ليس في منزله.

باكراً في الصباح، كنت في الطريق لأستعلم عن أخبار أبي. وجدته كما تركته، لم يغير من وضعيته، يلوذ بالدرج كما في الأمس. أيقظته وأنا ألمسه برفق من كتفه:

- تعال يا أبي. غداً نعود مرة أخرى لنسمع التراتيل.

- غداً؟ ومتى سيأتي هذا الغد؟

- قريباً يا أبي. تعال، سآتي بك مرة أخرى إلى هنا.

خلال أسابيع، وكل يوم في نفس الموعد، كنت أرافق أبي إلى درجات الكنيسة، تماماً قبل أن تتصاعد الأصوات في تناغم نحو السماوات. وفي كل مرة كنت أحاول الانسحاب كانت ذراعه تمسك بي. صامتاً، ودون أن يحرك إصبعاً كان يريد مشاركتي في هذه اللحظة. كان يريد أن يعيد خلق الأرضية كي ينام صمتنا. حتى يوم فهمت بأنه كان

يتمتم كلمات الترتيلة، دون صوت. كان سيلفستر يشارك الجوقة التي كان يغني فيها. كانت كلماته تصعد إلى السماء دون أن يثير انتباه أحد. كانت سماء مستكينة دون نَفَس. لكنها كانت بداية المطلق.

استيقظت على أصوات نسائية. ألقيت نظرة من النافذة، فرأيت العشرات منهن، يملأن الشارع ويقطعن حركة السير. كنّ يصرخن بكلمات آمرة، ملوحات بلافتات كُتب عليها «أوقفوا العنف ضد النساء!» بين الحشد، رأيت زكريا كالاش يشق له طريقاً ليصل إلى مسكننا. فتحت الباب، ودون أن يأخذ الإذن بالدخول، اندفع إلى الداخل كما لو كان يبحث له عن ملجأ.

– الإضراب الذي تقوم به هؤلاء الغانيات! نوسي هناك، مهتاجة بشدة.

كان يرتدي الزي العسكري ويحمل حقيبة وكيساً. أخذته إلى المطبخ الذي كان، لنقل، بمثابة الصالون منذ وصولنا ذي التوقيت غير المناسب.

– أين أخوك؟ سألني.

كان نتونزي قد عاد إلى المنزل منذ ما يزيد عن الساعة بعد قضائه ليلة بيضاء. نام بكامل ثيابه التي تفوح منها رائحة السجائر والكحول. منذ وصولنا، لم تطأ قدما نتونزي البيت. ليلة بعد أخرى، كان يتيه

برفقة أناس كان الخال أبروكزيمادو يقيّمهم قائلاً «ممن لا يُنصح بهم أبداً».

– لم يزل نائماً...

– حسناً إذن، اذهب وادعه.

انتظر زكريا واقفاً في المطبخ. كان يغلق ويفتح الستائر كما لو كانت الحركة في الشارع تزعجه: «هذا العالم سخيف!» كنت أسمعه يتذمر قائلاً. تعثرت في عتمة الغرفة، ورحت أهزّ نتونزي وأرجوه بأن يُسرع. عندما عدت إلى المطبخ فاجأت الجندي وهو يقدم لنفسه زجاجة من البيرة:

– سأعود إلى القدس. جئت لأقول لكم وداعاً.

كان الجميع قد وجد مكانه. وأنا كنت قد وجدت من جديد منزلي الأول.واتخذ أبي إقامته في الجنون. وحده زكريا لم يجد له مكاناً في المدينة.

– ستذهب نهائياً، زاكا؟

– كلا. فقط حتى أنهي بعض الالتزامات.

– وماذا ستصنع في أورشليم؟

– سوف لن أصنع، بل سأهدم...

– وكيف ذلك؟

– سأفجّر الترسانة، وأطمر الأسلحة...

– أنت لا تريد أن يكون هناك حرب بعد الآن، أليس كذلك؟

كست وجهه ابتسامة حزينة، شبه مبهمة. بدا وكأنه يخشى الجواب. أدار بإصبعه حول حافة كأسه لينتزع زبد البيرة.

– أتدري يا موانيتو؟ ذهبت إلى الحرب كي أقتل أحداً ما. ورسم بذراعه حضوراً مبهماً.

– أحد ما.

– أحد ما في داخلي.

– وهل قتلته؟

– كلا.

– والآن؟

– الآن فات الأوان كثيراً. وهذا الشخص هو من قتلني بالفعل.

– عندما كان يافعاً، في مثل سني، كان يرغب في أن يصبح رجل إطفاء، وينقذ السكان من البيوت المشتعلة. انتهى الأمر بأن أشعل هو النار في البيوت المأهولة... جندي حروب عديدة، جندي دون أي مبرر. يدافع عن الوطن؟ لكن الوطن الذي دافع عنه لم يكن وطنه على الإطلاق. هكذا تحدث الجندي كالاش، وهو يعلّب كلماته كما لو أنه مستعجل للانتهاء منها نتيجة هذا الكشف الحميمي.

– أتدري موانيتو؟ أكثر من أي مكان آخر، كانت أورشليم هي وطني. لكن في النهاية، لا تجعل الأفراس المتعبة رحى الطاحونة تدور...

قطع دخول نتونزي حديثنا وهو بعينيّ الأمس، وشَعر كأنه قادم من عراك، وخطوات شبه نائمة. دون حتى أن يرمي زكريا عليه السلام، فتح حقيبته، وسحب منها حقيبة ظهر، ورماها بين يديّ القادم الجديد.

– احملها إلى غرفتك واحزم أغراضك.

– أحزم أمتعتي؟ لماذا؟

– ستأتي معي إلى أورشليم.

– أين؟ ردّ وهو يقهقه ليؤكد بعد ذلك، وهو متوتر تماماً: انسَ، زكريا، لن أخرج من هنا، حتى ميتاً.

– سنبقى هناك بضعة أيام.

كنت أعرف طريقة تطور الحديث في قبيلتنا الصغيرة. واعياً بأن الضغط لن يتأخر في التحول إلى صراع، تدخلت لتهدئة الوضع:

– هيا نتونزي. ليس من الصعب مرافقة زكريا، فالأمر لا يتعدى الذهاب والعودة.

– فليذهب وحده.

نهض زكريا ووقف في مواجهة نتونزي، بينما كان يسحب مسدسه من غمده. تراجعت خشية حدوث الأسوأ. لكن كان في نبرة صوته سمّو رغبات متكدسّة عندما قال:

– خذ هذا المسدس.

اضطرب أخي كطفل رضيع، وبقي فاغر الفم، ويده المخدّرة بالكاد تستطيع الإمساك بالسلاح الثقيل. تراجع زكريا خطوة وتأمل وجه نتونزي المثير للشفقة:

– أنت لا تفهم يا نتونزي.

– لا أفهم ماذا؟

– ستكون جندياً. لهذا السبب جئت لأخذك.

انهار نتونزي فوق كرسي، وعيناه غارقتان في العدم. بقي لبرهة على هذه الحال حتى التقط زكريا المسدس وساعده على حمله من جديد.

– ما يحدث هنا، في المدينة، كان مقدراً له الحدوث. لن أتركك وحدك هنا يوماً واحداً آخر.

– لن أذهب إلى أي مكان. وأنا لا أتلقى أوامر منك، سأنادي على أبي.

تبعنا أخي إلى ممر البيت. فُتح باب الغرفة فجأة، لكن سيلفستر لم يرمش له جفن أمام الصخب. وضع الجندي حداً للنقاش بصرخة:

– ستأتي معي. أنا آمرك.

– أبي هو الوحيد الذي يعطيني الأوامر هنا.

فجأة، رفع سيلفستر ذراعه. أراد عجوزنا أن يتكلم. وشوش قائلاً:

– اخرجوا جميعاً. وأنت يا نتونزي ابق.

انسحبنا، أنا وزكريا وعدنا لنتخذ أماكننا حول طاولة المطبخ. فتح زكريا زجاجة بيرة ثانية وشرب دون أن يتفوه بحرف.

في الخارج، كنا نسمع هتاف المتظاهرات: «اشجبن أيتها النسوة! اشجبن!».

– أغلق الباب كي لا يسمع أبوك.

بعودتنا إلى المطبخ، ظهر نتونزي وقد بدا كأنه قد وقع على بطنه وبدت حدبة على ظهره. اقترب مني وهو منحنٍ تحت ثقل ما كان يحمل:

– الوداع يا أخي.

طوقته، لكن يديّ كانتا صغيرتين لحضن حجم كهذا. داعبت يديّ قماش حقيبة الظهر كما لو كانت جسد نتونزي. ثم اتجه كلاهما نحو الباب، وبقيت أنظر إلى أخي وهو يبتعد كما لو كان الطريق قدره المحتوم. وببطء، فتحا طريقاً من بين صفوف المعتصمات. بمراقبتي جيداً لطريقة سيره بدا لي أنه، وعلى الرغم من فمه المتخشب من شرب كحول ليلة الأمس، كأنه يسير بخطوات متماثلة طبق الأصل عن خطوات زكريا.

وأنا أسحب الستارة، لمحت نوسي تومئ لي بإشارة. كانت تدعوني للنزول والانضمام إلى المظاهرة. ابتسمت محرجاً.

مرت أيام لم أقم خلالها بأي شيء إلا بلعب دور الأب لأبي. كنت أعتني به، وآخذه إلى الأماكن التي كان يستجيب لها كالأعمى.

إلى يوم استلمت فيه مظروفاً مغلقاً. عرفت خط مارتا. كانت تلك أول رسالة يكتبها لي أحدهم على الإطلاق.

الشجرة الساكنة

رعب أن أحبك في هذا المكان الهش
الذي هو العالم
من المؤلم أن أحبك على هذه الأرض
المعيبة
حيث الكل يجرحنا ويجعلنا صامتين
حيث الكل يكذب ويفرقنا».

«صوفيا دي ماللو أندرسن»

«أكتب لك هذه الرسالة يا عزيزي موانيتو، بعد أن جرى فراقنا دون أي إشارة وداع. في آخر يوم رأينا فيه بعضنا، حكيت لي عن حلم كان والدك قد أنقذني فيه من الغرق في النهر. إذا ما اعتبرنا بأن الحياة هي نهر، فحلمك يكون صحيحاً. فأورشليم قد أنقذتني. علمني سيلفستر أن أجد مارسيلو حيّاً في كل مكان، في كل ما يولد.

لم أكن أريد على الإطلاق معرفة كيف مات مارسيلو. مات بسبب مرض، واكتفيت بهذا التفسير. يوم رحيلي في المطار، حكت لي نوسي عن تفاصيل آخر رحلة قام بها زوجي. بعد أن تركه أبروكزيمادو قرب البوابة، كان مارسيلو قد تجول على غير هدى أياماً إلى أن تعرض إلى وابل من الرصاص في كمين. كنا قد تخيلنا رحلته الاستكشافية من الصور التي بقيت في فيلم آلته التصوير. قدّمت لي نوسي هذا الفيلم بالأبيض والأسود. لم يكن الأمر، كما كنت أعتقد، بأنها صورٌ لمالك الحزين أو مناظر طبيعية. بل كان تقريراً عن نهايته الخاصة، نشرة يومية مصورة عن تدهوره. من هذا الشاهد يعرف المرء بأنه كان يريد الانفصال عن نفسه ذاتها. في البداية، بسيره وهو أشعث الشعر ودون

ملابس. ثم، بقربه أكثر فأكثر من البهائم، وهو يشرب ماء المستنقعات، ويأكل لحماً نيئاً. عندما قضوا عليه، كانوا يعتبرونه حيواناً متوحشاً. لم يكن هؤلاء الذين يتحاربون هم من قتلوه. بل الصيادون. زوجي يا عزيزي موانيتو، اختار هذا النوع من الانتحار. عندما سيأتي الموت، لن يكون أبداً ككائن بشري. وهو سيشعر بنفسه بالتالي بأنه غير ميت.

لم تكن القارة هي من ابتلع مارسيلو، بل هي تلك الشياطين الداخلية التي التهمته. تلك الشياطين التي اختفت عندما، قبل عودتي تماماً إلى ليزبون، قامت بإحراق صوره التي أعطتني إياها نوسي.

لا تجري الحياة إلا عندما نتوقف عن فهمها. في هذه الفترات الأخيرة يا عزيزي موانيتو، أنا بعيدة كل البعد عن أي إدراك. لم أكن لأتخيل يوماً بأني سأسافر إلى أفريقيا. اليوم، لم أعد أعرف كيف سأعود إلى أوروبا. أريد العودة إلى ليزبون، نعم، لكن دون ذكرى بأني قد عشت فيها يوماً. لا رغبة لي في التعرف إلى الناس، ولا إلى الأمكنة، ولا حتى إلى اللغة التي تعطينا إمكانية التواصل مع الآخر. لهذا فأنا شعرت بالراحة التامة في أورشليم: كل شيء كان غريباً، ولم يكن لدي مساءلة عمن أكون، ولا عن المصير الذي يجب عليّ اختياره. في أورشليم، أصبحت روحي خفيفة، خالية من العظام، أصبحت أختاً لمالك الحزين.

يعود الفضل في كل ذلك إلى والدك سيلفستر. أدنته لأنه قادكم إلى صحراء. مع ذلك، فالحقيقة هي أنه قد قام بترميم منطقته الخاصة به. نتونزي كان يقول بأن أورشليم مشيدة على خداعٍ، أنشأه رجل مريض. نعم، كانت تلك كذبة. إلا أنه، وبما أننا كنا سنعيش في الكذب، فليكن ذلك ضمن منطقة كذبنا الخاص بنا. في النهاية، لم يكن سيلفستر يكذب كثيراً في رؤيته المرَوّعة. لأنه كان محقاً: ينتهي العالم عندما لم يعد بمقدورنا أن نحبه.

ثم إن الجنون ليس من الضروري أن يكون مرضاً دائماً. أحياناً، يكون خطوة شجاعة. أبوك يا عزيزي موانيتو، كانت لديه تلك الشجاعة التي تنقصنا. بعدما خسر كل شيء، عاد ليبدأ كل شيء من جديد. على الرغم من أن هذا الكل شيء لا يعني شيئاً بالنسبة للآخرين.

هذا هو الدرس الذي تعلمته في أورشليم: لم توجد الحياة لتكون صغيرة ووجيزة، ولا وُجد العالم كي نقيسه.

عندما بدأت بقراءة الملصقات على صناديق الأسلحة، فأنت لم تتعلم في الأساس الحروف. كان التعليم شيئاً آخر. يمكن للكلمات أن تصبح السهم الذي يربط الموت بالحياة. لهذا السبب كتبت إليك. لا يوجد موت في هذه الرسالة، إنما وداع الذي هو عبارة عن طريقة موت صغيرة. أتتذكر ما كان يقول زكريا؟: «كان لي قتلاي، ولحسن الحظ فهم كلهم عابرون». موتي الوحيد كان ذاك الذي لمارسيلو. نعم، هذا حلّ عقدتي

الأولى. لا أعرف إن كان مارسيلو هو حب حياتي. لكنه كان عمراً من الحب.من يحب، يحب إلى الأبد. لا تقم بأي شيء إلى الأبد، ما عدا أن تحب.

غير أني لم أكتب إليك لأحكي عن نفسي. إنما عن أمك دوردالما. كنت قد تحدثت مع أبروكزيمادو، زكريا، ونوسي، والجيران. قصّ عليّ الجميع فتاتاً من حكاية. واجبي هو أن أقوم بترميم هذا الماضي الذي سُرق منك. يقولون بأن قصة حياة شخص ما تُستهلك حين سرد نهايتها. هذه هي قصة الأيام الأخيرة لـ دوردالما. بدءاً من ضياعها في الحياة، حتى الطريقة التي فقدت فيها حياتها.

كان ذلك في يوم أربعاء، وقد خرجت دوردالما من المنزل كما لم تفعل ذلك في حياتها على الإطلاق: كي تكون مثار لفت النظر والطمع بها، كانت قد ارتدت ثوباً يُعمي الميت، ذا تقويرة منخفضة، كما يجعل الأعمى يبصر السماء. من شدة لفت النظر إليها لم ينتبه أحد إلى الحقيبة الصغيرة التي كانت تحملها، بلامبالاة طفل في أول يوم له في المدرسة.

بدأت بهذه الطريقة، لأنك أنت موانيتو، لا تتخيل كم كانت أمك جميلة. لم تكن جميلة في وجهها، في قوامها، في ساقيها الرشيقتين والمتقنتي الصنع. كانت كلها على بعضها جميلة. في البيت، لم تكن دوردالما أكثر من رماد، مطفأة وباردة. سنوات الوحدة وانعدام الثقة أهلّتها لأن تكون لا أحد، بسيطة بساطة السكان الأصليين للصمت. بيد

أنها، في مرات عديدة لا حصر لها، كانت تنتقم لنفسها أمام المرآة. وهنا، أمام مرآة الزينة، كانت تنتفخ بالظهور. تبدو، لا أعرف، مكعباً من الثلج في كأس، يحوم حول السطح، يتربع على عرش أول مكان حتى اللحظة التي يعود فيها ماءً.

لنعد إلى البداية: في يوم الأربعاء ذاك، خرجت أمك من المنزل مرتدية بطريقة تنشر فيها الفوضى في كل من يراها. لم تعتبر نظرات الجيران تكريماً لجمالها. وتنهدت: النساء للغيرة؛ والرجال للشهوات. نفس العروق المنتفخة التي تغزو عيون الحيوانات المفترسة كانت تلمع في عنابر الرجال.

إليك الوقائع، حقيقية وعارية. في ذاك الصباح صعدت أمك إلى الحافلة، وانحشرت بين الرجال المكدسّين في السيارة. سارت الحافلة وسط الدخان، مفعمة بالحيوية وبسرعة غريبة. لم تسلك الشاحنة الطريق المعتاد. كان السائق شارداً، يستشعر من المرآة الخلفية العاكسة، ما كان يبدو من جمال صورة العابرة الجميلة. في النهاية، توقفت الحافلة في أرض مظلمة وغامضة، وبعيدة عن الأنظار. يؤلمني أن أقص عليك ما الذي جرى بعدئذ.

الحقيقة، هي أنه، وبحسب أقوال الشهود المتحفظين، كانت دوردالما قد رُميت على الأرض، وسط سيلان لعاب وهمهمات، كوجبة شهية لبهائم متوحشة وحيوانات غاضبة. غاصت شيئاً فشيئاً في الرمل كما لو أن لا شيء يحمي جسدها الهش والمرتعش ما عدا الأرض. راح

الرجال، واحداً تلو الآخر، يستمتع بجسدها، وهم يعوون كما لو أنهم ينتقمون من إهانة موجودة منذ قرون.

بعد مرور اثني عشر رجلاً، بقيت أمك مُلقاة على الأرض بين الحياة والموت. الساعات التي تلت ذلك، لم تعد دوردالما سوى جسدٍ، ظل تحت رحمة الغربان والجرذان. ومما زاد الأمر سوءاً أيضاً، هي أنها كانت معروضة تحت أنظار المارة النادرين والحقودين. لم يقترب منها أحد ليساعدها على النهوض. حاولت عدة مرات أن تنهض، لكنها لم تجد القوة لفعل ذلك، فما تكاد تنهض حتى تعود لتقع من جديد، دون دموع، ودون روح.

في النهاية، وبعد أن أرخى الليل سدوله، تحرك والدك خلسة كما القط فوق سطح من الآجر. تطّلع حوله، أحنى جذعه، وحمل زوجته بين ذراعيه. اجتاز سيلفستر الشارع ببطء وهو يحمل دوردالما، مدركاً بأن وراء النوافذ كان هناك عشرات العيون التي تتلصص على صورته المتجهمة.

عند عتبة الباب، توقف لوقت قصير، منتصباً كتمثال. في عتمة الليل لم يكن يميز المرء إن كان يبكي، أو يقلّص عضلات وجهه لاعناً العالم والناس المنافقين.

أغلق الباب وراءه بقدمه، وأصبح بيت فيتاليسيو منذئذ معتماً للأبد. مدّد سيلفستر جسد أمك على طاولة المطبخ، وثبّت رأسها وسط الأكياس

والخِرق. ثم، ذهب إلى غرفتك، وقبّل جبينك، ومرّر بيده على رأس أخيك. أقفل الباب بالمفتاح وقال:

– سأعود.

عاد إلى المطبخ وجرّد أمك من ثيابها. أبقى الجسد عارياً، وغائباً عن الوعي، وحزم مجموعة من الملابس غير المستعملة. حمل الحزمة إلى الحديقة وحرق الثياب بعد أن رشّ عليها النفط.

جلس بالقرب من الطاولة، ساهراً الليل قرب زوجته التي كانت نائمة. دون أي مداعبة، دون أن يعيرها أي انتباه. كان انتظاراً بارداً لموظف متحمس. حالما بدرت أول إشارة من الوعي على وجه دوردالما، سألها والدك:

– هل تستطيعين سماعي؟

– نعم.

– إذن اسمعي جيداً ما سأقوله لك: لا تجعليني أبداً أشعر بالعار هكذا. هل سمعت؟

أومأت دوردالما برأسها وعيونها مغلقة ونهضت وأدارت له ظهرها.

وضعت أمك قدميها على الأرض محاولة أن تسند ذراعها على زوجها. دار سيلفستر على عقبيه ورفض أن تخرج من الغرفة:

– ابقي هنا. لا أريد للصغيرين مشاهدتك بهذه الحال.

لم يكن أمامها غير البقاء في المطبخ، لتغتسل كما يجب. لاحقاً، عندما نام جميع من في المنزل، كان باستطاعتها الذهاب إلى غرفتها

والبقاء فيها، هادئة وصامتة. وهو، سيلفستر، كان قد كابد ما فيه الكفاية من الخزي.

استيقظ والدك قلقاً، كما لو أن صوتاً قد ناداه من الداخل. كان صدره يلهث، ويتصبب عرقاً كما لو أنه لم يكن مكوناً سوى من الماء.ذهب إلى النافذة، وفتح الستائر ورأى زوجته معلّقة في الشجرة. كانت قدماها على بُعد قليل من الأرض. فهم للحال: هذا البُعد الصغير كان هو ما يفصل الحياة عن الموت.

قبل أن يستيقظ الشارع، أسرع الخطى نحو شجرة الكاسوارينا كما لو كان هنا، أمامه، لا يوجد سوى مخلوقٍ نباتي، مؤلف من الأوراق والأغصان. بدت والدتك كما الفاكهة الجافة، والحبل لم يكن أكثر من سويقة ممدودة، تتصارع مع الأغصان. قطع سيلفستر الحبل بصمت، وسمع السقطة الصمّاء للجسد وهو يرتطم على الأرض. وللحال ندم على ذلك. فقد كان سبق أن سمع هذا الصوت سابقاً: إنه صوت التراب وهو ينهال فوق غطاء النعش. التصق هذا الصوت في أذنيه كما الطحلب يلتصق على جدران حائط معتم. لاحقاً، صمتك يا موانيتو، كان دفاعه ضد هذا الصدى المعاتب.

للمرة الثانية على التوالي، عاد سيلفستر ليجتاز الشارع حاملاً أمك بين ذراعيه. هذه المرة، مع ذلك، كان وزنها، كما لو كانت قد بقيت معلّقة على المشنقة. وضع جسدها عارياً على المصطبة وتفحصها: لم

يكن هناك أي أثر لدماء، ولا إشارة لمرض، ولا حتى أثر لطلقة. لولا الجمود الكامل في صدرها لما استطاع أي شخص أن يصدق موتها. هذه المرة، انفجر سيلفستر في البكاء. لو عبر أحد من هناك لاعتقد بأن سيلفستر كان مصعوقاً من آلام الموت. لكن لم يكن الترمل هو سبب بكائه. كان والدك يبكي من المرارة. بالنسبة لأي زوج، انتحار زوجته هو أكبر إهانة يمكن له أن يتلقاها. ألم يكن المالك الشرعي لحياتها؟ كيف له أن يقبل إذن بهذا العصيان المخزي؟ دوردالما لم تكن قد تخلت عن الحياة: بتجردها من حياتها الخاصة، تكون قد رمت في وجه أبيك مشهد موته الخاص.

كنت قد عرفت ما الذي حدث في الدفن. كان الهواء يعود ليغلق الفجوة، ملغياً مراسم الدفن المتتالية. لزم الأمر آخرين، حفاري قبور حقيقيين، كي ينتهوا من وضعها في التراب. في البيت، بعد العودة من المقبرة، كان نتونزي الأكثر وحدة من كل أطفال العالم. لم يكن باستطاعة أي عاطفة حينها أن تقدم له المواساة. وحدها كلمات والدك كان يمكن لها شفاؤه. بيد أن والدك بقي بعيداً. كان هذا أنت من عبر الحشد وأحاط بيديه الصغيرتين وجه الأرمل. قوقعة يديك رمت سيلفستر بعيداً، في صمت تام. ربما هذا الصمت هو ما جعل سيلفستر يتخيل أورشليم، هذا المكان الذي هو فيما وراء كل الأمكنة.

بعد الدفن، كان سيلفستر يغرق في التأمل باستمرار في الكنيسة. لم يكن يشارك الجوقة، لكنه كان يحضر القداس ويبقى بعد ذلك ساجداً

هناك، كشحاذ فقد بيته. أحياناً، كان يجلس قرب البيانو وأصابعه، تائهة، تتجول فوق المفاتيح. كان الوقت شهر تموز، وكان الطقس من البرودة بحيث كانت الأيادي تنسى نفسها من ذات نفسها لتحتمي في الجيوب.

وقتئذ، ومن خلال تلك الخلوات، حدث أن عاد زكريا ليدخل الحرم المقدس. كان قد وصل للتو من معركة، ولم يزل في معطفه العسكري. اتجه نحو والدك وحيّاه بعناق حار. بدا وكأنهما يقبّلان بعضهما بحرارة. لكنهما في الواقع كانا يتعاركان. ما كان يقوله الواحد منهما في أذن الآخر من كلمات بدت وكأنها كلمات دعم، لكنها كانت عبارة عن تهديدات بالموت. العابر من هناك لم يكن ليتكهن إلا بصعوبة بأنهما كانا يتواجهان على نحو قاتل. ولا أي شخص كان يمكن أن يقول بأنه قد سمع الطلق الناري. كان الدم الذي سال من الزي الرسمي لزكريا عند مغادرته، لا يمكن له أن يشكّل بالمقابل برهاناً على ذلك. نظّف سيلفستر الأرض، ولم يبقَ أي إثبات. لم يعد هناك لا عراك، ولا طلق ناري، ولا دماء. وكما في جميع الحالات العملية، تعانق الصديقان طويلاً، يواسي أحدهما الآخر بحزنه على غياب أمك الغالية.

الآن أصبحت تعرف لماذا ذهب نتونزي مع كالاش. لماذا تبع المصير العسكري الذي كان يركض وراء سلالات عائلة زكريا. الآن أصبحت على علم لماذا يخشى سيلفستر الهواء ورقص الأشجار الذي يذكره

بالأشباح. الآن، أصبحت تعرف ما سبب أورشليم، ومنفى فينتورا خارج العالم. في النهاية لم يكن والدك غريب الأطوار فقط ولم تكن أورشليم خياراً لجنونه. بالنسبة لسيلفستر كان الماضي مرضاً والذكريات لعنة. كان يريد الإقامة في النسيان، كان يريد العيش بعيداً عن شعوره بالذنب.

عندما ستقرأ هذه الرسالة، لن أكون في بلدكم. والحق يُقال، سأكون مثل زكريا: دون وطن يخصني، لكن سأكون الواعدة لخدمة قضايا قام بها آخرون. سأعود إلى البرتغال دون مارسيلو، سأعود دون أن يكون لي وطن خاص بي. أينما ذهبت، سوف لن أجد مساحة كافية كي أظلل طيران مالك الحزين. في أورشليم، سيكون للأرض دوماً المزيد من مساحة الأراضي.

في إحدى المرات، حكت لي نوسي عن فراغ علاقتها مع أبروكزيمادو. كيف يمكن للعلاقة أن تتبخر مع الزمن. على الرغم من مساراتنا المتشابهة في الظاهر، نحن نسير على نفس الخطى. كنت قد غادرت بلدي بحثاً عن رجل يخدعني. وهي كانت تخدع نفسها مع رجل لا تحبه.

– لماذا نتحمل إلى هذا الحد؟ سألتني نوسي.

– من؟

– نحن النساء. لماذا نتحمل إلى هذا الحد، في كل شيء؟

– لأننا نخاف.

الوحدة هي من أكبر مخاوفنا. لا يمكن لامرأة أن تعيش وحيدة خشية ألا تعود امرأة. فإما أن تصبح شيئاً آخر لبث الطمأنينة في قلوب الجميع: مجنونة، عجوز، مشعوذة. وإما كما يقول سيلفستر «غانية». يمكن أن تكون أي شيء عدا كونها امرأة. هذا ما قلته لنوسي: في هذا العالم، نحن لا شيء إلا في حال كنا زوجات. وهذا ما أنا عليه الآن، بصفتي أصبحت أرملة. أنا زوجة شخص ميت.

أترك لك صورنا في المحمية. في إحداها، تلك التي أفضلها عن غيرها، تُظهر انعكاس ضوء القمر على صفحة الماء. في هذه الصورة كنت خائفة كثيراً، كانت تلك آخر مرة أنظر فيها إلى القمر. بقي في ذاكرتي هذا النور المنتشر كي يضيء الليالي الطويلة التي بانتظاري.

أريد أن أشكرك على كل ما عشته وتعلمته هناك. كما الدرس التالي: أبعدني الموت عن مارسيلو كما يبعد الليل العصافير. فقط لأجل موسم واحد من الحزن.

سوف نجد حبنا من خلال ضوء القمر القادم. حتى دون وجود بحيرة، دون ليل، ودون قمر. في عمق الضوء، سيعودون في وضح النور، مؤبدين، ثياباً مبللة في تيار نهر.

لا أعلم إن كنت سعيدة أكثر منك. لدي والداي، لدي دائرتي التي أثبت نفسي فيها على غرار ما يتوقعه الآخرون مني. الذين يحبونني تقبلوا رحيلي. لكن مطلوب مني أن أعود أنا نفسي ومن السهل التعرف إليّ، كما لو أن السفر لم يكن أكثر من مرحلة بين هلالين. أنت طفل،

موانيتو، يمكن لك أن تعيش الكثير من الأسفار، والكثير من الطفولة. ليس بوسع أحد أن يطلب منك ألا تكون إلا راعياً للصمت.

لن تجيبني. لن أترك عنواناً ولا أي إشارة مني. إن أردت في يوم ما أن تعرف أخباري، اسأل زكريا، الذي ترك لي مهمة إعادة تأهيل جزء من ماضيه في البرتغال. يريد أن يعود ليرى عرّابته، يرى إحياء سحر الرسائل. في يوم ما، أنا متأكدة، سأعود إليك. لكن لن يكون هناك أبداً من أورشليم».

الكتاب

ابداً بعد اليوم
لن يكون وجهك نقياً وعلى قيد الحياة
ولا أسلوبك كموجة عابرة
متشابكة مع خطى الريح
وابداً لن أعطي للوقت المزيد من حياتي

ابداً لن اخدم سيداً يمكن له ان يموت
ضوء بعد الظهر أظهر لي الخراب من وجودك.

قريباً سيشرب العفن عينيك وعظامك
آخذاً يدك في يده.

أبداً بعد اليوم لن أعشق الذي لا
يمكن له العيش للأبد
لأني أحببت كما لو كانوا مؤيدين
المجد، والنور، وتألق وجودك،
أحببت في الحقيقة وشفافيتها
ولم يبق لي حتى ولا غيابك
كنت وجهاً للتقزز والحرمان
وأغلق عينيّ كي لا أراك.

أبداً بعد اليوم لن أخدم إلهاً يمكن له
أن يموت.

«صوفيا دي ماللو أندرسن»

مرّت خمسة أعوام على رحيل مارتا، ونتونزي وزكريا. ذات يوم ناداني أبروكزيمادو إلى غرفة الطعام حيث كانت نوسي وبعض الصبية من الجيران. على الطاولة، كان هناك قالب من الحلوى مغطى بمسحوق السكر، غُرست فوقه الشموع.

– هيا عدّ الشموع. أمرني خالي قائلاً.

– لماذا؟

– عدّ.

– إنها ست عشرة.

– إنه عمرك، قال خالي. اليوم عيد ميلادك.

لم يصادف أبداً في السابق أن احتفل أحد بعيد ميلادي. في الحقيقة، لم تأتِ على بالي فكرة أن هناك يوماً ولدت فيه. لكن ها أنا ذا، في غرفة الطعام المظلمة في بيتنا، جُهزت الطاولة مع قوالب الحلوى وبعض المرطبات، مزينة بالشرائط والبوالين، مع اسمي مكتوب على سطح القالب.

ذهبوا ليأتوا بعجوزي ويجلسوه إلى جانبي. ثم، قام المدعوون واحداً وراء الآخر، ليقدموا لي الهدايا التي رحت أكدسها بشكل

أخرق وكيفما اتفق على الكرسي الذي بجانبي. بدأوا فجأة في الغناء والتصفيق، شعرت للحظة أنني كنت مركزاً للكون. وبأمر من أبروكزيمادو أطفأت الشموع بنفخة واحدة. في هذه اللحظة خرج أبي عن جموده وشدّ على يدي دون أن يلحظ أحد. كانت تلك طريقته في إظهار محبته.

لاحقاً، بعد عدة ساعات، عندما عدت إلى غرفتي، عاد سيلفستر لينغلق داخل قوقعته المعتادة. كنت أعتني به منذ خمسة أعوام، وأرافقه في تفاهة حياته اليومية، أساعده في النهوض وتناول الطعام. وكان الخال أبروكزيمادو هو من يعتني بي. في كثير من الأحيان، كان هذا القريب يجلس بالقرب من سيلفستر، وبعد أن يتواجهوا بالنظر طويلاً، كان يسأله بصوتٍ عالٍ:

– ألا تتصنع الجنون فقط كي لا تدفع ديونك؟

لم نكن نلحظ على وجه سيلفستر أي نيّة للإجابة. كنت أعيد خالي إلى وعيه قائلاً: كيف يمكن لكوميديا كهذه أن تكون مقنعة بهذه القوة وهذه الاستمرارية؟

– إنها ديون قديمة يعود تاريخها إلى أورشليم. لم يكن والدك يدفع قط ثمن البضائع التي كنت أنقلها إليكم.

ثم أضاف قائلاً:

– هذا إن لم نحكِ عن الباقي.

لم يشرح أبروكزيمادو مطلقاً ما هو هذا «الباقي». بل كان يتابع تذمره، والذي هو دوماً نفسه: لم يتخيل صهره أبداً كم كان السفر

شاقاً إلى أورشليم ولا كم يجب على السائق أن يدفع كي يتجنب الكمائن ويتلافى قطّاع الطرق. سر البقاء، لمّح قائلاً، هو أن تتناول الغداء مع الشيطان، وتأكل ما تبقى مع الملائكة.وختم مظهراً ذكاءه:

- خدمني هذا كثيراً. التجارة في العائلة، إليك نتيجتها...
- يمكن لي أن أدفع يا خالي...
- تدفع ماذا؟
- الديون؟
- لا تجعلني أضحك يا ابن أختي.

إن كان هناك من ديون فأبروكزيمادو لم يكن ينتقم مني. على العكس، كان يحميني كما لو كنت ابنه الذي لم يحظَ به أبداً. لولاه، لما كنت ارتدت مدرسة الحيّ. لن أنسى في عمري أول يوم لي في المدرسة، ومشاعري الغريبة من رؤيتي لهذا العدد من الأطفال في الغرفة نفسها. وأغرب من هذا، كان الكتاب هو الذي كان يجمعنا ساعات على التوالي، ننسج طفولتنا في عالم قديم. خلال أعوام طويلة اعتُبرت فيها كولد وحيد في هذا الكون. وخلال حياته، كانوا قد منعوا هذا الطفل الوحيد من أن ينظر إلى الكتاب. أيضاً، ومنذ الدرس الأول، بينما كان جدول الضرب والأحرف الأبجدية تتداول في الغرفة، كنت أداعب دفاتري وأتذكر أوراقي اللعب.

افتتاني هذا لم يمر مرور الكرام أمام أستاذي. كان رجلاً نحيلاً وجافاً، بعينين غائرتين وذابلتين. كان يتكلم بشغف عن الظلم وضد

الأثرياء الجدد. في بعد ظهر أحد الأيام، أخذ الأطفال ليقوموا بزيارة المكان الذي اغتيل فيه أحد الصحفيين الذين اعترضوا على الفساد. في المكان، لم يكن هناك لا أبنية ولا أية إشارة تكريم رسمية. وحدها شجرة آركاديا، كانت تخلد شجاعة ذاك الذي خاطر بحياته ضد الكذب.

- لنترك أزهاراً على هذا الرصيف كي تنظف الدماء؛ أزهاراً لغسل العار.

تلك كانت كلمات الأستاذ. وبمال المعلم اشترينا باقة من الأزهار وقمنا بتغطية الرصيف بها. ونحن في طريق العودة، كان الأستاذ يسير أمامي، وعند رؤيتي له بكل هذه الخِفة، خشيت، فقد بدا كما لو أنه طائرة من ورق، ويطير في السماوات.

استغربت نوسي قائلة:

- هل فعل ذلك؟ أخذك لرؤية صحافي الشعب؟

- وتركنا أزهاراً، كلنا...

- إذن غداً سوف تسلم لهذا الأستاذ بعض الأوراق. ليس أكثر من رسالة صغيرة سأكتبها له...

لا أعرف ماذا كان يدور في رأسها، لكن الفتاة لم تدع نفسها تنتظر. متّبعاً تعليماتها، رحت أراقب الردهة بينما كانت تفتش في جوارير أبروكزيمادو. قامت بتجميع وثائق، وخربشت بملاحظة صغيرة ووضعت الجميع في مغلف.

في اليوم التالي، قمت بتسليمها للأستاذ. في هذه الفترة، كنا نرى جيداً كم كان معلمنا مريضاً. وتابع نحوله لدرجة أن أقل كمية من الثياب كانت تبدو مهلهلة عليه. في النهاية لم يعد يأتي ولم يتأخر الأمر بإعلان وفاته. لاحقاً، قالوا بأنه كان يعاني من «مرض العصر» وأنه كان ضحية «وباء» لكنهم لم يكونوا يتلفظون أبداً باسم هذا المرض.

رافقني سيلفستر لحضور مراسم دفن الأستاذ. ونحن في المقبرة، مرّ على قبر دوردالما. جلس بثقل شخص لن ينهض أبداً. بقي صامتاً ودون حراك، وحدها قدماه كانتا تفركان الرمل من جانب لآخر، تتأرجحان بشكل مستمر، كتأرجح عقارب الساعة. أعطيته بعض الوقت ومن ثم دعوته قائلاً:

- أبي، هل نعود؟

لم تكن هناك عودة. حينئذ فهمت، كان سيلفستر على وشك أن يفقد كل تفاعل له مع العالم. في السابق، كان بالكاد يتكلم. في الوقت الحالي، لم يعد يرى الناس. فقط مجرد ظلال. ولم يعد يتفوه بحرف. كان عجوزي أعمى إلى نفسه. من الآن فصاعداً، لن يعود ليسكن جسده مطلقاً.

في هذا المساء، فكرت في أستاذي المختفي. وانتهيت إلى خلاصة مفادها بأن «مرض العصر» هو الغرق في الماضي، وهو مرض مكون من الماضي. هذا المرض كان يحث الخطى في عائلتنا. في اليوم التالي أعلنت في المدرسة:

- والدي أيضاً يعاني من هذا المرض...

- من ماذا؟

- من مرض العصر.

ألقوا عليّ نظرة إشفاق واشمئزاز كما لو كنت أحمل تهديداً معدياً. تحاشاني الطلبة، وابتعد عني الجيران. هذا النفي جلب لي، وأعترف بذلك، كل الرضا. كما لو كنت أريد العودة بسرية نحو العزلة. وانزلقت في هذا الانحدار السيء للماضي. بموت أستاذي فقدت الرغبة في الذهاب إلى المدرسة. كنت أخرج في الصباح بالزي المدرسي، لكني كنت أبقى في الباحة أخربش ذكريات في دفتر النصوص خاصتي. عندما كان كل شيء من حولي يُظلم، كانت الصفحات تبقى محتفظة بإشراق نور النهار. عند عودتي إلى المنزل، أبدأ بتحية أبي كما في السابق، بحسب إرشادات أورشليم:

- هل يمكن لي أن أذهب إلى الفراش يا أبي. لقد عانقت للتو الأرض.

دون شك، كنت أشعر في أعماق نفسي بسويداء الطمأنينة الهائلة لماضيّ الحزين.

وكانت هناك نوسي، سبب إضافي آخر لعدم الذهاب إلى المدرسة. كانت خطيبة أبروكزيمادو تساعدني في وظائفي المدرسية. حتى وإن لم يكن هناك من وظائف، كنت أخترعها فقط كي تنحني فوقي

وتغرق عيناها في عينيّ. وهناك أيضاً قطرات العرق التي كانت تنساب بين نهديها المبللين، والتي كانت تجعلني أنزلق غارقاً، أرجواني اللون، في تلك القطرة التي تنزل على صدرها حتى أغوص في رعشة وتنهيد.

باكراً في الصباح، كانت نوسي تطوف شبه عارية في المنزل. بدأت أحلم بأحلام شهوانية. لم تكن تلك بأمور جديدة عليّ. صديقاتي في المدرسة، معلماتي، وجاراتي، كن جميعاً قد عبرن أحلامي. لكن كانت تلك أول مرة تُذهل فيها رقة امرأة المكان بأسره. لاحقاً، تعلمت شيئاً: لم أكن الوحيد الذي كان يحلم في عزّ حرارة الليل.

أجهل ما هو نوع الحب الذي كانت تحمله نوسي لأبروكزيمادو. الحقيقة أنه في بعض المناسبات كنا نسمع بعض التأوهات الآتية من غرفتيهما. كان أبي يتقلب في فراشه. هو الذي أصبح أصماً في كل شيء، حافظ على أذن من أذنيه للتمتمات الشبقية. ذات يوم، لاحظت بأنه يبكي. تأكدت من ذلك لاحقاً: كان سيلفستر يبكي كل ليلة حين يشتعل العشق في المنزل.

يربطنا العشق حتى قبل وصوله. تعلمته، كما تعلمت أيضاً الأحلام وهي تُشحذ من شدة التكرار. كلما كانت تخيلاتي الليلية تطلب نوسي، يصبح وجودها أكثر فأكثر واقعية. حتى ذات مساء كنت أستطيع أن أحلف بأنها كانت هي، بلحمها وعظمها، تدخل بشكل متخفٍ إلى غرفتي. تسلل طيفها تحت الأغطية، ورحت

أغرق في الحدود غير المترابطة لأجسادنا. لا أعرف إن كانت هي، متجسدة، تزورني. عرفت بأنه بعد رحيلها كان أبي يبكي في سريره.

لم يكف خالي عن تكرار كل ما كنا لم ندفعه له ثمناً للخدمات التي قدمها للعائلة. مع ذلك، ومما كان بادياً بوضوح، هو أن ديون سيلفستر لم تترك خالي مفلساً. كان أبروكزيمادو يتباهى بالمال الذي كان يكدّسه بفضل تجارة رُخَص الصيد.

- لكن أليس هذا غير قانوني. كانت تسأل نوسي.

- آه! ما هو غير القانوني في أيامنا هذه؟ يد توسخ الأخرى وكلتاهما تقلدان حركة بيلاطس، أليس كذلك؟ هذا كان جواب خالي.

ولم يكن هناك يوم لا يعود فيه مع دافع جديد للابتهاج: كان يلغي الغرامات، ويغلق عينيه عن المخالفات، ويخلق تعقيدات في العمل أمام المستثمرين الجدد.

- أتذكر شاحنتي أثناء الحرب؟ حسناً أجهزة الدولة هي الآن شاحنتي الراهنة.

ذات يوم أحد، وهو مدفوع بالزهو، بسط خارطة التنازل على أرضية غرفة الطعام واستدعانا جميعاً: أنا ونوسي وأبي:

– أترى أورشليم خاصتك يا عزيزي سيلفستر؟ حسناً إذن، الآن أصبحت الأرض بكاملها تابعة للملكية خاصة، وهذا مالي المستلب، هل تفهم؟

أطرق أبي بعينيه الخاويتين إلى الأرض وراح يمسحها بنظره، لكنه لم يلقِ نظرة على الإطلاق على المكان الذي كان يتوقعه صهره. حدث وقتئذ أن أراد سيلفستر اجتياز الغرفة، فسحب بقدمه الخارطة التي تمزقت إلى شريط عريض. راحت نوسي تقهقه ضاحكة، غير قادرة على تمالك نفسها. طفح الغضب المكبوت من قلب أبروكزيمادو:

– إذن حسناً، أنت، يا عزيزتي، سوف لن تأتي إلى هنا أبداً.

– هل هذا منزلك؟

– من الآن، سوف أقوم أنا بزيارتك.

منذ ذاك الوقت، بدأت نوسي تظهر كدورة القمر. مرئية فقط في فترات معينة من الشهر. وأخذت لي مكاناً بين المد والجزر، غارقاً بفيضانات امرأة، بشكل موسمي.

ذات يوم، وصلت نوسي إلى البيت في منتصف الصباح. تسللت خلسة في الغرف. كانت تسأل عن أبروكزيمادو.

– في مثل هذه الساعة دونا نوسي؟ أجبت. أنت تعرفين بأن خالي يكون في العمل في مثل هذه الساعة.

ذهبت الفتاة إلى غرفة الحمام، ودون أن تغلق الباب وراءها راحت ترمي بثيابها على الأرض. فجأة، أُصبت بنوع من العمى،

ورحت أهزّ رأسي خشية من ألا أعود لأرى على الإطلاق. سمعت حينئذ صوت ماء الدش يجري وبقيت أتخيل جسدها المبلل، وهي تداعبه بيديها.

– أأنت هنا موانيتو؟

لم أحر جواباًمن شدة شعوري بالانزعاج. كانت تخمن بأني ملتصق بالباب، عاجز عن التلصص، لكن دون أن يكون لي القدرة على الابتعاد.

– ادخل.

– كيف؟

– أريدك أن تأخذ علبة من حقيبة يدي. لقد جلبتها لك.

دخلت بتهيّب. كانت نوسي تجفف نفسها بمنشفة، وكنت أستطيع أن أرى تارة نهديها وتارة أخرى ساقيها الطويلتين. أخذت علبة معدنية ومددتها نحوها وأنا أرتعش. فهمت حركتي.

– هذه هي تماماً. يوجد في داخلها مال، وكله لك.

وشرعت تشرح مصدر هذا الكنز الصغير. كانت نوسي عضوة في جمعية نسائية هدفها الدفاع ضد العنف المنزلي. قبل عدة شهور قاطع سيلفستر أحد تلك الاجتماعات، واجتاز الغرفة صامتاً.

– ما قام به كان غاية في الغرابة، تذكرت نوسي.

– لا تظني به سوءاً، أكدّت قائلاً، كان لأبي دوماً رأي سلبي نحو المرأة، أرجوك أن تعذريه...

– على العكس، أنا... أقصد نحن جميعاً، بشكل أدق، ندين له باعتراف الجميل.

إليكم ما قد حصل: اجتاز سيلفستر الصالة ووضع علبة من المال على الطاولة. كانت تلك مساهمته لقضية النساء.

في غضون ذلك كانت الجمعية قد أُغلقت. فقد نشرت تهديدات متنوعة الخوف والرعب في عضواتها. لم يبق على نوسي إلا أن تعيد لفتة تضامن والدي.

– الآن سوف تخبئ هذا المال عن عينيّ أبروكزيمادو، هل تسمع؟ هذا المال يخصك، إنه لك وحدك.

– لي وحدي، دونا نوسي؟

– نعم. كما هذه اللحظة أنا لك وحدك.

وقعت منشفتها تحت قدمي. ومن جديد، وكما المرة الأولى التي رأيت فيها امرأة في أورشليم، كاد وجود امرأة أن يجعلني أقع مغشياً عليّ على الأرض. وارتمى كلانا في هذه الهوة. في الأخير، عندما أخذ جسدانا المتشابكان والمتعبان استراحة، مررت أصابعها على وجهي وهمست:

– أنت تبكي...

أنكرت بحزم. بدت هشاشتي تثير نوسي، سألتني وهي تحدق في عينيّ:

– من علّمك أن تحب النساء؟

كان يجب عليّ أن أجيب: إنه فقدان الحب. لكن لم تأت أي كلمة لنجدتي. مجرداً من السلاح، رأيت نوسي تزرر ثوبها، وتتجهز للرحيل. توقفت عند الزر الأخير وقالت:

- عندما أعطانا علبة المال، كان والدك يجهل بأن في داخلها كلمة مع تعليمات.

- تعليمات؟ ممن؟

- من أمك.

لم يفهم والدي أبداً، لكن زوجته الشابة المتوفاة كانت قد تركت قصاصة من الورق تشرح فيها الهدف من هذا المال. كان ذلك مدخرات دوردالما، وهي توصي بها إلى أولادها كي لا ينقصهم شيء.

- إنها أمك. هي التي علّمتك أن تحب. دوردالما هي هنا دوماً.

وتوقفت يدها المفتوحة على صدري.

حتى اللحظة التي جاؤوا يبحثون فيها عن خالي. قالوا: بلاغ مجهول. كنت أنا وحدي العارف بأن الوثائق العرضة للشبهة تأتي من جاروره، وبأن خطيبته بالذات هي من أوصل هذه الأوراق باشتراكي معها. عندما عاد بعد أن دفع كفالته، أصبح أبروكزيمادو يرتاب بالجميع وبكل شيء. كان يشك على الأخص بالقدرات السرية لوالدي. عند العشاء، مستفيداً من غياب نوسي، شدّد أبروكزيمادو من نبرة صوته:

– هذا أنت يا سيلفستر، أراهن على أنه أنت.

لم يسمع أبي، لم ينظر إليه ولم يتكلم. كان موجوداً في عالم آخر. وحده ظله الجسدي كان ماثلاً أمامنا. عاد خالي ليعيد خطابه المتسلط:

– حسناً غداً، ها أنا أقول لك: ستغادر كما جئت تماماً، يا عزيزي سيلفستر. سأصدّرك كما لو كنت غنيمة.

أكاد أقسم بأني رأيت ابتسامة تهكم تعبر وجه سيلفستر. لا بد أن صهره قد لاحظ دون شك الشيء نفسه، سأله متفاجئاً:

– ما الذي يجري؟ هل أصبحت تسمع من جديد بشكل صحيح؟

إذاً، بما أن الأمر هكذا، فليفتح سيلفستر جيداً أذنيه. وشرع عمي في عملية جرد للخسائر. نهض أبي فجأة عن كرسيه وقلب ببطء محتويات كأسه على أرض الغرفة. فهمنا جميعاً: كان يسقي الأموات، كان يطلب الصفح مقدماً عن أي نذير شؤم.

– إنها قوية جداً، هذا قوي جداً! زمجر أبروكزيمادو.

كان هياج صهره قد تجاوز حده. وهو يعرج أكثر من عادته، ذهب خالي إلى الغرفة وجلب منها صورة، وهزّها تحت أنفي:

– انظر من هذا يا ابن أختي.

قفز والدي على الطاولة، وقد استولت عليه روح مفاجئة وغير متوقعة، وقام بإخفاء الصورة بجسده. دفعه أبروكزيمادو وراحا يتشاجران لأجل الصورة. لشعوري بأن الصورة هي صورة أمي التي كانت ترقص الفالس بين يدي أبروكزيمادو وأبي، قررت التدخل

في الرقصة. لكن، وبلمح البصر، تمزقت الورقة ووجد كل واحد منا بين أصابعه قطعة منها. استولى سيلفستر قسراً على ما تبقى منها ومزقها لآلاف القطع. احتفظت بجزئي الخاص من الصورة. وحدها أصابع دوردالما كانت تظهر في هذا القسم. يبدو خاتم زواج بين أصابعها المتشابكة. عندما أصبحت في سريري قبّلت مراراً وتكراراً أصابع أمي. للمرة الأولى، تمنيت ليلة سعيدة إلى تلك التي وهبتني كل الليالي.

قبل أن أغفو، شعرت بـ نوسي تدخل الغرفة. هذه المرة كان الأمر حقيقياً تماماً. التصقت بي وهي عارية، ورحت أعبر انحناءات جسدها بينما كنت أفقد مفهوم وجودي الخاص.

– هذا أنت من عرفني، هذا أنت من يلمسني...

– دعينا لا نحدث صخباً، دونا نوسي.

– إنه ليس صخبٌ. موانيتو. هو موسيقى.

موسيقى؟ لكن أنا كنت مرعوباً من فكرة وجود أبي هنا، إلى جانبي. وأكثر رعباً من أن يسمعنا أبروكزيمادو. مع ذلك فقد كان وجود نوسي أقوى من الخوف. عند رؤيتها تصعد وتنزل على ساقين عاد الشك ليتدفق من جديد: وماذا لو جعلتني النساء أعمى كما حدث مع أخي؟ أغلقت عينيّ ولم أفتحهما إلا عندما سحبت نوسي الباب وراءها وهي ذاهبة.

النهار التالي لم يرَ الضوء. في منتصف فترة الصباح عاد أبروكزيمادو من مكتبه وكان صراخه يدّوي في الممر:

– ابن العاهرة!

كنت أرتجف: كان خالي يشتمني بعد أن اكتشف بأني قمت بخيانته مع نوسي. رنّ صدى خطواته غير المتساوية في الردهة. جلست على سريري، وكنت أنتظر الأسوأ. مع ذلك، أظهر لي الصراخ عند مدخل الغرفة شيئاً مغايراً كلياً لما كنت أخشاه:

– ها أنا قد عوقبت! لقد تمت معاقبتي! يا ابن أكبر عاهرة، أعرف من الذي قام بترتيب ذلك...

تلاشت أمامنا نهائياً صورة الخال الذي كان في السابق متحفظاً ولين الجانب. كانت حركاته حول سرير العجوز سيلفستر رهيبة وفي الوقت نفسه مثيرة للضحك. أخرج من جيبه هاتفه المحمول كما لو كان يخرج مسدساً وأعلن:

– سوف أرسل في طلب ابنك البكر، هو من سوف يهتم بهذا الوضع اللعين.

وتابع تباكيه وهو ينتظر أن يجيب أحد ما على اتصاله. خلال كل حياته، كان يدعم جنون الهذيان. الآن، كان لديه حِمل ثقيل، أو بالأحرى حملان ثقيلان. قطع ابتهالاته، لحظة شعر بأن نتونزي قد فتح الخط. شرح لنا أبروكزيمادو بأنه سوف يضع الاتصال على مكبر الصوت كي نستطيع متابعة الحديث.

– من الذي على الخط؟ نتونزي؟

– نتونزي، لا. هنا الرقيب فينتورا.

فجأة جفّ حلقه، وعبرت حنجرته لفحة هواء باردة، هل هذه هي السويداء؟ في هذه الحجرة الخانقة، وأمام سلطة مثيرة للصوت الغائب، ابتلعت ريقي. أعاد أبروكزيمادو التوبيخ الممل ضد صهره. من الجانب الآخر، قلّل نتونزي من أهمية الوضع وهو يجيب:

– لكن هذا الـ سيلفستر ضعيف جداً، بعيد عن العالم لدرجة كبيرة، وبعيد جداً عن الجميع...

– أنت في ضلال يا نتونزي. هو الآن وقح، وغير محتمل أكثر من أي وقت مضى.

– أبي المسكين، إنه لم يكن يوماً سوى ظل لشخص ما...

– آه حقاً؟ إذاً قل لي لماذا يستمر في مناداتي أبروكزيمادو؟ هيه؟ لماذا لا يناديني الخال أورلاندو، أو حتى الخال مادرينو، كما في السابق؟

– لا تقل لي بأنك تفكر في طرد سيلفستر؟ هذا البيت بيته.

– كان بيته. وقد سبق ودفعت أكثر مما يجب عليّ دفعه لأجل هذا البيت، ولأجل كل ما تبقى.

– انتظر يا خالي...

– هذا أنا من يملي القوانين، يا ابن أختي، سوف تطلب إجازة من الثكنة، وتأتي إلى المدينة وتأخذ هذين الاثنين اللذين لا فائدة منهما...

– وإلى أين تريد مني اصطحابهما؟

- إلى الجحيم... وبدقة أكثر إلى أورشليم، أجل، خذهما من جديد إلى هناك، ربما يكون الله قد استقر هناك، من يدري؟

لاحقاً، خلال وقت قصير، حزم أبروكزيمادو حوائجه وغادر. أرادت نوسي أن تنظّم لعشاء وداع لكن خالي انسحب متوارياً عن الأنظار. تحتفلين بماذا؟ وغادر. مع أبروكزيمادو ذهبت أيضاً خطيبته كما ذهبت معها عشيقتي السرية. لم تزل رغباتي تستدعيها، أحلامي تجعلها تنام على السرير الزوجي الفارغ. لكن لم يصدر من نوسي أي إشارة حياة. وتأكدت من أني أملك جسداً، لكن ما كان ينقصني هو السنين. ذات يوم، سأبحث عنها وأعترف لها كم كانت أحلامي مخلصة لها.

لاحقاً، وبعد أسبوعين، ظهر نتونزي في البيت. وصل مبتهجاً، نافد الصبر للقائنا. كان قد تقدّم في مهنته العسكرية: الإشارات التي على كتفيه، تدل على أنه لم يعد مجرد جندي. اعتقدت بأني سوف أرتمي بين ذراعيه. مع ذلك، فقد أزعجتني برودتي وانعدام عاطفتي لحظة سلّمت عليه:

- سلام نتونزي.

- انسَ هذا «النتونزي». من الآن فصاعداً أنا الرقيب أوليندو فينتورا.

مرتبكاً من لامبالاتي، تراجع الرقيب خطوتين، وهو مقطّب الجبين، مظهراً خيبة أمله:

– هذا أنا، أخوك. أنا هنا، موانيتو.

– أرى ذلك.

– وبابا؟

– إنه في الداخل، يمكنك الدخول. إنه لم يعد يتحرك...

– يبدو وكأنه لا يوجد غيره.

قام العسكري بنصف استدارة واختفى في الممر. سمعت النغم غير المحسوس من المنولوج الخاص به في غرفة والدي. بعد قليل، عاد مرة أخرى ليعطيني حقيبة قماشية:

– جلبت لك هذا.

وبما أنه لم تتحرك في وجهي أية عضلة، سحب بنفسه من الحقيبة أوراق اللعب القديمة خاصتي. كانت حباتٌ من الرمل والأوساخ لا تزال عالقة بها. أمام سلبيتي، وضع نتونزي المحتويات على ركبتيّ. مع ذلك، فالأوراق لم تخشخش. سقطت الواحدة وراء الأخرى، بإهمال.

– ما الذي يجري يا أخي؟ هل أنت بحاجة إلى شيء؟

– أريد أن ألدغ من الأفعى التي هاجمت أبي.

بقي نتونزي ملتزماً الصمت، ومندهشاً. يطيل التفكير بالشكوك الأكثر مرارة، وسأل:

– هل تشعر أنك بخير، يا أخي الصغير؟

هززت رأسي علامة التأكيد. كنت كما كنت دائما. كان هو من تغير. ذكرى اليوم الذي كنا لم نزل فيه في أورشليم، مجرد مكاشفته بنية التخلي عني ضايقتني. هذه المرة، امتد غيابه، بشكل طويل جداً ومؤلم للغاية لدرجة لم أعد أشعر به.

– لماذا لم تأت أبداً لرؤيتنا؟

– أنا عسكري. وقراري ليس بيدي.

– لا؟ إذاً لماذا أنت مسرور هكذا؟

– لا أعرف، ربما لأني للمرة الأولى في حياتي لدي أحد تحت أمرتي.

تناهى إلى سمعي ضجيج من داخل المنزل، كان مألوفاً بالنسبة إلي: كان سيلفستر يطرق بعصاه أرض الغرفة، ملتمساً مساعدتي كي آخذه إلى الحمام. تبعني نتونزي ورأى كيف كنت أساعد وأعتني بأبي العجوز.

– هل الأمر هو هكذا دائماً؟

– أكثر من أي وقت مضى.

وضعنا سيلفستر من جديد في سريره الأبدي، دون أن يلحظ وجود نتونزي. ملأت كأس الماء خاصته، وأضفت إليها القليل من السكر. فتحت التلفزيون، وسويت له الوسادة تحت رأسه، وتركته، ونظرته تلمع تائهة في الشاشة المضيئة.

– أجد هذا غريباً: سيلفستر ليس كبيراً جداً في السن. حالته كمن يشرف على الموت، هل هذا صحيح؟

لم أعرف بماذا أجيب. الحق يقال، في عالمنا، هل يمكننا العيش بطريقة ما دوننصب الفخاخ؟

عند عودتنا إلى المطبخ، رماني الحماس على صدر أخي. قبّلته أخيراً، واستمر العناق فترة تعادل كل فترة غيابه. كان يجب على ذراعه الماهرة أن تبعدني. فأنا لست أكثر من طفل، وكنت قد فقدت إمكانية ذرف الدموع. أخذت ورق اللعب بين يدي، وسألته بينما كنت أهزها لأزيل الغبار عنها:

– ما أخبار زكريا؟

زكريا كان يشكل دوماً فرداً من أفراد القوة العسكرية. لكنه، نعم، تقدم في السن، إنه أكبر من والدنا بكثير. ذات يوم، دعته الشرطة العسكرية لتحقق بشأن منشأ زيّه العسكري. الأسوأ من الكذبة هو أن هذا الزيّ كان زيّ جيش الاستعمار. فقاموا بسجنه، وقد أطلقوا سراحه الأسبوع الفائت.

لكن لم تكن هذه هي أخباره: سوف تدفع له مارتا ثمن بطاقة كي يذهب إلى البرتغال، سوف يزور عرّابته في الحرب، أيام الزمن القديم للجيش.

– يريد رؤية عرّابته الآن، ألا تجد بأن الوقت متأخر قليلاً؟

نخشى الموت، هذا صحيح. لكن لا خوف يعادل ذاك الذي نشعر به أمام حياة ممتلئة، حياة عشناها ملء رئتينا. فقد زكريا

هذه الخشية. وسوف يعيش. هكذا كان جواب زكريا خاصتنا، عندما كان أخي يستفهم عن قراره.

عند زيارتنا للمقبرة، بقينا إلى جوار قبر دوردالما. كان نتونزي يصلي بعينين مغلقتين، وتظاهرت بأني أفعل المثل، شاعراً بالخجل كوني لم أتعلم يوماً الصلاة. ثم، عندما أصبحنا في الظل، أخذ نتونزي سيجارة وانعزل لفترة. شيء ما جعلني أتذكر الوقت الذي كنت فيه أساعد أبي بفبركة الصمت.

– وأنت نتونزي، سوف تبقى لفترة معنا؟

– نعم، لبضعة أيام أخرى. لماذا تسألني؟

– أنا متعب من العناية وحدي بأبي.

لحسن الحظ أني لا أعرف كيف أصلي. لأن في الفترات الأخيرة، كنت أرجو الله بأن يأخذ أبانا إلى السماوات.

أصغى نتونزي إلى اعترافي الحزين، مرر بيده على قدمه مداعباً ساق بوطه العسكري. خلع قبعته وعاد ليضبط وضعيتها على رأسه. فهمت: كان يتجهز إلى مكاشفة خطيرة. كانت وضعية الجندي تُقوي من عزيمته. حدق بي مطولاً قبل أن يباشر القول:

– سيلفستر هو أبونا، لكنك ولده الوحيد.

– ما الذي تقوله؟

– أنا ابن زكريا.

تصرفت كما لو أن شيئاً لم يكن مفاجئاً. تركت الظل وقمت بدورة حول قبر أمي، وتساءلت ما الأسرار اللانهائية التي كان يخفيها هذا النصب. في النهاية، عندما غادرت دوردالما البيت في الحافلة المحددة مسبقاً، كانت ستذهب لملاقاة زكريا. الآن توضح كل شيء: الطريقة الغريبة التي كان سيلفستر يتعامل فيها معي. الحماية المقنّعة لكن الدائمة التي كان يوليها زكريا لنتونزي. الألم الذي ظهر به العسكري وهو يأخذ أخي المحموم إلى النهر. كل شيء أصبح له معنى الآن. حتى الطريقة التي أعاد فيها سيلفستر تسمية أخي. نتونزي تعني «الظل». كنت نور عينيه، بينما كان نتونزي يحجب أمامه الشمس، مذكراً إياه بخطيئة دوردالما الأزلية.

– هل سبق وتحدثت معه، نتونزي؟

– مع سيلفستر؟ كيف سأتحدث معه بما أنه لا يبدي أي إشارة؟

– مع زكريا، والدك الجديد؟

– كلا. كان كلاهما جنديين، هناك مواضيع لا يمكن التطرق إليها باللهجة العسكرية. بالنسبة إلى أي نهاية محتملة، يبقى زكريا هو والده الشرعي.

– انظر ما الذي أعطاني زكريا. هذه هي الطلقة الأخيرة، أتذكر؟

وأظهر الرصاصة. كانت تلك هي الرصاصة التي سكنت كتفه، الرصاصة التي لم يصرح لنا عن منشئها أبداً كانت قد أُطلقت من قِبل والدي، أثناء شجارهما ساعة الدفن.

– هل رأيت؟ والدك كاد يقتل والدي.

– هناك شيء واحد لم أتمكن من فهمه: لماذا كانا معاً في أورشليم...

– الشعور بالذنب، موانيتو. الشعور بالذنب هو ما جمعهما.

ما قصّه عليّ نتونزي تركني مشوش الفكر:

المشاجرة في الكنيسة بين زكريا وسيلفستر لا تتعلق بما اعتقد الجميع. كانت الحقيقة بعيدة كل البعد عن رواية مارتا. إليكم ما حصل حقيقة: مدفوعاً بالرعب من تأنيب الضمير، وصل زكريا متأخراً إلى الدفن، جاهلاً تماماً بما حدث في الساعات الأخيرة لمحبوبته. بالنسبة إليه، كانت دوردالما قد انتحرت بسببه.وهكذا، رازحاً تحت وطأة شعوره بالذنب، حضر العسكري لأجل مراسم العزاء. في الكنيسة، احتضن زكريا أبي، معلناً كجندي شريف بأنه يجب تبرئة ساحته. مختنقاً بدموعه، أمسك بمسدسه كي ينهي حياته. التصق سيلفستر بزكريا في الوقت الذي انطلقت فيه الرصاصة، فاستقرت بالقرب من عظم الترقوة.

– كانت ستصيب القلب لو لم تُبعد قليلاً في اللحظة الأخيرة. علّق زكريا، بمرارة.

لاحقاً، عندما خرج زكريا من المستشفى الذي عولج فيه، تهرّب العجوز من الرصاصة المقدمة من زكريا كدليل على الامتنان.

– لا تشكرني. لم أفعل إلا ما فعلته أنت بي...

نام أخي في غرفة الطعام. جافاني النوم في تلك الليلة. أخذت كرسياً طويلاً[28] وتمددت عند باب البيت. كانت السماء ترّذ والندى يعكّر صفاء المناظر المحيطة. فكرت بـ نوسي. واشتقت إلى الهاويات اللانهائية التي كانت تنشق تحت قدميّ. ربما أذهب لرؤيتها إن استمر غيابها.

كان صوت الباب بالكاد مسموعاً عندما لحق بي أخي لينضم إلى أرقي. حمل معه ورق اللعب ودعاني لنلعب:

– هيا! دَور واحد، موانيتو.

لم يكن اللعب سوى حجة، وكنا متأكدين من ذلك. لعبنا في صمت تام كما لو كانت نتيجة الدَور من الأمور الحيوية. حتى اللحظة التي قال فيها نتونزي:

– وأنا في طريقي إلى المدينة مررت بأورشليم.

– قال أبروكزيمادو إن كل شيء قد تغير.

لم يكن هذا صحيحاً. على الرغم من كل شيء، لم يتجاوز الزمن حاجز المحمية. أكدّ لي نتونزي ذلك، واصفاً بالتفصيل كل ما كان قد رآه في مكان سكننا القديم. قاطعته في بداية سرده:

– انتظر، سوف نأتي بوالدنا إلى هنا.

– لكن أليس نائماً؟

– النوم هي طريقته في العيش.

28: Chaise longue : كرسي يُغلق ويُفتح، يُستخدم عادة على الشاطئ.

سحبنا العجوز سيلفستر بين ذراعينا وأجلسناه على الدرج، مستنداً إلى الدرْجة الأخيرة.

– الآن يمكنك أن تُكمل. احكِ لنا ماذا رأيت نتونزي.

– لكن هل يسمع شيئاً؟ أعتقد نعم، أليس كذلك سيلفستر فيتاليسيو؟

وبصوت عال، اجتهد أخي في وصف التفاصيل، وقادني خلال هذه الزيارة الأخِيرة لأعود إلى أورشليم. بقي أبي مغلق العينين، دون أي رد فعل.

– أضعت يوماً كاملاً في ماضيّ، يوماً كاملاً في أورشليم.

هكذا بدأ نتونزي بسرد زيارته. في المعسكر، كان ينقب عن آثار ذكرياتنا، يبحث عن التعليقات التي قمت بخربشتها لسنوات ودفنتها في الأرض. زار البناء المنهار، قام بتمشيط التربة وكأنه يكشط جلده نفسه. واستعاد أوراق اللعب من المخبأ الذي تركتها فيه، والتي كانت الشاهد الوحيد على تواجدنا هناك.

أمسك بأوراق الشدّة ورفعها عالياً في السماء كما يفعلون مع الطفل المولود حديثاً. كان جزء منها ممحواً، وغير مقروء. أبيات شِعر الزمن كانت قد أنزلت الملوك عن عروشها، وكذلك صور السيدات والشباب.

– وبعد ذلك نتونزي؟ ماذا فعلت، ما الذي حدث بعدئذ؟

ثم تسلق أخي خزانة غرفته، وكانت توجد هناك حقيبته القديمة التي كان قد خبأ فيها رسوماته. نفض الغبار حتى تظهر

عشرات الصور لوجه أمنا بشكل جيد. كل صورة كانت مختلفة عن الأخرى، لكن دوماً بنفس العينين الواسعتين لتلك التي تقف أمام العالم باعتباره نافذة: في انتظار حياة أخرى.

قطع نتونزي حكايته وركع بشكل مفاجئ كي يتفرس في وجه أبي.

- سألته: ماذا هناك؟

- بابا... إنه يبكي.

- كلا. الأمر هو هكذا... إنه مجرد تعب.

- كنت أعتقد بأنه يبكي.

كان أخي قد فقد الاتصال معنا ولم يعد يعرف كيف يقرأ وجه أبينا. لملمت أوراق اللعب ووضعتها بين يدي نتونزي:

- أرجوك يا أخي، اقرأ لي ما كُتب، ذكّرني بما كنت قد كتبته.

وكانت تلك لحظات عميقة لنهر يجري. كان أخي يتظاهر بفك الحروف من بين لحى صور الملوك ولباس السيدات. كنت أعرف بأنه يلفق تقريباً كل شيء، لكننا كنا نتجاهل منذ زمن الحدود الفاصلة بين الذكرى والكذب. جالساً على كرسي المصطبة وأنا أهزّ بجسدي كما كان يفعل أبي العجوز. عندما رآني نتونزي خامداً، قطع قراءته:

- هل غفوت، موانيتو؟

- أتذكر كيف استقبلتك بالأمس، بارداً وبعيداً.

- أعترف بأني قد صُدمت. أنا الذي كان قد اختار أجمل ما لديه من زيّ...

- هذا لأني أعاني من مرض والدي.

للمرة الأولى اعترفت بما كان يضيق به صدري منذ زمن. ورثت الجنون عن أبي. خلال فترات طويلة، تعرضت لهجمات من الغباشة الانتقائية. انتقلت الوِحشة إلى داخلي، محولة الجِوار إلى غياب مستوطن.

- لدي ضعف نظر نتونزي. أنا أعاني من مرض سيلفستر.

ذهبت إلى جارور المطبخ وبحثت عن محفظة مدرسية، فتحتها على اتساعها أمام نظرات أخي المذهولة.

- انظر إلى هذه الأوراق، قلت وأنا أمد نحوه برزمة أوراق مكتوبة بخط جميل.

- كتبت كل ذلك في لحظات العتمة. مصاباً بالعمى، لم أعد أرى العالم. لم أعد أرى سوى الرسائل، وكل ما عداها ظلال.

- أنت الآن، أنت ظل.

- أنا أحمل فعلياً اسم ظل.

- هل تستطيع أن تقرأ؟

- بالتأكيد، إنه خطك. واضح المعالم تماماً كما كان دوماً... انتظر قليلاً، أتقول بأنك كتبت كل ذلك دون أن ترى؟

- لا أتوقف عن كوني فاقد البصر إلا لحظة أكتب.

اختار نتونزي صفحة لا على التعيين وراح يقرأ بصوت عالٍ:

«*هذه هي كلماتي الأخيرة، هكذا صرّح سيلفستر فيتاليسيو. كونا يقظين يا ولديّ، لأن لا أحد سوف يسمعني بعد الآن أبداً. أنا*

نفسي سآخذ استراحة من صوتي. وأقول لكما: لقد ارتكبتما حماقة كبيرة بإعادتي إلى المدينة مرة أخرى. أنا مريض بسبب هذا السفر الخائن. لم تشكل المسافة يوماً حدوداً بين المدينة وأورشليم. الخوف من الشعور بالذنب هو الحدود الوحيدة. لا قيادة لأي حكومة في العالم إلا في الخوف والشعور بالذنب. قادني الخوف لأن أعيش منسحباً من الحياة وتافهاً. قادني الشعور بالذنب إلى الهروب من نفسي، مجرداً من الذكريات. أورشليم كانت هذا: ليست أرضاً إنما انتظار لإله لم يولد بعد. هذا الإله هو الوحيد الذي كان يمكن أن يعفيني من العقاب الذي فرضته على نفسي. لكنني لم أفهم إلا مؤخراً: ولداي، ولداي الاثنان، هما وحدهما من يستطيعان جلب هذا العفو إليّ».

اختنق صوته، وأوقف القراءة. جلس أخي القرفصاء بالقرب من سيلفستر وعاد ليقرأ الجملة الأخيرة «*.... ولداي، ولداي الاثنان...*».

أمام سلبية أبي، التفت نتونزي نحوي يسألني، بصوت مرتعش من التأثر:

– هل هذا صحيح يا أخي؟ هل بابا هو من قال ذلك؟

– كل حياتنا موجودة في هذه الصفحات. وعش، يا نتونزي، متى سوف نعيش حقاً؟

رتّبت الأوراق وأعدتها إلى المحفظة. وقدّمت له كتابي كآخر وأثمن ما أملك.

– أورشليم هي هنا.

حضن نتونزي المحفظة ودخل إلى المنزل. بقيت أنظر إلى أخي يختفي في العتمة، بينما عادت إلى ذهني ذكريات الزمن عندما كنا نمحو الطرقات كي نحمي مخبأنا المنعزل. وعاد إلى ذاكرتي الضوء الخافت الذي فككت تحت نوره أولى حروفي. وعدت لأتذكر تلألؤ الضوء فوق سطح مياه النهر. والأيام المشطوبة على الجدار الأسود للزمن.

فجأة، شعرت بحنين هائل إلى نوسي. ربما سأذهب لرؤيتها بأسرع مما اعتقدت. رقة هذه المرأة تجعلني أشعر بأن أبي قد أخطأ: العالم لم يمت. في الأخير، العالم لم يولد حتى. سوف أتعلم، من يدري، وأنا بين نغمات ذراعي نوسي، كيف أعود لأجد أمي تعبرُ قفاراً لانهائية قبل أن تبلغ الشجرة الأخيرة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook